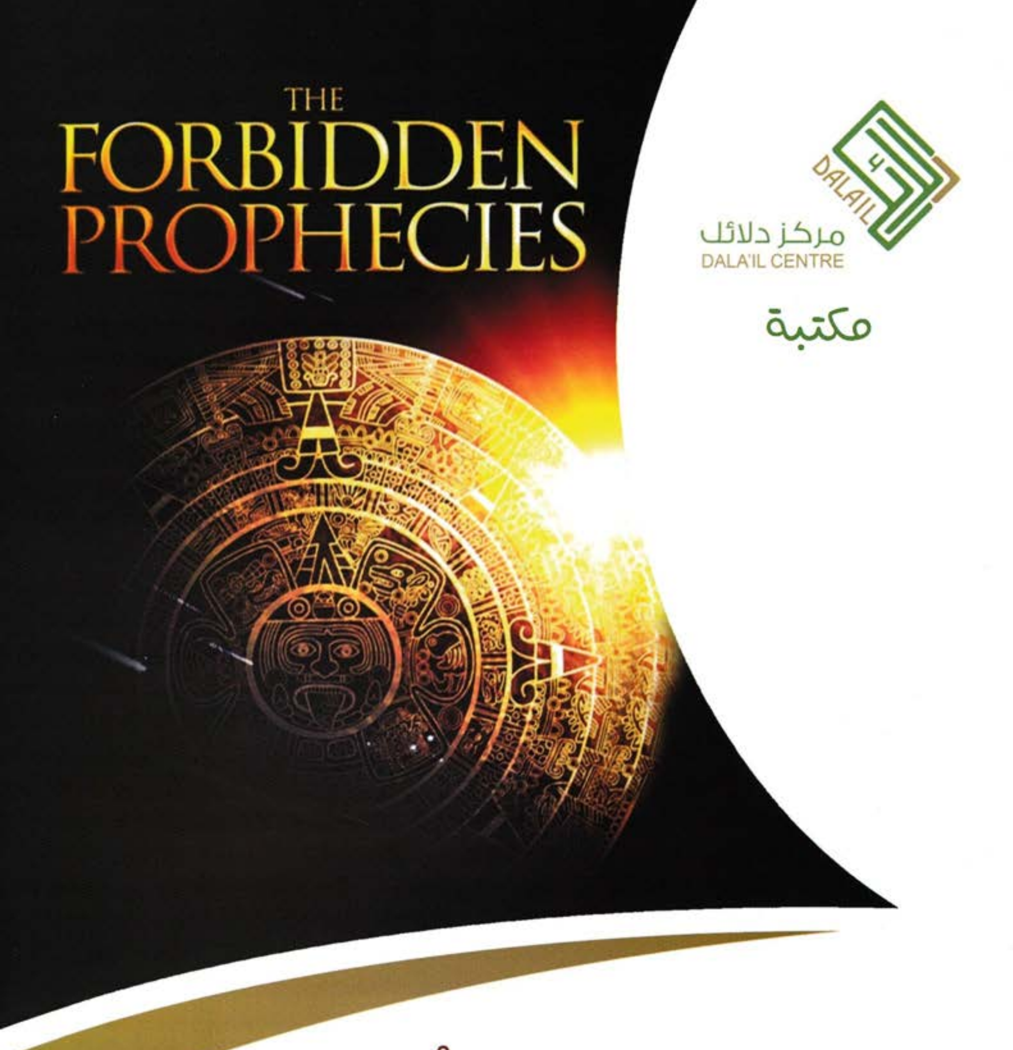


النبوءات المُحرمة

اختبار صحة النبوءات

أبو زكريا البريطاني

ترجمة : سلمى الشعراني

النبوءات
المحرمة

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

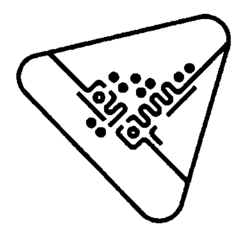
النبوءات المحرمة - أبو زكريا البريطاني
ترجمة : سلمى الشعراني
٢٨٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
ترقيم دولي : ٥ - ٢ - ٨٥٨٢٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه
ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز



Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية
ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



دار تشويق للنشر والتوزيع
مصر - +٢٠١٠٦٨٤٣١٧٧٠
DarTashweek@gmail.com

النبوءات المحرمة

اختبار صحة النبوءات

أبو زكريا البريطاني

أكاديمية iERA

ترجمة :

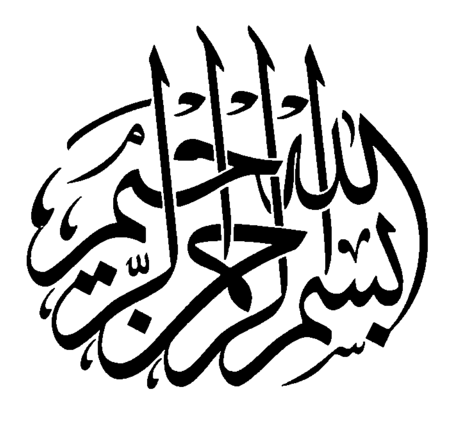
سلمى الشعراني

The Forbidden Prophecies النبوءات المحرمة

Abu-Zakariyah أبو زكريا البريطاني

تمت طباعة هذه المادة بتصريح من أكاديمية **iERA** للتعليم والبحث الإسلامي بلندن، إنجلترا:

ISLAMIC EDUCATION AND RESEARCH ACADEMY, Crown House, Suite 321, North Circular Road, London NW10 7PN.


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة

لم يفتر افتتان البشريّة بالنّبوءات منذ زمن كهنة هيكل دلفي لدىٰ الإغريق، وصولا إلىٰ الاعتقاد الذي ساد عن نهاية العالم في عام ٢٠١٢م. ويبدو أنّ النّبوءات المتعلّقة بآخر الزمان علىٰ وجه الخصوص، هي التي تستحوذ علىٰ اهتمامات البشر، وتَشيع في أوساطهم بشكل أوسع من ذي قبل. ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلىٰ ما شهده العالم في القرن الأخير من دمار وخراب؛ إذ لا يخفىٰ علىٰ أحد استفاضة نشرات الأخبار في تناول مسألة الاحتباس الحراريّ، وكُمون خطر وقوع حروب إبادة نوويّة منذ اختراع القنبلة الذرّيّة، وهيمنة الأعمال السينمائيّة علىٰ إنتاجات هوليوود، والتي تدور أحداثها حول ظهور كويكبات، وكائنات فضائيّة، وموتىٰ أحياء تهدف للقضاء علىٰ مظاهر الحياة علىٰ الأرض كافّة.

نعيش اليوم في زمن تغلّفه الحيرة، وتفتح أحداث العالم المستجدّة المجال أمام تكهّنات جديدة، إلىٰ جانب وجود سعي دائم لفهم ما يجري من حولنا، عبر اللجوء إلىٰ تنبّؤات الأنبياء والكهنة عبر التاريخ.

هل الخوف من المجهول هو العامل الوحيد الذي يغذّي هذه الميول؟ يبدو أنّ الأمر يتعدّىٰ ذلك بأشواط. يلجأ ملايين البشر إلىٰ التنجيم، وقراءة الطالع، وعلم الأرقام، وقراءة الكفّ، والوساطة الروحيّة وغيرها الكثير؛ وذلك لأسباب توازي في اختلافها اختلاف الوسائل؛ نذكر منها علىٰ سبيل المثال الفضول، والحصول علىٰ توجيهات لتسيير شؤون الحياة اليوميّة، والبحث عن معنىٰ. ولا تقتصر هذه الممارسات علىٰ المتديّنين وحسب، إذ نلحظ تطلّع الملحدين - الذين ينكرون وجود الله - إلىٰ معرفة ما يخبّئه المستقبل لهم، يرافقه في الوقت عينه اهتمام لم يسبق له مثيل بالأبراج في المجتمعات العلمانيّة. وتعدّ الرغبة في معرفة المستقبل مظهرًا من

مظاهر السلوك البشريّ الذي يتجاوز الثقافة والدين، ويوازي قِدمُه عُمرَ الحياة البشريّة نفسَها.

يقابل كلّ طلب كبير عرض يلبّي احتياجاته، شأنه في ذلك شأن معظم أمور الحياة. ويزخر التاريخ بأسماء أشخاص وكتب مقدّسة تدّعي معرفة المستقبل. سنقوم في هذا الكتاب بدراسة مدىٰ صدق أصحاب النّبوءات الذين حظوا بثقة ملايين الناس؛ إذ تتطلّب المزاعم الاستثنائيّة توافر أدلّة استثنائيّة، وسنلجأ في استقصائنا عنها إلىٰ استخدام عدد من الآليّات بغية وضع الأكثر شهرة من بينها تحت المجهر.

الفصل الأوّل

أنبياء أم أدعياء ؟

الفصل الأوّل

أنبياء أم أدعياء ؟

تخيّل أنّك تسمع طرقات علىٰ الباب، فتقوم بفتحه لتجد شخصا غريبا يلقي عليك التحيّة قائلا:

"أستطيع رؤية المستقبل... كرّس نفسك لتعاليمي واتّبعني".

كيف ستتصرّف حيال ذلك ؟ لعلّك ستتحدّاه علىٰ الإتيان بدليل يثبت مزاعمه؛ أو لعلّك ستظنّه مخلاّ عقليّا، ثمّ تعود أدراجك إلىٰ الخلف رويدا رويدا مغلقا الباب وراءك، أو حتّىٰ موصدا إيّاه علىٰ سبيل الاحتياط. يشكّك معظم الناس في صحّة المزاعم الغريبة عند سماعهم بها، وهذا أمر يمكن تفهّمه تماما. ولكن أليس من المستغرب قيام ملايين الناس باتّباع أشخاص وكتب تدّعي معرفة المستقبل بشكل أعمىٰ، ومن غير تكلّف عناء تمحيصها ؟

تتجلّىٰ الرغبة في معرفة المستقبل في أشكال متعدّدة، سيتناول الكتاب دراسة الكثير منها. وتتضمّن الأمثلة الشخصيّات التاريخيّة المشهورة التي ادّعت قدرتها علىٰ التنبّؤ بالمستقبل. ويطلق علىٰ تلك الشخصيّات عدة ألقاب تتراوح بين نبيّ، وعرّاف، وكاهن. كما سيتمّ التطرق إلىٰ الكتب المقدّسة القديمة التي تتضمّن تنبّؤات عن المستقبل، بالإضافة إلىٰ الاعتقادات الخرافيّة بوجود أرقام للحظّ الجيّد وأخرىٰ للحظّ السيّئ. وعلىٰ الرغم من اختلاف هذه الطقوس والأساليب، إلّا أنّ منظومة النّبوءات تلك، تتشارك في هدف واحد، وهو لجوء البشر إليها في مسعىٰ لمعرفة المستقبل والتأثير في مجريات أحداثه.

كيف نستطيع التأكّد من صحّة الرؤىٰ المستقبليّة التي تقدّمها منظومة نبوءات معيّنة ؟

بخلاف الممارسين أنفسهم الذين يعمدون إلىٰ أساليب غامضة لاستنباط تنبّؤاتهم، يمكننا استخدام بعض الآليّات العمليّة للتمييز بين الصادق والمُدّعي :

• تتمثّل إحداها في دقّة التنبّؤات – هل تصدُق تنبّؤاته دائما ؟ إذا كان لشخص، أو كتاب، أو ممارسة قدرة علىٰ معرفة المستقبل، فلا بدّ لهم القيام بذلك من دون الوقوع في أيّ خطأ؛ لأنّ ارتكابهم له دليل علىٰ كون تنبّؤاتهم مجرّد تخمينات أكثر منها قدرات حقيقيّة خارقة للعادة.

• أمّا الأداة الثانية، فتتجسّد في كثرة التنبّؤات، حيث يمكن أن يحالف الحظّ أيّ شخص في الخروج بتخمين واحد صحيح. لكن يصعب ذلك مع الكثرة.

• والأداة الثالثة هي في طبيعة هذه التنبّؤات، هل هي واضحة ومحدّدة ؟ أم مبهمة وعامّة ؟ حيث إنّ التنبّؤات المبهمة تمنح نفسها ترف التفسيرات المتعدّدة، لذا لا تعدّ ذات قيمة تذكر من حيث القدرات التنبّئيّة؛ وحتّىٰ لو كانت هذه التنبّؤات دقيقة وكثيرة وواضحة، لا يجب أن يكون التنبّؤ بها من السهولة بمكان، أي لا تكون واضحة أمام أيّ شخص بمقدوره تحليل الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة ثم استنباط النتائج. وبعبارة أخرىٰ، لا ينبغي لهذه التنبّؤات أن تكون نتاج ذهن متّقد. يمكن لشخص علىٰ سبيل المثال التنبّؤ بتعرّض طفل صغير لحادث مأساويّ، إلّا أنّ مثل هذا التنبّؤ لا يعدّ أمرا استثنائيّا، نظرًا لإيذاء الأطفال أنفسهم طوال الوقت؛ ومن هذا المنطلق، ستصبح قدرة المتنبّئ الأصعب هي تحديد الطفل الذي لن يصاب بأذىٰ علىٰ الإطلاق، وسيكون ذلك التنبؤ هو اللافت للنظر !

• وختاما، تعدّ الحياة الشخصيّة للمُتنبئين غاية في الأهمّيّة؛ فإذا عُرف عنهم الكذب، فهذا من شأنه أن يؤدّي إلىٰ التشكيك في مصداقيّتهم وفي دوافعهم. وباستخدام هذه الآليّات المختلفة، سنقوم بتحليل القدرات التنبّئية لأشهَر الأفراد والوسائل التي ظهرت عبر التاريخ.

حضارة المايا القديمة

ازدهرت حضارة المايا القديمة، التي اشتهرت بكتاباتها المتطوّرة وعلميّ الرياضيّات والفلك، لقرون في أميركا الوسطىٰ، ولا سيّما بين عامي ٣٠٠ و٩٠٠م، حيث بلغت ذروة تأثيرها في القرن السادس الميلاديّ. وتركت حضارة أميركا الوسطىٰ البائدة إلىٰ جانب النصب الحجريّة المهيبة والمدن المتطوّرة، آثارًا عن نظام تقويمها المنمّق الذي يعرف باسم تقويم العدّ الطويل، والذي عانىٰ العلماء لعقود في فكّ رموزه. تبدأ أنظمة التقويم عادة، كالتقويم الغريغوريّ مثلا، من سنة صفر ثمّ تزيد تصاعديًّا مع مرور الزمن؛ إلّا أّن تقويم شعب المايا مختلف، لأنّه يقوم علىٰ مبدأ الدورات، بحيث يغطّي حوالي ٥١٢٥ سنة ثمّ يعاود البدء من جديد من السنة صفر.

تمسّكت ثقافات مشهورة، في العقود التي سبقت سنة ٢٠١٢م، بنظريّات تقول بأنّ نهاية دورة تقويم العدّ الطويل التي تصادف ٢١ كانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠١٢م، تمثّل نهاية العالم بحسب معتقد شعب المايا. وتعدّ نبوءة نهاية العالم في عام ٢٠١٢م، الحدث الذي لاقىٰ ضجّة أكبر من أيّ حدث آخر في تاريخ البشريّة، وذلك بفضل انتشار الإنترنت، وأفلام هوليوود، واهتمام وسائل الإعلام بتسليط الضوء عليه. وبحسب تصويت عالميّ أجرته وكالة رويترز للأنباء في الفترة التي سبقت ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢م، فإنّ شخصًا من أصل ١٠ أشخاص راوده بعض القلق من ذلك اليوم[١] . وأصدر وزير الطوارئ الروسيّ حينها تطمينات تؤكّد علىٰ

---

[١] موقع وكالة رويترز الإلكتروني. تاريخ الزيارة : ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٧م :

http://www.reuters.com/article/us-mayancalendar-poll/one-in-seven-thinks-end-of-world-is-coming-poll-idUSBRE8400XH20120501

عـدم انتهـاء العـالـم؛ كمـا منعـت الـسلطات الفرنـسيّة الوصـول إلـىٰ جبـل في قريـة بوغراش، حيث اعتقد بعضهم بوجود طبق طـائر سيقوم بإنقـاذهم؛ أمّـا في الولايـات المتّحدة، فقـد شـهدت أسـواق الملاجـئ والـذخيرة ارتفاعـا ملحوظـا في مبيعاتهـا، في محاولة من قبل الطامحين بالنجاة الاستعداد لمواجهة الأسوأ.

حلّ يوم الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٢م وانتهـىٰ مـن دون أيّ حوادث؛ فالاعتقاد الذي شاع عن تنبّؤ شعب المايا بنهاية العالم، كان قائمـا علـىٰ فهم خاطئ لطبيعة تقـويمهم. لقـد فـشل أولئـك الـذين اعتقـدوا بنهايـة العـالـم في عـام ٢٠١٢م في أخذ تعقيدات تقويم شعب المايا بعين الاعتبار. فبالنسبة للمايا، كـان ٢١ كـانون الأول/ ديـسمبر ٢٠١٢م بكـلّ بـساطة، اليـوم الـذي ينتقـل فيـه تقـويمهم إلـىٰ الدورة اللاحقة ويعاود البدء من السنة صفر. يعتقد شعب المايا أنّه كلّما انتهت دورة عظيمة، تبدأ واحدة أخـرىٰ مكانهـا. في الواقـع، لقـد تنبّـأ شـعب المايـا بأرجحيّـة عـدم انتهاء العالم في عام ٢٠١٢م؛ حيث اكتشف عالم الآثـار وليـام سـاتورنو William Saturno سلـسلة مـن الأرقـام المطليّـة علـىٰ إحـدىٰ جـدران تجمّـع تـابع للمايـا في غواتيمالا. تتضمّن الحسابات تواريخ متقدّمـة في المـستقبل البعيـد: **"تنبّـأت حـضارة المايا القديمة باستمرار العالـم، وبأنّه بعـد مـضيّ ٧٠٠٠ سنة مـن يومنـا هـذا، سـتبقىٰ الأمور علىٰ ما هي عليه. نستمرّ بالبحث عن النهايات، في الوقت الذي كان فيه شعب المايا يبحث عن ضمانة لبقاء كلّ شيء كما هو. نحـن أمـام منهجَـي تفكيـر مختلفـين كلّيّا"**.[1]

ومع نهاية العالم في عام ٢٠١٢م التي لم تحدث علىٰ الإطلاق، نجـد بـين أيـدينا نموذجا عن نبوءة تمّـت نـسبتها إلـىٰ شـعب لـم يقـل بحـدوثها في المقـام الأوّل. ومـع

---

(1) Wendell G. Johnson, End of Days: An Encyclopedia of the Apocalypse in World Religions, p. 234.

ذلك، يستمرّ افتتان الناس بثقافة المايا ومعتقداته، والنظر في كتاباته أملا في تحصيل رؤىٰ عن المستقبل. ويُستبعد امتلاك المايا لقدرات تنبّئية نظرا لفشلها في استشراف الغزو الإسبانيّ لأراضيها، حيث شهد القرن السادس عشر رسوّ الغزاة الإسبان علىٰ شواطئها وقضاءهم علىٰ حضارتها. وأجبر الاستعمار الإسبانيّ شعب المايا علىٰ اعتناق المسيحيّة، في حين وقع أولئك الذين رفضوا التخلّي عن معتقداتهم الموروثة تحت نير الأسر والتعذيب. كما حُطّمت صناعاتهم اليدويّة، وأُحرِقت جميع نصوصهم المقدّسة باستثناء جزء يسير منها. ويصعب التصديق بامتلاك شعب المايا القدرة علىٰ رؤية المستقبل والتنبّؤ بمصير غيرهم من الثقافات والشعوب، في الوقت الذي عجزوا فيه عن توقّع نهاية حضارتهم علىٰ مرأىٰ من ناظريهم.

العقيدة الطاوية وكتاب آي شينغ

تعدّ الطاويّة (أو الداويّة، أو التاويّة) مجموعة من التقاليد الفلسفيّة والدينيّة الصينيّة القديمة. تؤمن كلّ حركة طاويّة بالنهاية الوشيكة للعالم – أو على الأقلّ بنهاية الجزء الأكبر من البشريّة التي رفضت اتّباع الطريقة الطاويّة.[١] تشتهر الكتب المقدّسة الطاويّة، على غرار الديانات الإبراهيميّة كالمسيحيّة والإسلام، بغناها بالنّبوءات. ويعدّ كتاب الطلاسم الربّانيّة أقدم نصّ صينيّ معروف يصف بالتفصيل نهاية الكفار، مع وجود اعتقاد بعودة أجزاء منه إلى بداية القرن الخامس الميلاديّ[٢] ويرثي الكتاب حال البشريّة وما أصابها من شرور :

" في يومنا هذا، تقضي شياطين الأوبئة على الناس. ويَغرق العالم بالرذيلة، ويفتقر إلى الخير. ويعجز الناس عن رؤية الحقيقة. وعلى الرغم من انتشار وحي الكهوف الثلاثة منذ أمد بعيد، إلّا أنّ البشر لا زالوا يرزحون تحت جهلهم، عاجزين عن التماسه والتصديق به. إنّهم يجلبون الويلات لأنفسهم".[٣]

أمّا أولئك الذين يؤمنون بالطاويّة وينشرون تعاليمها، فقد بشّرهم الكتاب بالتمتّع بالحماية الإلهيّة، وبامتلاك مفاتيح النجاح في جميع شؤون حياتهم **"من الآن فصاعدا"**، في إشارة إلى فوريّة تحقّق هذه الأمور :

"من الآن فصاعدا، ستمتد جذور وحي الكهوف الثلاثة لتصل كل حدب وصوب. فالعارفون (أي الأذكياء) سيؤمنون به، أمّا الجاهلون فلا زالوا بأمسّ

---

(1) William Theodore de Bary and Irene Cohen, Sources of Chinese Tradition: Volume 1: From Earliest Times to 1600, p. 406.

(2) Ibid., p. 406.

(3) Ibid., p. 407.

الحاجة إليه. ومن الآن فصاعدا، ستساعد جحافل الأرواح المصدّقين بوحي الكهوف الثلاثة. كلّ فعل سيصل إلىٰ كماله وسيتّسم بالاتّساق. وملوك الشياطين العظام ستقوم بحمايتهم".[1]

ويذهب الكتاب إلىٰ عرض تفاصيل مُرعبة عن مصير أولئك الذين يرفضون اعتناق الطاويّة، ويخالفون تعاليمها ويَجرُّون المجتمع نحو الفوضىٰ، متوعّدا إيّاهم بالأمراض والهلاك :

"ثمّة تسعمائة وثمانون ألف نوع من الأمراض التي يعود مصدرها إلىٰ المياه؛ وثمّة اثنان وثلاثون مرضا أسود، وأبيض، وأحمر، وأخضر، وأصفر لا يمكن شفاؤها، وثمّة ستة وتسعون شكلا مختلفا لموت الفجأة؛ تصيب المجرمين والمادّيّين الذين لا يتّبعون قانون داو ويشيعون الفوضىٰ في البلاد؛ ذلك لأنّه عندما يُعرِض السيّئون عن اتّباع الخير طوال حياتهم، ترسل السماء حرسا ربّانيّين بعشرة آلاف من الأمراض للقضاء عليهم".[2]

لنقم الآن بتحليل دقّة هذه النّبوءات في ضوء التاريخ الصينيّ. ازدهرت الديانة الطاويّة في عهد سلالة تانغ (٦١٨م – ٩٠٧م) حيث اعتُرف بها رسميّا ودعمتْها الحكومة.[3] وفي عهد سلالة سونغ (٩٦٠م – ١٢٧٩م)، لاقت الديانة دعما حيويّا من عدّة أباطرة، حيث جُمعت نصوصها المقدّسة كما أنه تم نشرها.[4] إلّا أنّ الطاويّة بدأت بمكابدة تضييقات شديدة في عهد سلالة يوان (١٢٧٩م – ١٣٦٧م) حيث صدرت أوامر بحرق عدّة نسخ من نصوصها المقدّسة. وشهد عهد سلالة كينغ (١٦٤٤م – ١٩١٢م) رفضا واسع النطاق للطاويّة لصالح فلسفات أخرىٰ

---

(1) Ibid., p. 409.

(2) Ibid., pg. 409-410.

(3) Isabelle Robinet, Taoism: Growth of a Religion, p. 184.

(4) Ibid., p. 213.

كالكنفوشيوسيّة. ومع بداية القرن العشرين، خسرت الديانة جزءًا مهمّا من حاضنتها الشعبيّة.[1] وتفاقمت الأمور سوءًا في خلال الفترة القوميّة (١٩١٢م - ١٩٤٩م) التي تمّ فيها تبنّي الحداثة والثقافة الغربيّة، واعتناق ديانات أخرىٰ كالمسيحيّة. كما قامت الحكومة بمصادرة بعض المعابد بهدف تشييد مرافق حكوميّة.[2]

وجلب قيام جمهوريّة الصين الشعبيّة (١٩٤٩م - إلىٰ اليوم) معه أقسىٰ مظاهر الاضطهاد ضدّ الديانة الطاويّة، حيث قمع الحزب الشيوعيّ اللادينيّ الطاويّة إلىٰ جانب غيرها من الديانات. ودمّر الكثير من المعابد الطاويّة، وإرسال كهنتها إلىٰ معسكرات العمل.[3]

وعلىٰ الرغم من كلّ أشكال الاضطهاد الذي عانت منه الطاويّة علىٰ مدىٰ القرن الماضي، لم تتحقّق أيٌّ من الوعود التنبؤية والتهديدات الواردة في كتاب الطلاسم الربّانيّة. كما لم يحظ الكهنة والمعابد بحماية خارقة، ولم يعانِ المضطهِدون من الأمراض ويُمنوا بالموت حسبما جاء في التعاليم الطاويّة؛ بل إنّ ما حدث علىٰ أرض الواقع كان علىٰ النقيض من ذلك تماما، حيث تراجعت الطاويّة التي ذاع صيتها في يوم من الأيّام لصالح غيرها من الديانات، وعزّز الحزب الشيوعيّ اللادينيّ من قوّته، حتّىٰ أصبحت الصين اليوم قوّة عسكريّة واقتصاديّة عظمىٰ في العالم.

أمّا الكتاب الآخر المهمّ في الطاويّة، فهو كتاب آي شينغ (كتاب التغييرات)؛ الذي يعود تاريخه لأكثر من ٣٠٠٠ عام، ويُعتقد كونه أحد أقدم كتيّبات العرافة في العالم.[4]

---

(1) Kristopher Schipper, The Taoist Body, p. 220.

(2) Ibid., p. 18.

(3) Kenneth Dean, Taoist Ritual and Popular Cults of Southeast China, p. 41.

(4) Allen Pittman, Walking the I Ching, p. 21.

ويصف مايكل نايلن Michael Nylan، العالم المتخصّص بالحضارة الصينيّة، الكتاب بأنّه أشهر كتاب صينيّ في العالم.[1]

وعلىٰ مرّ التاريخ، استُرشد بكتاب (التغييرات) في شؤون مختلفة تطال السياسة والتجارة والعلاقات الشخصيّة والحروب؛ حيث أدّىٰ علىٰ سبيل المثال دورا في الإطاحة بسلالة شانغ علىٰ يد جو كينغ وو Zhou King Wu في سنة ١٠٧٠ ق.م.[2]

ينقسم الكتاب إلىٰ أربعة وستّين فصلا، يسبق كلّ واحد منها رمز من ستّة خطوط يعرف "بالنجمة السداسيّة". وترتبط كلّ نجمة من هذه النجمات السداسيّة بعدد من النّبوءات. ولاستنباط إشارة معيّنة، ينبغي علىٰ المرء التفكير في مسألة يحتاج توجيها بشأنها، ثم يقوم برمي عدد من القطع النقديّة التي تؤدّي نتيجتها إلىٰ الحصول علىٰ نمط عشوائيّ من الخطوط المتقطّعة والكاملة، تحكم بالرجوع إلىٰ إحدىٰ الفصول الأربعة والستّين من كتاب آي شينغ.

تقوم النظريّة علىٰ تمثيل هذه النجمات السداسيّة لنواة ظروف التغيّرات في الكون؛ ومن خلال الاسترشاد بهذا الكتاب، يتمّ تزويد المرء بتوجيهات للحاضر والمستقبل.

وفيما يلي بعض نماذج الإشارات التي يمكن استقاؤها عشوائيّا :

"سرب من الأسماك. تأتي البركة من نساء الميادين. كلّ شيء يحدث ليزيد".[3]

---

(1) Michael Nylan, The Five "Confucian" Classics, pp. 204–206.

(2) S.J. Marshall, The Mandate of Heaven: Hidden History in the I Ching, p. 50.

(3) Hellmut Wilhelm, The I Ching or Book of Changes, see entry under hexagram 23.

"الإوزّة البرّيّة تنجذب شيئا فشيئا نحو الشجرة. لعلّها تجد جذعا مسطّحا. لا ملامة".[1]

"عتمة النور أصابته في فخذه الأيسر. سيقدّم المساعدة عبر الاستعانة بقوّة حصان".[2]

"الصديق يقضم طريقه عبر الأغلفة. فإذا ذهب أحدهم إليه، كيف له أن يكون مخطئا"؟[3]

يعجّ كتاب آي شينغ بهذا النوع من الإشارات المبهمة والغامضة، ما يوقعنا في مشكلة تعدّد التأويلات. وتبدو إمكانيّة وصول المرء لنتيجة مماثلة، أو حتّىٰ أفضل منها، واردة للغاية بمجرّد قيامه بالتقليب في صفحات كتاب للأمثال العربيّة والتدبّر في النصائح المنبثقة من أقوال مثل: **"الإرادة تصنع المعجزات"**، أو **"يد واحدة لا تحمل بطّيختين"**، أو المثل الأكثر تعقيدا من بينها **"كما تدين تدان"** الذي يحمل معنىٰ الإدانة بالخير أو بالشر بحسب تصرّفات المرء. ولا أحاول هنا التقليل من شأن الأمثال، لأنّها تنضوي علىٰ حِكَم بالفعل؛ غير أنّ ثمّة فارقًا شاسعًا بين تأمّل هذه الأمثال واستنباط الدروس والعبر منها، والسعي في استخدامها للتنبّؤ بالمستقبل.

وحتّىٰ لو كانت القراءة واضحة وجليّة، فإنّ المسألة الأخرىٰ التي تبرز هي في تناقض الإجابات. فبناء علىٰ النتائج العشوائيّة المنبثقة من إلقاء القطع النقديّة، يمكنك الانتهاء بفائض من المعلومات المتناقضة. فمن جهة، قد تظهر النتيجة في خطّ يحثّك علىٰ المضيّ قدما في عدد من الأمور كونها ستعود عليك بالحظّ الوافر

(1) Ibid., see entry under hexagram 53.

(2) Ibid., see entry under hexagram 36.

(3) Ibid., see entry under hexagram 38.

والنجاح، ومن جهة أخرىٰ يمكن للإشارة نفسها أن تعطيك خطًا آخر يحضّك علىٰ التراجع لما في الأمر من سوء حظّ وكوارث. كيف يمكن للمرء حلّ مثل هذه الإشارة المتناقضة ؟

لا يحتوي كتاب آي شينغ علىٰ تعليمات تخصّ كيفيّة الجمع بين المتناقضات، وعندما يستشير أحدهم المتخصّصين بهذا الكتاب، فسيكتشف وجود عدد من المقاربات المختلفة لحلّ هذه المشكلة، أغلبها اعتباطيّة. يرىٰ بعضهم وجوب قراءة الخطوط الموجودة في النجمة السداسيّة كمتتالية أو كقصّة بترتيب معيّن، من الأسفل للأعلىٰ علىٰ سبيل المثال. في حين يتبنّىٰ آخرون الرأي القائل بتمثيلها لخيارات متعدّدة؛ كما يؤوّل بعضهم تصوير هذه الخطوط انخراط عدّة أشخاص في الأمر. ويمكنك ملاحظة وجود عدّة قوانين مختلفة يمكن اللجوء إليها لحلّ التناقض، وبحسب مجموعة القواعد التي تميل إليها، يمكنك الحصول علىٰ نتائج مختلفة للغاية. ويمكن التعامل مع القراءة الواحدة لتخرج بنتيجة إيجابيّة أو سلبيّة، وذلك بموجب المقاربة التي يختار المرء تبنّيها.

ومرّة أخرىٰ، أذكّر بوجود عدّة قوانين مختلفة لكيفيّة القيام بذلك، لا يرد ذكر أيّ منها في كتاب آي شينغ الأصليّ. وللأسف، لا يمكن العودة لكتاب آي شينغ للحصول علىٰ إجابة لهذه المشكلة، لأنّه يمكن الخروج أيضا بإجابة متناقضة لكيفيّة حلّ هذا التناقض!

وسنختم هذه الفقرة بالتطرّق إلىٰ ترجمة عالم اللاهوت الألمانيّ ريتشارد ويلهلم Richard Wilhelm لكتاب آي شينغ التي توصف بأنّها واحدة من أفضل الترجمات، والتي لها أثر ثقافيّ عميق في الغرب. وكان عالم النفس السويسريّ كارل يونغ Carl Jung شديد الإعجاب بكتاب آي شينغ، ما دفعه إلىٰ كتابة تقريض ترجمة ريتشارد ويلهام. ورجع يونغ لكتاب آي شينغ واستشاره في تقديمه للفكر

الغربي. ولقد تأثر يونغ بمدىٰ جلاء الإشارة التي حصل عليها؛ والتي تقول، في جزء منها "**قِدر مقلوب، إزالة إضافيّة للأشياء الراكدة**". وفسّر يونغ ذلك علىٰ أنّ آي شينغ يشبّه قِدرًا غير مستخدم، وأنّه عندما تُزال "**الأشياء الراكدة**" فإنّه "**يمكن استخدامه لغايات أسمىٰ**"[1] . ويبدو أنّ هذه الإشارة أكّدت ليونغ موافقة الكتاب علىٰ تقديمه للغربيّين. وردّ أحد المناهضين لتأويل يونغ، مبيّنا الكيفيّة التي يقوم بها مُشكّكٌ بصحّة كتاب آي تشينغ، بتأويل هذه الإشارة، ومقترحا التفسير الآتي: "**يجب نبذ آي شينغ، وتطهير عقولنا من الخرافات البائدة**".[2]

---

(1) Carl Jung, foreword, The I Ching or Book of Changes, Translated from the Chinese by Richard Wilhelm, xxx.

(2) Ernest Gallo, Synchronicity and the archetypes, p. 40.

الهندوسية والتنجيم

يقوم التنجيم علىٰ دراسة الأجرام السماويّة كالكواكب والنجوم، بغية الحصول علىٰ معلومات عن الشؤون الإنسانيّة وأحداث العالم. ويوجد أنواع مختلفة من علم التنجيم؛ كالتنجيم الغربيّ، أو تنجيم علامة الشمس الذي يعدّ نظاما مبسّطا من التنجيم يقتصر علىٰ دراسة موضع الشمس عند الولادة. ويحكىٰ عن قدرته علىٰ تزويدك بمعلومات عن الصفات الشخصيّة العامّة التي قد تتشاطرها مع غيرك من الذين يقاسمونك البرج نفسه؛ والتنجيم المتعلّق بالولادة الذي يعدّ أكثر تعقيدا، حيث يأخذ بعين الاعتبار يوم الولادة، وساعتها، ومكانها بغية رسم الخارطة الفلكيّة الشخصيّة. ويدّعي توفير تحليل أعمقَ للصفات الشخصيّة ونقاط القوّة والضعف فيها؛ والتنجيم المتعلّق بالعلاقات الشخصيّة الذي يقوم علىٰ دراسة الخرائط الفلكيّة الشخصيّة لمعرفة مدىٰ التوافق بينك وبين الآخرين، ويشيع استخدامه لمعرفة نجاح العلاقة الشخصيّة من عدمها. يستخدم الكثير من الناس هذه الأنواع من التنجيم بقصد اللهو أو التسلية، كما تعرّف معظمهم إلىٰ عالَمه في سنّ مبكّرة عن طريق قراءة الطالع في الصحف. وأظهرت نتيجة بحث أجري علىٰ مجموعة من الطلبة في بريطانيا معرفة جميع الطلاب لاسم برجهم، وقراءة ٧٠٪ منهم لطالعهم، واعتقاد ٨٥٪ منهم بتطابق وصف علامة ولادتهم مع شخصيّتهم.[1]

تعدّ الهندوسيّة ديانة قديمة منشؤها الهند؛ وهي واحدة من أكثر الديانات اتّباعا، مع وجود أكثر من مليار هندوسيّ في العالم. ويشغل التنجيم حيّزا مهمّا في الهندوسيّة عن أي ديانة كبيرة أخرىٰ. ويعرف نظام التنجيم التقليديّ الهنديّ باسم جيوتيش

---

(1) Susan Blackmore and Marianne Seebold, 'The Effect of Horoscopes on Women's Relationships', Correlation, Vol 19 no 2, Winter 2000-1, pp 14 – 23.

"Jyotish" وهو كلمة مشتقّة من اللغة السنسكريتيّة وتعني "علم دراسة الأجرام السماويّة". يدرس جيوتيش الأجسام الفلكيّة ويستخدم في معرفة الوقت، وإعداد التقويم، والتنبّؤ بالأوقات المباركة لممارسة الطقوس الهندوسيّة. ويزخر الفيدا Vedas، الذي يشكّل جزءًا كبيرا من الكتب المقدّسة الهندوسيّة، بالإشارات العائدة للفلك والتنجيم. ويعدّ جيوتيش أحد "أطراف" الفيدا الستّة التي يجب دراستها بغية إتقان العلم علىٰ نحو كامل. ومن بين الأطراف الستّة، يقترن جيوتيش بالعينين في الجسم البشريّ. وبعبارة أخرىٰ، يعدّ جيوتيش "عيني الفيدا" بشكل شبه حرفيّ، لذا يرتبط بـ "رؤية" الحقيقة الروحيّة.(١)

تقوم أسس التنجيم الهنديّ علىٰ نظريّة العلاقة "Bandhu"، وهي المفهوم الذي يقول بارتباط العوالم الخارجيّة بالعوالم الداخليّة. والفكرة هي أنّه بقياس العالم الخارجيّ، يستطيع المرء فهم العالم الداخليّ. يُعتقد في الهندوسيّة بأنّ الكون هو الجسم الحيّ للإله، وبأنّ جميع الكائنات موجودة داخل هذا الجسم الكونيّ. وثمّة ترتيلة شهيرة في الفيدا تشرح العلاقة بين الله والكون:

"لدىٰ بوروشا ألف رأس، وألف عين، وألف قدم. يحيط بالكون من كل أطرافه، لكنّه يتجاوزه من كل جانب من جوانبه. هو كلّ ما كان وكلّ ما سيكون؛ هو ربّ الخلود وربّ الكائنات التي تتغذّىٰ بالطعام... عندما قاموا بتقسيم بوروشا، كم جزءًا جعلوا له؟ ما الاسم الذي أطلقوه علىٰ فمه، وأيديه؟ ماذا سمّوا أفخاذه وأقدامه؟... القمر ولد من عقله، ومن عينه أشرقت الشمس... ومن سرّته نفخ الهواء، ومن رأسه رفعت السماء، ومن أقدامه بسطت الأرض، ومن أذنه توزّعت البلدان. وهكذا تشكّلت العوالم".(٢)

---

(1) J N Bhasin, Astrology in Vedas, p. 10.

(2) Rig Veda, Book 10, Hymn 90.

نلاحظ بأنّ الفيدا يسبغ القداسة علىٰ الكون؛ حيث يقول بتمثيل الشمس لعين الله، والقمر لعقله، والهواء لسرّته، والأرض لأقدامه. وثمة الكثير من النصوص الفيديّة التي تظهر الأهمّيّة التنجيميّة للكواكب والنجوم. ولدينا هنا علىٰ سبيل المثال ترتيلة تدعو الشمس لشفاء أسقام القلب وهزيمة أعداء المرء :

"متطلّعين إلىٰ النور البازغ من فوق العتمة، ها قد أتينا. أيّتها الشمس، يا إلهة من الآلهة، أيّتها النور الأكثر سطوعا. لقد طلعتِ اليوم، يا غنيّة بالأصدقاء، مرتفعة في السماء البعيدة؛ أيّتها الشمس، اشف أسقام قلبي، وارفعي عنّي هذه الصبغة الصفراء. وبكلّ ما أوتيت من قوّة قاهرة، ارتقت هذه الشمس إلىٰ العلياء، واضعة عدوّي بين يديّ: لا تجعليني فريسة له". (١)

وفي ترتيلة أخرىٰ، نجد القمر مرتبطا بطول العمر :

"عندما يولد القمر يكون حديثا، والحداثة هي دلالة دائمة علىٰ انتهاء الأيّام التي يغيب بها قبل بزوغ الصباح. وعندما يظهر، يوزع علىٰ الآلهة حصصها. القمر يطيل في أعمارنا". (٢)

وبحسب موضع القمر عند مولد الطفل، يعتقد بقدرته علىٰ التنبّؤ بتعدّي الطفل لمرحلة الطفولة أو بمفارقته الحياة بعد ولادته بفترة وجيزة. ويعتقد بأنّ القمر القويّ يعطي حياة مديدة، وبأنّ القمر الضعيف يسبّب الموت في الصغر. (٣)

هذا وتحتوي كتب هندوسيّة أخرىٰ دلالات تنجيميّة. تُعدّ المهابهراتا Mahabharata قصيدة ملحميّة عن الهند القديمة، تمّت كتابتها بعد الفيدا. وتضمّ مزيجا من المحتوىٰ التاريخيّ، والأخلاقيّ، والفلسفيّ، والتعبّديّ. تتمتّع المهابهراتا

(1) Rig Veda, Book 1, Hymn 50, Mantras 10 - 11, 13.
(2) Rig Veda, Book 1, Hymn 85, Mantra 19.
(3) J N Bhasin, Astrology in Vedas, p. 79.

بأهمّيّة دينيّة وفلسفيّة، وتصف الطقوس القديمة التي يمكن ممارستها ومنافعها :

"علىٰ من يرغب بالإنجاب ممارسة الطقس (Sraddha) تحت البرج روهيني، أمّا من يرغب بالقوّة فعليه بممارسة الطقس تحت البرج مريغاسيراس. وبممارسة الطقس تحت البرج أردرا، يصبح الرجل قادرا علىٰ مزاولة الأعمال الشاقّة. والرجل الذي يرغب بالجاه ورغد العيش، فعليه بممارسة الطقس تحت بوشيا. وأما من يمارس الطقس تحت البرج أسليشا، فيرزق بأطفال شجعان".[١]

وتمضي الأبيات في تعداد المنافع التي يمكن حصدها من ممارسة الطقس تحت كلّ برج من الأبراج المختلفة.

أخذ حكماء الهندوس هذه المفاهيم الدينيّة الموجودة في الفيدا وغيره من الكتب – أي قدسيّة النجوم والكواكب، والمنافع التي تغدقها علىٰ البشريّة – لتطوير نظام تنجيم معقّد للغاية. كما يرون أن الحكيم مهاريشي بريغو Maharishi Bhrigu هو أحد أعظم الحكماء السبعة في الهندوسيّة.[٢] ويُعتقد أنه أب التنجيم الهندوسيّ، وأوّل جامع للتنجيم التنبّؤيّ،[٣] ومؤلّف كتاب بريغو سامهيتا، وهو كتاب تنجيم عريق.

يستمرّ جيوتيش بالتأثير في حياة الملايين اليوم. ويتمّ اختيار أسماء الأطفال حديثي الولادة تقليديّا بناء علىٰ خرائط جيوتيش العائدة لهم، وتتحكّم مفاهيم جيوتيش في جوانب عدّة من الحياة كاتّخاذ قرار بالزواج، وافتتاح عمل جديد، والانتقال إلىٰ منزل جديد، وغيرها. ويشير عالم الفلك الهندي بلاشاندرا راو

---

(1) Mahabharata, Book 13, Section 89.

(2) GK Marballi, Journey Through The Bhagavad Gita - A Modern Commentary, p. 366.

(3) T.M. Rao, Bhrigu Samhita, p. 9.

قائلا: "الاعتقاد بالتنجيم في مجتمعنا متجذّر للغاية لدرجة Balachandra Rao **تدفع المرء في كلّ مرّة يسعىٰ فيها لاتّخاذ أتفه القرارات في حياته – كالتقديم إلىٰ عمل من عدمه – إلىٰ الهروع للمنجّمين حاملا طالعه"**[1] وهكذا، قد يؤدّي يوم مبارك إلىٰ إقامة عدد كبير من حفلات الزفاف، ما يسبب ضغطا علىٰ المرافق مثل قاعات الزفاف والمطاعم. ويعدّ أَشهرُ مثال علىٰ ذلك خطوبة ولي عهد مملكة سيكيم، بولدون ثوندوب نامغيال Palden Thondup Namgyal، التي تم الإعلان عنها في عام ١٩٦١م، إلّا أنّه أُجّل الزفاف لأكثر من سنة، حيث حذّر المنجّمون من كون سنة ١٩٦٢م عام شؤم علىٰ الزيجات.

وقد نُظّم الزفاف تبعا لنصيحة الكثير من المنجّمين، إلّا أنّ الزواج انتهىٰ نهاية تعيسة، حيث انفصل وليّ العهد عن زوجته في عام ١٩٧٨م، ثمّ طلّقها بشكل رسميّ في عام ١٩٨٠م.[2]

وفي حادثة منفصلة، تبوّأ ولي العهد السالف الذكر العرش في عام ١٩٦٥م بعد وفاة والده. وتمّت مراسم التتويج في يوم مُستحسن تنجيميّا، حيث اعتقد بأنّه سيجلب له الحظ السعيد كحاكم للبلاد. إلّا أنه بعد مرور عشرة أعوام علىٰ حكمه، تمّت دعوة الشعب للتوجّه إلىٰ صناديق الاقتراع للإدلاء بأصواتهم في استفتاء حول التخلّي عن مملكتهم التي تبلغ من العمر ثلاثة قرون، والانضمام إلىٰ الهند. وفي الوقت الذي عارض فيه الملك هذا الاستفتاء وضمّ البلاد إلىٰ الهند، صوّت شعبه لصالح الانضمام؛ وهكذا أصبحت سيكيم ولاية هندية، وخُلع الملك من منصبه كحاكم مطلق.[3]

---

(1) Balachandra Rao, Astrology Believe It or Not?, p. 149.

(2) New York Times, "PALDEN THONDUP NAMGYAL, DEPOSED SIKKIM KING, DIES", January 30, 1982 edition.

(3) Daytona Beach Morning Journal, "Sikkim Votes on Indian Merger", April 15, 1975 edition.

هل يمكن حقا استخدام التنجيم للتنبّؤ بالمستقبل؟ من وجهة نظر علميّة، تمارس بعض الأجرام السماويّة قدرات غير مرئيّة علىٰ كوكبنا، حيث يتجسّد المثال الأبرز في تأثير جاذبيّة الشمس والقمر علىٰ حركة المدّ والجزر. إلّا أنّه شتان بين شرح تأثير الكواكب الأخرىٰ علىٰ الأرض بواسطة الفيزياء وعلوم الفلك الأخرىٰ، وبين ادّعاء إمكانيّة استخدام كواكب كالشمس والقمر للتنبّؤ بالشؤون الإنسانيّة كعمر الإنسان والموت، بالإضافة إلىٰ أحداث أخرىٰ كالانتخابات والحروب.

في الواقع، لقد تمادت السلطات الحكوميّة الهنديّة عندما وضعت التنجيم الهندوسيّ في مصاف التخصّصات العلميّة. وتوفّر لجنة المنح الجامعيّة وهي وكالة التمويل الحكومي الرئيسيّة في الهند، دعما ماليّا للمقرّرات الجامعيّة المتعلّقة بالتنجيم. ويقول تصريح صادر عن لجنة المنح الجامعيّة يدعو الجامعات لتقديم مقترحاتها الخاصّة بافتتاح مثل هذه الأقسام والفصول، ما يلي: **"ثمة حاجة ماسّة لإعادة إحياء التنجيم الفيديّ في الهند، والسماح لهذه المعرفة العلميّة بالوصول إلىٰ المجتمع علىٰ نطاق واسع، وخلق فرص تسمح بتصدير هذا العلم المهمّ إلىٰ العالم"**.[1]

أثار هذا التصريح موجة غضب في الأوساط الأكاديميّة الهنديّة، لا سيّما تلك العاملة في الكلّيّات العلميّة. وفي عام ٢٠١١م، سعت إحدىٰ المنظّمات المناوئة للتنجيم إلىٰ حظر الترويج له من خلال الاحتكام إلىٰ القانون المتعلّق بالدعاية المضلّلة؛ غير أنّه قد رُدّت الدعوىٰ من قبل محكمة مومباي العليا بذريعة عدم سريان موادّ هذا القانون **"علىٰ التنجيم والعلوم المرتبطة به، لأنّ التنجيم علم موثوق تتمّ ممارسته منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة..."**[2]

---

(1) The Hindu newspaper, Wednesday, March 28, 2001 issue.

(٢) The Times of India. تاريخ الزيارة ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٧:

لا بدّ للتنجيم لكي نعتبره تخصّصا علميّا متكامل الأركان، كعلم الفلك على سبيل المثال، من استيفاء المتطلّب الرئيس في النظريّة العلميّة – وهو اجتياز الاختبار الصارم. خضع التنجيم للتجربة العلميّة بالفعل، ولكن لم يُعثر على أدلّة تدعم أيّا من التأثيرات المزعومة الواردة في التقاليد التنجيميّة.(١)

وفي واحدة من هذه التجارب، أجرى جيانت نارليكار Jayant Narlikar عالم الفيزياء الفلكية البارز، تجربة إحصائية على المزاعم التنجيمية، حيث قام بوضع تجربة للتثبت من ادعاء التنجيم الهندي قدرته على تحديد مستوى ذكاء الفرد بحسب طالعه. تعتمد التجربة على جمع تفاصيل ولادة ٢٠٠ طفل، ١٠٠ منهم متفوقون دراسيا (الفئة أ)، والمئة الأخرون مشلولون دماغيا (الفئة ب).

وحيث أن مستقبل تلك الحالات لم يكن ليكون أشد اختلافا، فقد كانت مثالية لاختبار مدى صدق الادعاء أعلاه. وتم استخدام تفاصيل الولادة لتمييز طوالع هؤلاء الأطفال. وبعد تسجيل هذه التفاصيل، تم خلط الطوالع بشكل عشوائي، ودعوة المنجّمين الهنود للمشاركة في اختبار قدراتهم التنبّئية. شارك سبعة وعشرون منجّما، يتمتّع كلّ واحد منهم بمعدّل خبرة تصل إلى أربعة عشر عاما في المجال بهذه التجربة. وأرسلت مجموعة عشوائيّة مؤلّفة من أربعين طالعًا لكلّ منجّم، وطلب منه تحديد الفئة التي تنتمي إليها كلّ خارطة من هذه الخرائط الفلكيّة الشخصيّة.

لو كان المنجّمون يملكون رؤى إلهيّة عن ذكاء الشخص بحسب طالعه، فينبغي لهم عندئذ النجاح بنسبة ١٠٠٪ أو نحوها على الأقلّ؛ إلّا أنّ معدل نجاح المنجّمين في معرفة الفئة التي ينتمي إليها الأطفال بلغت ٤٣٪ فقط. ولكشف مدى عجز

---

http://timesofindia.indiatimes.com/india/Astrology-is-a-science-Bombay-HC/articleshow/7418795.cms

(1) Philippe Zarka, Astronomy and astrology, Proceedings of the International Astronomical Union. 5(S260): 420 – 425.

المنجّمين، طلب من مجموعة أخرىٰ لا باع لها بالتنجيم، التخمين بصورة اعتباطيّة. بلغ معدّل نجاح هذه المجموعة ٥٠٪، حيث إنّ الخيارات محصورة بين فئتين فقط، فإمّا أن يكون الطفل متفوّقا دراسيّا أو مشلولا دماغيّا. تبقىٰ هذه النسبة أفضل من النسبة التي حقّقها المنجّمون، والتي تعدّ أسوأ من مجرّد التخمين. وبطبيعة الحال، لن تصمد أيّ نظريّة علميّة بهكذا معدّل نجاح متدنٍّ.[1] تتعارض هذه النتائج مع مزاعم المنجّمين الهنود، وتتّسق النتائج الخجولة مع الكثير من التجارب التي خضع لها التنجيم الغربيّ، حيث لم تجد مئات التجارب أيّ ركائز لمزاعمها أيضا.[2] فإذا كان التنجيم عاجزا عن تقديم توقّعات دقيقة لأمور تجري في الزمن الحاضر، فإنّه من باب أولىٰ أن يكون عاجزا عن رؤية المستقبل بشكل صائب.

ثمّة بعض الاختلافات الجوهريّة بين التنجيم الهنديّ والتنجيم الغربيّ. يبرز الأخير الجانب النفسيّ للشخص، وعندما يتعلّق الأمر بمجريات الأحداث في حياتنا، يقول بأنّ الكواكب والنجوم ليستا رهانا موثوقا للتنبّؤ بالأحداث. ويصف التنجيم الهندي الجانب النفسي للشخص أيضا، إلّا أنّه يولي اهتماما أكبر لفهم الأحداث التي ستجري في حياتنا، بناء علىٰ تأثير الكواكب والنجوم. لذا ينبغي لكلّ منجّم هنديّ جدير بهذا اللقب أن يكون قادرا علىٰ الخروج بتنبّؤات عن المستقبل.

وبأخذ هذا الاختلاف بعين الاعتبار، سنقوم الآن بتحليل مزاعم التنجيم الغربيّ والهنديّ من منظور عقلانيّ ومنطقيّ. وسنأخذ الهند كنموذج بما أنّها تملك عدد سكان أكبر. يسجّل حوالي ١٫٥ مليون ولادة شهريّا في الهند.[3] في التنجيم الغربيّ،

---

(1) Jayant V. Narlikar, Sudhakar Kunte, Narendra Dabholkar and Prakash Ghatpande, A statistical test of astrology, Current Science Vol. 96, No. 5 (10 March 2009), pp. 641 – 643.

(2) Dean, G. 2007. The case for and against astrology. In B. Farha (ed.), Paranormal Claims: A Critical Analysis.

(٣) بحسب الإحصاء الرسمي للسكان، انظر موقع Outlook news الإلكتروني. تاريخ الزيارة ٤ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠١٧:

تستند إشارة البرج إلىٰ موضع الشمس في يوم الولادة. ويحمل كلّ شهر من شهور السنة إشارة برج خاصّة به. فالشخص المولود بين ٢١ آذار/ مارس ١٩ نيسان/ أبريل يحمل إشارة برج الحَمَل؛ أمّا المولود بين ٢٠ نيسان/ أبريل و٢٠ أيّار/ مايو فيحمل إشارة برج الثور، وهكذا دواليك. وتجلب كلّ إشارة برج معها صفات شخصيّة محدّدة.

وهذا يفيد بأنّ الـ ١٥ مليون شخص الذين يولدون في الهند شهريّا، سيحملون إشارة البرج نفسها، وسيتمتّعون بالصفات الشخصيّة ذاتها. إلّا أنّنا ندرك أنّ الواقع مختلف، فحتّىٰ التوأم المتطابقان لديهما شخصيّتان مختلفتان للغاية، علىٰ الرغم من امتلاكهما للجينات نفسها، وتشاطرهما للرحم نفسه، ومعايشتهما عادة لتجارب الطفولة نفسها.

يعدّ التنجيم الهنديّ أكثر تعقيدا، لأنّه لا يأخذ بعين الاعتبار موضع الشمس فقط، وإنّما موضع القمر وأجرام سماويّة أخرىٰ، بالإضافة إلىٰ تاريخ الولادة وحتّىٰ ساعتها. وبناء علىٰ هذه المعطيات، يقوم المنجّم بوضع الخارطة الفلكيّة الشخصيّة. وعلىٰ عكس المنجّمين الغربيّين، يدّعي المنجّمون الهنود بأنّ الخرائط الفلكيّة الشخصيّة لا تحدّد شخصيّاتنا وحسب، وإنّما مسار حياتنا أيضا. لو كان التنجيم علما قويما، لوجدنا أنفسنا إذًا أمام آثار صاعقة، حيث لا بدّ لنا من توقّع وجود ظاهرة بين كلّ توأم ولدا بفارق ثواني بعضهما عن بعض، لأنّهما يملكان الخارطة الفلكيّة الشخصيّة نفسها. وعليه، لن نتوقّع فقط امتلاكهما للشخصيّة نفسها، وإنّما عيش حياة متشابهة للغاية. لقد برهنت الدراسات العياديّة زيف هذا التصوّر؛ حيث ينتهي المطاف بالتوأم المتطابقين، حتّىٰ اللذين ولدا بفارق ثوان بعضهما عن بعض،

---

https://www.outlookindia.com/newswire/story/34-born-10-die-every-minute-in-india/655452

بامتلاك شخصيّتين ومصيرين مختلفين. وأجرىٰ الأستاذ تيم سبيكتور Tim Spector، رئيس وحدة الأبحاث المتعلّقة بالتوائم في جامعة كينغ بلندن، دراسة رائدة استمرّت لأكثر من عشرين عاما، قامت علىٰ دراسة الآلاف من التوائم المتطابقة في بريطانيا، خلصت نتائجها إلىٰ إمكانيّة عيش التوائم المتطابقة لحياة مختلفة للغاية. واكتشف بحثه أنّ التوأم يتشابهان في بعض الجوانب، كالملامح الخارجيّة علىٰ سبيل المثال؛ لكنّهما يختلفان في جوانب أخرىٰ؛ من بينها اختلاف أمد حياتهما علىٰ نحو كبير وإصابتهما بأمراض وراثيّة مختلفة بعضهما عن بعض. ويشير الأستاذ قائلا: **"نلمس هذا الأمر بأشكال مختلفة. لقد أظهر بحثنا علىٰ سبيل المثال ندرة وفاة التوائم نتيجة المرض نفسه. غير أنها تتشاطر الكثير من السمات الأخرىٰ كالطول مثلا. فالأمر ليس معادلة حسابيّة محدّدة الإجابة... ارتادت معظم التوائم التي شاركت في هذا البحث المدرسة نفسها وعاشت معا، وتناولت الطعام نفسه في السنوات الثمانية عشر الأولىٰ من عمرها علىٰ الأقلّ... إلا أنّ مسارات حياتها مختلفة علىٰ نحو كبير من دون أدنىٰ شكّ."**[1]

ينقلنا ذلك إلىٰ مفارقة أخرىٰ في التنجيم الهنديّ، تتجسّد في استخدام التمائم والأصنام لمحاولة تغيير حظوظ الشخص. وتعرف التميمة بالشيء الصغير الذي يتمّ ارتداؤه لدفع الشرّ، أو الأذىٰ، أو المرض، أو جلب الحظّ السعيد. لا يوفّر المنجّمون الهنود خدمات احتساب الخرائط الفلكيّة الشخصيّة وحسب، وإنّما يوصون أيضا باستخدام التمائم والأصنام. أليس من المستغرب قول التنجيم يتحكّم الكواكب والنجوم فيه بأقدارنا من جهة؛ ثم ترويجه لاستخدام أشياء من صنع البشر كالتمائم لإبطال تأثيرها من جهة أخرىٰ؟ إن كان لمجرّد حلية كالتميمة التي تضعها

---

[1] تاريخ الزيارة ١١ تشرين الأول/أكتوبر، ٢٠١٧:

https://www.theguardian.com/science/2013/jun/02/twins-identical-genes-different-health-study

حول عنقك قدرة علىٰ هزيمة قوّة كواكب كبيرة كالمرّيخ، والمشتري، والزهرة، ونجوم كبيرة كالشمس، فلعلّ هذه الأجرام الهائلة لم يكن لها تأثير كبير علىٰ حياتنا في الأصل! حتّىٰ استخدام التمائم والأصنام لا أساس له إذا فكّرنا بالأمر مليّا. سيضع الناس المُعلّقات وسيكرّسون أنفسهم للأصنام طلبا للحماية. وكثيرا ما نرىٰ الهندوس يضعون صنما لغانيش الإله الفيل في متاجرهم وشركاتهم، نتيجة للتبجيل الكبير الذي يحظىٰ به كمزلّل للعقبات، لذا يعتقد بأنّ استخدامه سيبعد الحظّ السيّئ. ولنتخيّل الآن تعرّض إحدىٰ هذه المتاجر أو الشركات لحريق أتت ألسنة لهبه علىٰ كلّ ما بداخلها بما في ذلك الصنم نفسه. ولقد شهدت المعابد والأضرحة الهندوسيّة، التي تغصّ بالأصنام، حوادث دمار هائلة. فإذا كانت هذه الأصنام لا تملك القدرة علىٰ منع خرابها، فهي بالتأكيد أعجز من أن توفّر الحماية لنا.

Nostradamus نوستراداموس

كـان ميـشال دو نوسـترداام Michel de Nostredame (١٤ كـانون الأول/ ديـسمبر ١٥٠٣م– ٢ تمـوز/ يوليـو ١٥٦٦م) الـذي يـشتهر باسـمه اللاتينـي نوستراداموس، طبيبا فرنسيّا ومتنبّئا مشهورا، قـام بنشر مجموعـة مـن التنبّؤات التـي ذاع صيتها علىٰ نطاق واسع. وقام في عام ١٥٥٥م بنشر أوّل طبعة لأشهر أعماله التي تحمل عنوان النّبوءات (أو القرون)، ويضـمّ الكتاب ١٠ مجموعـات (أو ١٠ قـرون) تضمّ كلّ مجموعـة منهـا مئـة رباعيّـة (قـصيدة مـن أربعـة أسـطر) تنبّئيـة، تتنـاول أممـا مختلفة وتمتدّ من القرن السادس عشر حتّىٰ عام ٣٧٩٧م.

ويمكن القـول بـأنّ نوسـتراداموس هـو أشـهر متنبّـئ في التـاريخ، حيـث بـدأ نـشرُ كتابٍ واحدٍ علىٰ الأقلّ عن نوستراداموس كلّ عشرين سنة منذ عـام ١٧٧٥م. ومنـذ عام ١٨٤٠م، نُشر كتاب واحد عنه كل ١٠ سنوات.[١]

لقد مرّ حوالي ٤٥٠ سنة علىٰ قيام نوسـتراداموس بنشر كتابـه "القـرون" للمـرّة الأولـىٰ؛ إلّا أن عـدد الترجمـات والتعليقـات الموجـودة في المكتبـات تـشهد علـىٰ الاهتمام المـستمرّ بنبوءاتـه. يؤمن ملايين النـاس حـول العـالم بتوقّعاتـه ويـستمرّون بالبحث عن أدلّة تثبت صدقها وتحقّقها في المستقبل.

هل يمكن تبريـر شـهرته الواسـعة تلـك؟ هـل يعلـم نوسـتراداموس الغيـب حقّـا؟ نستطيع التوصّل إلىٰ إجابة عن هذا الـسؤال مـن خـلال تحليل طبيعـة هـذه النّبـوءات ودقّتها. وإليكم بعض الأمثلة علىٰ هذه النّبـوءات:

---

(1) Edgar Leoni, Nostradamus and His Prophesies (New York: Bell, 1961), pp. 57–75.

من أجل إسناد الكاب المضطرم العظيم؛

سيزحف الحمر إلىٰ الداخل من أجل توضيحه؛

يكاد الموت ينهك إحدىٰ العوائل،

الأشخاص الحمر سوف يتغلّبون علىٰ الشخص الأحمر(١)

* * *

سوف يظهر الجمع الغفير من النحل

لكن لا أحد يعرف من أين أتىٰ،

الكمين الليليّ، والخفير تحت أشجار الكروم،

مدينة تسلّمها خمسة ألسن ليست عارية(٢)

كما نرىٰ هنا، تتجسّد إحدىٰ المشاكل الأساسيّة في هذه النّبوءات بغموضها الشديد بحيث يتم تشبيهها في الكثير من الأحيان بلعبة تركيب قطع لفظيّة. وتتميّز نبوءاته باحتوائها مصطلحات فرنسيّة ولاتينيّة، وتلميحات تاريخيّة، وجناس، وتلاعب بالكلمات، وغرابة في أسلوب الكتابة، وألفاظ مجزّأة، وترتيب كلمات معكوس، وغيرها. المسألة التي أودّ الإضاءة عليها الآن، هي أنّه لو كان نوستراداموس مُتنبئا، هل كان سيحتاج إلىٰ تورية توقّعاته بهذه اللغة الغامضة والفضفاضة؟ تتّسم توقّعات الأدعياء غالبا بالغموض لسبب وجيه، حيث تسهل هذه السمة علىٰ أتباعهم ادّعاء تحقّق النّبوءة عند وقوع المحتوم – ففي نهاية المطاف،

(١) نوستراداموس. تنبؤات نوستراداموس. الطبعة السابعة. القاهرة: مطبعة مدبولي، ٢٠٠٤. القرن الثامن، الرباعية # ١٩. ص: ٣٣١.

(٢) المرجع السابق. القرن الرابع، الرباعية # ٢٦. ص: ١٩٠.

سيحدث أمر معيّن في مكان معيّن يحمل أوجه شبه كافية مع النّبوءة بشكل يجعلها تبدو توقّعا دقيقا.

وفي الواقع، لقد أخطأ نوستراداموس وبالدليل الدامغ في الكثير من التوقّعات التي عمد فيها إلىٰ تزويدنا بتفاصيل، كتواريخ محدّدة، وأماكن، وأحداث.

يتنبّأ نوستراداموس في النّبوءة التالية بحدوث أمراض، ومجاعة، وحروب ستنهش جسد البشريّة في سنة ١٧٣٢م:

بدءًا من السنة التي أخطّ بها هذه السطور [١٥٥٥م]، وقبل مضيّ ١٧٧ سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما، ستحلّ الأوبئة، والمجاعة الطويلة، والحروب، والفيضانات المستمرّة، التي ستؤدّي إلىٰ تضاؤل العالم بين هذا اليوم وذاك، قبله وبعده، وتقلّص عدد سكّانه بشكل سيصعب فيه إيجاد اليد العاملة الكافية للقيام بالزراعة، وبقاء الأراضي من دون حراثة لمدّة توازي المدّة التي كانت تحرث فيها.[١]

علىٰ الرغم من منح نفسه هامشا زمنيّا كبيرًا يبلغ ١٧٧ سنة لتحقّق هذه النّبوءة، إلّا أنّها مع ذلك لم تتحقّق.

وعلاوة علىٰ ذلك، لقد شهد القطاع الزراعيّ، بفضل الثورة الصناعيّة التي حدثت في القرن الثامن عشر، تقدّما كبيرا نتج عنه تمتّع البشر بنموّ مستدام لم يسبق له مثيل، علىٰ النقيض تماما ممّا تنبّأ به نوستراداموس.

وفي نبوءة أخرىٰ، تنبّأ بمواجهة العالم لرعب شديد قادم من السماء في شهر تموز/ يوليو من عام ١٩٩٩م:

---

(1) Preface to The Centuries - a letter to his son.

في العام ١٩٩٩ وسبعة أشهر،

سوف يأتي من السماء ملك الرعب.

وسيعيد إلىٰ الحياة ملك المغول العظيم.

سيحكم قبل الحرب وبعدها في سعادة. [١]

ومع اقتراب تموز/ يوليو ١٩٩٩م، أطلق أتباعه اسم "ملك الرعب" علىٰ المسيح الدجّال، وحرب نوويّة، وشهاب عملاق، وكسوف مشؤوم للشمس، إلىٰ جانب غيرها من الأمور؛ لكنّ أيّا من ذلك الرعب لم ينزل من السماء في تموز/ يوليو ١٩٩٩م.

هل اعتقد نوستراداموس بقدرته علىٰ رؤية المستقبل؟ يبدو أنّه قدّم إجابات متناقضة. فمن جهة، يدّعي صراحة عدم إمكانيّة اقترافه للأخطاء:

لا يمكن أن أفشل، أو أخطئ، أو أتوهّم، علىٰ الرغم من كوني أكثر الناس خطيئة، وعرضة لفتن البشر. [٢]

ويقول في موضع آخر:

وستقع آلاف الأحداث الأخرىٰ، بسبب الفيضانات والأمطار المستمرّة؛ وكما بيّنت بالتفصيل في تنبّؤاتي الأخرىٰ، التي دوّنتها باستفاضة علىٰ شكل أبيات شعريّة، وحدّدت فيها التواريخ والأماكن حتّىٰ تتمكّن الأجيال القادمة من الاطّلاع عليها، ومعرفة الأحداث التي ستقع لا محالة. [٣]

---

[١] نوسترادامس. مرجع سابق. القرن العاشر، الرباعية # ٧٢. ص: ٤٣١.

(2) Gottfried & Fritz, The Prophecies of Nostradamus, Prefacer to Cesar Nostradamus.

(3) Edgar Leoni, Nostradamus and His Prophecies, p. 131.

غير أنّ نوسترادامو س يقرّ، علىٰ الجانب الآخر، بإمكانيّة وقوع أخطاء:

لقد قمت باحتساب كلّ شيء وتدوينه خلال الساعات المختارة من الأيّام التي ستقع فيها الأحداث، وبأعلىٰ قدر ممكن من الدقّة.[١]

ثم يعترف بعدها بقوله:

غير أنّي إذا قمت بارتكاب أخطاء عند احتسابي للتواريخ، أو عجزت عن إرضاء الجميع؛ فأطلب العفو منك يا جلالة الإمبراطور المبجّل.[٢]

وهكذا نرىٰ بأنّ كتاباته الشخصيّة تقدّم صورة مزدوجة؛ وبغضّ النظر عن ادّعائه التنبؤ، إلّا أنّ تحليل تنبّؤاته المبهمة في أغلب الأحيان، والخاطئة بشكل لا لبس فيه، تثبت عدم امتلاكه لأيّ قدرات فريدة في رؤية المستقبل. ولقد سَخِرَ العالِم الإيطاليّ فرنسيسكو غويسياردينى Francesco Guiciardini، الذي كان معاصرا لنوسترادامو س، من أولئك الذين صدّقوا قدرات نوسترادامو س التنبّئية علىٰ الرغم من وجود أدلّة تثبت العكس. وصرّح قائلا:

"هنيئا للمنجّمين! الذين يتمّ تصديقهم إذا قالوا حقيقة واحدة مقابل مئة كذبة،

في الوقت الذي يخسر فيه الآخرون مصداقيّتهم إذا قالوا كذبة واحدة مقابل مئة حقيقة".[٣]

(1) Ibid., p. 327.
(2) Ibid., p. 328.
(3) Ibid., p. 328.

الأم شيبتون Mother Shipton

يعدّ كثيرون كون الأمّ شيبتون أعظم متنبئة في إنكلترا. ولقد حظيت بشهرة واسعة عبر القرون، لدرجة دفعت بعضهم إلىٰ إعطائها لقب نوستراداموس إنكلترا. لا يمكن تحديد هويّة الأمّ شيبتون علىٰ نحو جازم، حيث ثبت أنّ جزءًا كبيرا من تفاصيل سيرتها الذاتيّة موضوع مع الأسف. تزعم إحدىٰ سيرها الذاتيّة ولادتها في مدينة يوركشير في عام ١٤٨٨م، ووفاتها في السبعينات من عمرها. وتدّعي سير ذاتيّة متأخّرة أنّها ابنة الشيطان ومشعوذة.[١]

إلّا أنّ المؤكّد هو ارتباط اسمها بالكثير من الأحداث المأساويّة والأمور المريبة التي وقعت في سائر إنكلترا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وأوردت صحيفة Pall Mall Gazette خبرا بتاريخ ١٤ نيسان/ أبريل ١٨٧٩م يصف حالة الذعر التي سيطرت علىٰ الناس لاعتقادهم بتنبّؤ الأمّ شيبتون بحدوث زلزال سيبتلع مدينة هام هيل في الجمعة العظيمة من سنة ١٨٧٩م في تمام الساعة الثانية عشرة، وبحدوث فيضانات غزيرة في قرية يوفيل. ولقد غادر بعض الأشخاص منازلهم لتجنّب هذه الكوارث، في حين عمد آخرون إلىٰ اتّخاذ عدد من التدابير الاحترازيّة. واحتشدت أعداد غفيرة من الناس علىٰ مشارف هام هيل لمشاهدة هذا الحدث، إلّا أنّهم عادوا خالي الوفاض.[٢]

ولا زال الافتتان بها مستمرّا حتّىٰ القرن الحادي والعشرين، إذ تستمرّ أعداد كبيرة من السيّاح بزيارة كهف الأمّ شيبتون في كنارسبورو الذي يُعدّ أحد أقدم المواقع

---

(1) Jacqueline Simpson and Stephen Roud, A Dictionary of English Folklore, see entry ‘Mother Shipton’.

(2) William H. Harrison, Mother Shipton, chapter 1.

الأثريّة في إنكلترا جذبا للسيّاح. كما تسمّىٰ فصيلة من الفراش باسمها، لوجود شكل يشبه وجه عجوز شمطاء علىٰ كلا جناحيه.

لا نملك كتبا تتحدث عن الأم شيبتون أو عن تنبّؤاتها في حياتها. ويعود تاريخ أقدم نبوءة مدوّنة لها إلىٰ سنة ١٦٤١م، أي بعد مرور ثمانين سنة علىٰ وفاتها؛ ولقد كتبت هذه النّبوءة علىٰ كرّاسة أنقلها لكم هنا حرفيّا: **"نبوءة الأمّ شيبتون، في عهد الملك هنري الثامن Henry the Eigth. تتنبّأ بمقتل الكاردينال ولسي Wolsey، واللورد بيرسي Percy وآخرين؛ بالإضافة إلىٰ ما سيجري في الأوقات العصيبة".**[1] وبحسب إصدار عام ١٦٤١م، لقد صدقت نبوءة الأمّ شيبتون المتعلّقة بقيام الكاردينال ولسي برؤية مدينة يورك من دون أن تطأها قدماه. وتطلعنا السجلاّت التاريخيّة عن قيام الكاردينال ولسي برحلة إلىٰ يورك في عام ١٥٣٠م. وعندما وصل إلىٰ مقربة من المدينة، قام بالصعود إلىٰ أعلىٰ برج مطلٍّ عليها حيث رآها من بعيد. ولكن لم تسنح له فرصة دخولها، حيث تلقّىٰ رسالة من الملك هنري الثامن، يأمره فيها بالعودة إلىٰ لندن علىٰ الفور؛ ثم ما لبث أن فارق الحياة في طريق عودته. يشير ذلك إلىٰ تحقّق نبوءة الأمّ شيبتون، إلّا أنّ مشكلة هذه النّبوءة، هي أنّ أقدم تدوين لها مسجّل في سنة ١٦٤١م، بعد مرور قرن علىٰ وفاة الرجل. لذا من الوارد جدًّا أن تكون نبوءة رجعيّة (أي نبوءة تصف واقعة بعد حدوثها).

ويبدو أنّ أحد أشهر النّبوءات المنسوبة للأمّ شيبتون، تتنبّأ بالتكنولوجيا المستقبليّة كوسائل الاتّصال السريعة والبواخر..

حيث تقول:

---

(1) William H. Harrison, Mother Shipton investigated: the result of critical examination in the British Museum Library of the literature relating to the Yorkshire sibyl, printed 1881, chapter 4.

ستسير العربات بلا أحصنة،

وستملأ الحوادث العالم بالويلات.

ستطير حول العالم الأفكار

بغمضة عين...

سيمشي البشر تحت الماء،

سيقودون، وينامون، ويتحدّثون؛

وفي السماء سيُرىٰ البشر،

بالأبيض، والأسود، والأخضر...

وسيطفو الحديد علىٰ الماء،

كما تطفو قوارب الخشب.

لقد ظهرت هذه النّبوءة مطبوعة للمرّة الأولىٰ في طبعة عام ١٨٦٢م لأقوالها. ولقد اعترف شارل هندلي Charles Hindley محرّر تلك الطبعة في وقت لاحق بقيامه بتأليفها.[١]

ولقد تمّ اختراع التكنولوجيا التي تم التلميح إليها في تلك النّبوءة كالتلغراف (**"ستطير حول العالم الأفكار بغمضة عين"**)، والبواخر (**"وسيطفو الحديد علىٰ الماء، كما تطفو قوارب الخشب"**) قبل عام ١٨٦٢م. وإذا كان **"وفي السماء سيُرىٰ البشر"** يشير إلىٰ الطيران، فلقد كان ذلك بعد مضي نصف قرن علىٰ نجاح السير جورج كايلي George Cayley بالتحليق بأوّل طائرة شراعيّة في عام ١٨٠٤م؛

(1) Jo Swinnerton, The History of Britain Companion, p. 73.

وقبيل الفترة التي نجح فيها الأخوان رايت Wright باختراع أوّل طائرة في عام ١٩٠٣م.

هذا وخرجت أعمالٌ أخرىٰ عن الأمّ شيبتون في أوقات لاحقة؛ ومع كلّ عمل، كان يعزىٰ إليها نبوءات جديدة. هذا هو الحال مع معظم تنبّؤاتها التي تعدّ مزيّفة بأغلبها؛ إذ كُتبت علىٰ يد آخرين بعد وقوع الحدث، ثم نسبتها إلىٰ الأم شيبتون للاستفادة من أسطورتها. تعدّ الأمّ شيبتون مثالا لشخص آمنَ الكثير بنبوءاته، إلّا إنّه قد لا يُعترف بوجودها كشخص حقيقيّ خارج إطار الأسطورة الإنكليزيّة.

جوزيف سميث Joseph Smith

يُعـــرف جوزيـــف ســـميث (٢٣ كـــانون الأول/ ديـــسمبر ١٨٠٥م – ٢٧ حزيـران/ يونيـو ١٨٤٤م) بكونـه قائـدا دينيّـا أميركيّـا، ومؤسّـسا للديانـة المورمونيّـة وحركـة قدّيسي الأيّام الأخيـرة؛ نجـح قبيـل وفاتـه في جـذب عـشرات آلاف الأتبـاع وبتأسيس ديانة لا زالت قائمة حتّىٰ يومنا هذا مع وجود أكثر مـن ١٤ مليـون مـورمن حول العالم. ولقد حمل جوزيف سميث الكثير من الألقاب في حياتـه منهـا الـزعيم، والمتنبّئ، والرئيس، والعمدة، وحتىٰ الفريق؛ إلّا أنّ أكثر لقب اشتهر به علىٰ الأرجح هو النبيّ. ولقد استمد تنبّؤاته، التي كان يقوم بها في أغلب الأحيـان بـشغف بـالغ، مـن قوّة السماء واسم الله. ويُـنزل المورمن جوزيف سميث منزلة موسىٰ من حيث الرفعة والمكانة.

دعونا نحلّل الآن توقعات جوزيف سميث الأكثر دقّة. حيـث في النّبـوءة الآتيـة، توقّع نشوب حرب بين أميركا الشماليّة وأميركا الجنوبيّة:

ولا ريب، هذا ما قاله الربّ بشأن الحروب التـي ستنـشب قريبـا، بـدءًا مـن ثـورة جنوب كارولاينا، التي ستنتهي في نهاية المطاف بمـوت وشـقاء الكثيـر مـن الأرواح؛ وسـيأتي اليـوم الـذي تنهمـر فيـه الحـرب علـىٰ جميـع الأمـم، بـدءًا مـن هـذا المكـان. فالولايات الجنوبيّة ستنقسم ضـدّ الولايـات الـشماليّة، وستناشـد الولايـات الجنوبيّـة أممًا أخرىٰ، بمن فيهم أمّة بريطانيـا العظمـىٰ، كمـا تـسمّىٰ، وغيرهـا بغيـة الـدفاع عـن أنفسهم أمام أمم أخرىٰ، وهكذا ستطال الحروب الأمم كافّة. [1]

يـؤمن المـورمن بـأنّ الحـرب الأهليّـة الأميركيّـة كانـت دلـيلا علـىٰ صـدق نبـوءة

---

(1) Doctrine and Covenants, section 87.

جوزيف سميث، حيث اندلعت هذه الحرب بين الشمال والجنوب واستمرّت من عام ١٨٦١م وحتّىٰ عام ١٨٦٥م، بعد مرور قرابة ٣٠ عامًا من توقّعه بنشوبها. وأصبحت نبوءة الحرب الأهليّة واحدة من أكثر آيات الوحي الذي يعمد المورمن إلىٰ نشرها علىٰ نطاق واسع.

ولا يعدّ مستغربا استحواذ هذه النّبوءة علىٰ اهتمام كبير في خلال الحرب الأهليّة، حيث رأىٰ كثيرون هذا النزاع بمثابة إثبات لقدرات جون سميث التنبّئية.

فهل هذه نبوءة حقيقة؟

تعدّ هذه النّبوءة دقيقة من منظور تاريخيّ: لقد سبق الحرب الأهليّة الأميركيّة ثورة كارولاينا الجنوبيّة، وكانت بالفعل نزاعًا بين أميركا الشماليّة وأميركا الجنوبيّة. وعلىٰ الرغم من دقّة النّبوءة، إلّا أنّها لم تكن تتطلّب رؤىٰ استثنائيّة للمستقبل. فلو تأمّلنا المشهد الاجتماعيّ والسياسيّ للولايات المتّحدة في الوقت الذي قام فيه جوزيف سميث بتوقّعه ذاك، لوجدنا أنّها نتاج فطنته بكلّ بساطة، وذلك نظرا للخلافات والتوتّرات التي كانت سائدة آنذاك.

يقدّم مؤرّخ الحرب الأهليّة الأميركيّ جايمس ماكفرسن James McPherson مختصرا عن الظروف التي سبقت الحرب الأهليّة والتي أسهمت في اندلاعها وعزّزت من التوتّرات.

حيث خلال فترة حياة جوزيف سميث، كان ثمّة خيوط فُرقة متوقّعة تزامنا مع النموّ الذي شهدته الدولة بين ١٨٠٠م – ١٨٥٠م، كالأثرياء ضدّ الفقراء، والكاثوليك ضدّ البروتستانت، والأرياف ضدّ المدن. وتَمثّل الخطر الأكبر في قضيّة العبوديّة، لأنّها كانت مرتبطة بالمُثل العليا المتنافسة التي تصادف ارتباطها أيضا باعتبارات جغرافيّة. لقد كان الشقاق عميقا، لدرجة دفعت ماكفرسن إلىٰ القول بأنّ قضيّة العبوديّة:

"ستتسبّب على الأغلب في حدوث مواجهة حتميّة بين الشمال والجنوب في أيّ لحظة".[1]

كما توقّع عضو الكونغرس جون راندولف John Randolph الأمر نفسه في مجلس النوّاب في عام ١٨٠٧م، أي قبل جوزيف سميث بحوالي عشرين سنة، حيث قال: **"إذا أتى اليوم الذي تنقسم فيه هذه الولايات؛ فإنّ الخطّ الفاصل لن يكون بين الولايات الشرقيّة والغربيّة، وإنّما بين الولايات التي تؤيّد العبوديّة وتلك التي ترفضها".**[2]

كما صرّح رجل الدولة الأميركيّ جون كالهن John Calhoun في عام ١٨٤٧م قبل عشر سنوات من اندلاع الحرب قائلا: **"إنّ اليوم الذي يُفقد فيه التوازن بين جزئي هذه الدولة – الولايات التي تؤيّد العبوديّة والولايات التي تعارضها – هو اليوم الذي لن يتأخّر عنه وقوع الثورة السياسيّة، والفوضى، والحرب الأهليّة، والكوارث المتفرّقة".**[3]

ويمكننا أن نلاحظ بأنّ النزاع بين الشمال والجنوب كان أمرا مترقّبا في الفترة التي قام فيها جوزيف سميث بتنبّئه ذاك. ولكن ماذا عن التفصيل الذي أورده في نبوءته والمتعلّق بالثورة في ولاية كارولاينا الجنوبيّة؟ يبدو أنّه توقّع بدقّة الولاية التي ستحمل لواء الثورة. ما احتمالات ذلك؟ في الواقع، لا يتطلّب اختيار كارولاينا الجنوبيّة كمشعل للثورة رؤى استثنائيّة. لقد أيّدت الولاية، على سبيل المثال، في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٨٣٢م،[4] مبدأ "الإلغاء" متذرّعة بحقّها في إبطال

---

(1) James M. McPherson, Battle Cry of Freedom: The Civil War Era, p. 8.

(2) Aaron Scott Crawford, John Randolph of Roanoke and the Politics of Doom: Slavery, Sectionalism, and Self-Deception, 1773-1821, p. 172.

(3) James A. Colaiaco, Frederick Douglass and the Fourth of July, p. 62.

(٤) بحسب مصادر المورمن الرسمية، قام جوزيف سميث بتنبئه حول الحرب الأهلية في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر 1832. See "Doctrine and Covenants", introduction to section 87

القوانين الفيدراليّة والضرائب التي يُحكم بعدم دستوريّتها. وبعبارة أخرىٰ، لقد أعلنت صراحة عن دعمها الثورة علىٰ أيّ تشريعات فيدراليّة تضرّ بمصالحها.(١)

لذا كانت ثورة كارولاينا الجنوبيّة خطرا داهما في الوقت الذي أعطىٰ فيه جوزيف سميث تنبّؤه؛ فتاريخ الولاية جعلها الاختيار المنطقيّ والبديهيّ لإدراجها في نبوءته.

لقد جاء جوزيف سميث بالكثير من النّبوءات الخاطئة، حيث تنبّأ علىٰ سبيل المثال في عام ١٨٤٣م بزوال الولايات المتّحدة في بضع سنين:

أتنبّأ باسم إله إسرائيل، أنّه إذا لم تُكفّر الولايات المتحدة عن إساءتها بحقّ القدّيسين في ولاية ميسوري، ولم تعاقب عناصر شرطتها علىٰ الجرائم التي ارتكبوها؛ فإنّ الدولة ستزول وستذهب أدراج الرياح في بضع سنين. ولن يبقىٰ الكثير من مخلّفات شرّها المتمثّلة بالسماح بقتل الرجال والنساء والأطفال، وبأعمال النهب الجماعيّة، وبعدم معاقبة من فتك بالآلاف من مواطنيها.(٢)

ولنعط خلفيّة بسيطة عن هذه النّبوءة. استقرّ جوزيف سميث مع آلاف المورمن في ولاية ميسوري في عام ١٨٣٨م. وتسبّبت الاختلافات السياسيّة والاجتماعيّة بين سكّان ميسوري والوافدين المورمن الجدد بحدوث توتّرات بين الجانبين. وتعرّض ١٧ من المورمن للقتل، في حين استسلم آخرون لقوّات الولاية، ووافقوا علىٰ التنازل عن أراضيهم ومغادرة ميسوري.(٣)

ونتيجة لهذا الاضطهاد، تنبّأ جوزيف سميث بنزول العقاب الربّانيّ علىٰ

---

(1) South Carolina Ordinance of Nullification, November 24, 1832, see this website: http://avalon.law.yale.edu/19th_century/ordnull.asp

(2) History of the Church, Vol. 5, p. 394.

(3) Richard Lyman Bushman, Joseph Smith: Rough Stone Rolling, pp. 365 – 367.

الولايات المتّحدة واندثارها في بضع سنين، ما لم تقم بردّ المظالم. لم تتدارك الولايات المتحدة في السنوات اللاحقة أيّا من الأخطاء التي ارتكبت بحق المورمن في ميسوري. وفي الواقع، لقد قام محافظ أميركيّ بإلقاء القبض علىٰ جوزيف سميث ومحاكمته بتهمة الخيانة.[1] وفي عام ١٨٤٤م، قتل سميث في السجن علىٰ يد جماعة مسلّحة في أثناء انتظار محاكمته. وعلىٰ الرغم من ذلك، لا زالت الولايات المتحدة قائمة بعد مرور ١٧٠ سنة علىٰ الحادثة.

وفي نبوءة خاطئة أخرىٰ، تنبّأ جوزيف سميث بالفناء الوشيك لمعاصريه من الكفّار بالأمراض، والمجاعة، والكوارث الطبيعيّة ما لم يتوبوا إلىٰ الله ويعودوا إليه:

وأنا جاهز الآن للقول: إنّه بسلطة يسوع المسيح، لن يمضي وقت طويل قبل أن تشهد الولايات المتحدة سفك دماء لم يسبق له مثيل في تاريخ أمّتنا؛ ستمحو الأوبئة، والأمطار، والمجاعة، والزلازل كفّار هذا الجيل عن وجه الأرض، لتفتح الطريق وتهيئها أمام عودة قبائل إسرائيل التائهة من الدول الشماليّة... توبوا، توبوا، وتمسّكوا بالعهد الأبديّ وسافروا إلىٰ صهيون قبل أن تقضي عليكم البلايا الكاسحة، لأنّ أرواح هؤلاء الأحياء الذين يعيشون اليوم، لن تزهق قبل أن يروا هذه الأمور التي أخبرت عنها متمثّلة أمام أعينهم.[2]

لم تحدث أيّ توبة جماعيّة علىٰ الإطلاق، حيث إنّ أعداد أتباعه في الفترة التي تزامنت مع وفاته، لم تتجاوز الواحد بالمئة من مجمل سكّان الولايات المتّحدة، كما لم يتمّ القضاء علىٰ كفار جيله في أيّ حال من الأحوال؛ ولم تقع أيٌّ من الكوارث الواردة في النصوص المقدّسة كالأمراض، والمجاعة، والزلازل.

---

(1) Daniel H Ludlow, Encyclopedia of Mormonism, pp. 1346 – 1348.

(2) History of the Church, Vol. 1, pp. 315 – 316.

أمّا المثال الأخير علىٰ إحدىٰ التنبّؤات الخاطئة، فهو توقّع جوزيف سميث بعودة المسيح الثانية في خلال ٥٦ سنة:

ثم أعلن الرئيس سميث عن حلول موعد اللقاء، لأنّ الله أمر به، ولقد أُحيط علما بزمانه عن طريق الرؤيا والروح القدس. لقد كان لزاما، تحقيقا لمشيئة الله، أن يتمّ رسمهم لخدمة الكنيسة، وأن يمضوا قدما في تشذيب الكروم للمرّة الأخيرة، استعدادا لقدوم الرب الوشيك – سيصل العالم إلىٰ نهايته في خلال ٥٦ عاما.[1]

لقد أخبر جوزيف سميث بهذه النّبوءة في عام ١٨٣٥م، وتمّ تدوينها في مصادر المورمن الرسميّة. ولقد مرّ أكثر من ١٨٠ سنة، ولم تتحقّق بعد عودة عيسىٰ إلىٰ الأرض التي ترمز إلىٰ نهاية الزمان.

---

(1) History of the Church, Vol. 2, p. 182.

بهاء الله وعبد البهاء

ظهر الدين البهائيّ في إيران عام ١٨٦٣م؛ ويعدّ الديانة الأحدث من بين الديانات مع وجود أكثر من ٥ ملايين تابع لها حول العالم يُعرفون باسم البهائيّين. وادّعىٰ مؤسّس الديانة البهائيّة، وهو رجل يعرف باسم بهاء الله، تلقّيه الوحي من الله:

لقد كنت إنسانا ككلّ البشر، نائما علىٰ أريكتي عندما تنزّلت عليّ نفحات العليّ، لتلقّنني علم كلّ ما كان. هذا الأمر ليس من عندي، ولكن من عند العزيز القدير.[1]

ومضىٰ بهاء الله في إرسال ألواح تحذيريّة إلىٰ حكّام وقادة العالم، يعلن فيها صراحة مكانته كرسول لله. يستشهد أتباع بهاء الله بهذه الألواح كقرائن علىٰ قدراته التنبّئيّة، ويزعمون اشتمالها نبوءات واضحة تحقّقت علىٰ أرض الواقع. ومن ضمن إحدىٰ هذه الألواح رسالة موجّهة إلىٰ أهالي القسطنطينيّة، عاصمة السلطنة العثمانيّة؛ يذكر فيها بأنّ السلاطين، قادة القسطنطينيّة، كانوا مصدرًا للظلم؛ وأخبرهم بأنّ حكمهم آيل إلىٰ الزوال قريبا:

يا أيّتها النقطة الواقعة في شاطئ البحرين (اسلامبول) قد استقرّ عليك كرسيّ الظلم، واشتعلت فيك نار البغضاء... إنّك في غرور مبين، أغرّتك زينتك الظاهرة؟ سوف تفنىٰ وربّ البريّة، وتنوح البنات والأرامل وما فيك من القبائل، كذلك ينبئك العليم الخبير.[2]

يمكن إيجاد هذا التحذير في الكتاب الأقدس الذي تمّ الانتهاء من كتابته في عام

---

(1) Bahá'u'lláh, Epistle, p. 11.

(٢) بهاء الله. الكتاب الأقدس. الآية # ٨٩.

١٨٧٣م، والذي يعدّ أهمّ نصّ دينيّ في العقيدة البهائيّة. لقد أدّىٰ انهيار السلطنة العثمانيّة في عام ١٩١٨م إلىٰ إنهاء حكم السلاطين. في آذار/ مارس ١٩٢٤م، خسر السلاطين سلطاتهم، واستبدلت بحكم برلمانيّ في ظلّ ما يعرف بالجمهوريّة التركيّة الحديثة.

هل يعدّ ذلك نبوءة لافتة؟

عندما خطّ بهاء الله هذا التحذير، كانت السلطنة العثمانية المهيبة في يوم من الأيّام قد وصلت بالفعل إلىٰ مرحلة الانحطاط الأخير. وفي الواقع، لقد أطلق عليها أعداؤها لقب "رجل أوروبا المريض" في عام ١٨٥٣م قبل عشرين عاما من نبوءة بهاء الله.[١]

وفي النّبوءة نفسها، نوّه بهاء الله إلىٰ أنّ السلاطين اليوم "**في غرور مبين**" ما أدّىٰ إلىٰ تحوّل عرشهم إلىٰ "**كرسيّ للظلم**". كما أشار إلىٰ أن "**نار البغضاء**" قد اشتعلت في قلوب سكّان القسطنطينيّة. وإذا فكّرنا في الأمر، فإنّ المصير الأكثر ترجيحا لهكذا حكم في مثل تلك الظروف هو الزوال. عندما يضيق الشعب ذرعا من سياسة حكّامه، ثمّة دائما احتمال اندلاع ثورة أو انتفاضة. هذا ما كانت تؤول إليه الأمور عبر التاريخ؛ حيث رأينا سقوط الملكيّة الفرنسيّة في خلال الثورة الفرنسيّة، وثورة المستعمرات الأميركيّة ضدّ الحكم البريطانيّ، في خلال الثورة الأميركيّة. تتمثّل المشكلة الأخرىٰ في غياب تفاصيل تحدّد كيفيّة هذا الزوال. لقد أشار بهاء الله إلىٰ الأمر بعبارات فضفاضة "**سوف تفنىٰ**". وفي الواقع، لقد انتهىٰ حكم السلاطين بعد ذلك بفترة طويلة في عام ١٩٢٤م، أي بعد نصف قرن من نبوءته.

كما كتب بهاء الله لوحا إلىٰ الإمبراطور الفرنسيّ نابليون الثالث في عام ١٨٦٩م،

---

(1) Candan Badem, The Ottoman Crimean War (1853 – 1856), p. 68.

يحذّره فيها من خسارته الوشيكة للإمبراطوريّة إذا لم يؤمن ببهاء الله كنبيّ مرسل:

بِما فَعَلْتَ تَخْتَلِفُ الأُمُورُ فِي مَمْلَكَتِكَ وَتَخْرُجُ المُلْكُ مِنْ كَفِّكَ جَزاءَ عَمَلِكَ إِذاً تَجِدُ نَفْسَكَ فِي خُسْرانٍ مُبِينٍ، وَتَأْخُذُ الزَّلازِلُ كُلَّ القَبائِلِ فِي هُناكَ إِلاَّ بِأَنْ تَقُومَ عَلىٰ نُصْرَةِ هذَا الأَمْرِ وَتَتَّبِعَ الرُّوحَ فِي هذَا السَّبِيلِ المُسْتَقِيمِ، أَعِزُّكَ غَرَّكَ ؟.. لَعَمْرِي إِنَّهُ لا يَدُومُ وَسَوْفَ يَزُولُ. [١]

خسر نابليون الثالث خلال سنة من تاريخ كتابة هذه الرسالة معركة ضدّ بروسيا في عام ١٨٧٠م، وتمّ إلقاء القبض عليه. ثمّ تلا ذلك نفيه إلىٰ إنكلترا ونشوب ثورة دمويّة في باريس عرفت باسم كومونة باريس في عام ١٨٧١م.

هل تتطلّب هذه النّبوءة رؤىٰ مستقبليّة استثنائيّة؟ إذا قام أحدهم بتحليل الأحداث السياسيّة التي جرت في خلال العقد الذي سقط فيه نابليون الثالث، لوجد بأنّ الصراع الفرنسيّ – البروسيّ والغضب الشعبيّ كانا أمرين محتومين.

كان نابليون الثالث متحمسا ومؤيدا لمبدأ الحروب حيث سعىٰ بشكل حثيث لتوسعة نفوذ فرنسا في أوروبّا وحول العالم. وخاض حروبا ضدّ روسيا في القرم، وفي إيطاليا ضدّ الإمبراطوريّة النمساويّة – الهنغاريّة. كما استحوذ علىٰ مستعمرات في آسيا وأفريقيا. وفي ستّينيات القرن التاسع عشر، ظهرت بروسيا كعدوّ جديد للقوّة الفرنسيّة في أوروبّا. وقال المستشار الألمانيّ آنذاك أوتو فون بيسمارك Otto von Bismarck، في تصريحه الشهير في سنة ١٨٦٢م: **"لن تُحلّ القضايا الكبرىٰ في يومنا هذا بالقرارات والتصويت الأكثريّ – التي كانت خطأ البشر في عامي ١٨٤٨م و١٨٤٩م – وإنّما بالدم والنار".** [٢] لقد كانت بروسيا الولاية الألمانيّة الأكثر قوّة،

---

(١) بهاء الله. ألواح الملوك والرؤساء. ص: ٤٥ – ٤٦.

(2) Joachim von Kürenberg, The Kaiser: a life of Wilhelm II, last Emperor of Germany, p. 437.

حيث سعت في ظلّ قيادة بيسمارك إلىٰ توحيد ألمانيا. وشنّ بيسمارك حروبا مع الدنمارك والنمسا – هنغاريا، أسفرت عن سيطرة بروسيا علىٰ الولايات الشماليّة الألمانيّة. وكتب المؤرّخ دايفيد فيتسل David Wetzel قائلا: **"لقد كانت مسألة وقت لا أكثر، قبل أن يقوموا بإخضاع كلّ الولايات الألمانيّة لسلطة برلين".**[1]

لقد أدّىٰ طموح بروسيا وانتصاراتها إلىٰ جعلها خطرا مباشرا علىٰ فرنسا التي لم ترغب بوجود ألمانيا قويّة وموحّدة علىٰ حدودها.[2] أدرك نابليون الثالث الإرباك الذي سيسبّبه توحيد ألمانيا، ما دفعه إلىٰ العمل علىٰ عقد تحالفات لمواجهتها؛ إلّا أنّ جهوده باءت بالفشل، حيث رفضت كلّ من بريطانيا، وروسيا، والنمسا، وإيطاليا الدخول في حلف مع فرنسا، الأمر الذي ترك نابليون الثالث وحيدا وضعيفا أمام أي مواجهة محتملة مع بروسيا. وفي عام ١٨٦٦م، تمكّنت بروسيا، ذات الـ ٢٢ مليون نسمة، من حشد جيش مؤلّف من ٧٠٠ ألف رجل؛ في حين بلغ جيش فرنسا، ذات الـ ٢٦ مليون نسمة، ٣٨٥ ألف رجل فقط، ١٠٠ ألف منهم موزّعون في الجزائر، والمكسيك، وروما،[3] الأمر الذي جعل من الجيش البروسيّ، متّحدا مع جيوش الولايات الألمانيّة الأخرىٰ، عدوّا مرعبا.

أمر نابليون الثالث قوّاته العسكريّة بالانتشار علىٰ وجه السرعة، ما أفضىٰ إلىٰ مزيد من التوتّرات مع بروسيا. ويمكننا أن نرىٰ بأنّه قبل تنبّؤ بهاء الله بسنوات، كانت فرنسا في مسار تصادميّ للحرب، مع وجود إمكانيّة كبيرة لهزيمتها علىٰ يد أعدائها. أمّا تنبّؤه المتعلّق بـ **"وتأخذ الزلازل كل القبائل في هناك"**، في إشارة منه إلىٰ حدوث اضطرابات شعبيّة في فرنسا، فلا يعدّ باهرا بأيّ حال من الأحوال، لأنّ الاضطرابات

---

(1) David Wetzel, A Duel of Giants: Bismarck, Napoleon III, and the Origins of the Franco-Prussian War, p. 123.

(2) A.J.P. Taylor, The Struggle for Mastery in Europe 1848–1918, p. 347.

(3) Philippe Séguin, Louis Napoléon le Grand, p. 387.

الشعبيّة دائما ما تسير جنبا إلىٰ جنب مع عدم الاستقرار السياسيّ. عندما يتمّ خلع طواغيت مثل نابليون الثالث، فإنّ ذلك يؤدّي إلىٰ حدوث فراغ سياسيّ، تعاني فيه السلطة عادة من صعوبات في إعادة ملئه؛ كما ينتج عنه ممارسات عنيفة في معظم الأحيان. هذا هو واقع الأمر لا سيّما في حالة تاريخ فرنسا العاصف.

وباختصار، لقد رأينا بأنّه حتّىٰ نبوءات بهاء الله الأكثر دقّة لا تتطلّب قدرات خارقة، وإنّما مجرّد نظرة ثاقبة بتاريخ العالم وسياساته. توفّي بهاء الله في عام ١٨٩٢م. وكان قد عيّن ابنه البكر، عبد البهاء، لخلافته وترؤّس الدين البهائيّ، وهو المنصب الذي قام عليه حتىٰ سنة ١٩٢١م. ويتمّ إضفاء صفة القدسيّة علىٰ كتابات عبد البهاء وخطاباته في المصادر البهائيّة. (١)

ولقد قام عبد البهاء، كوالده، بالتنبّؤ حول أحداث سياسيّة زعم وقوعها في المستقبل، والتي حدث عدد منها بالفعل. إلّا أنّ الاختبار الحقيقيّ للقدرات التنبّئيّة، لا يقوم علىٰ تحليل المجريات السياسيّة في الحاضر ثمّ توقّع النتائج؛ وإنّما علىٰ إعطاء تنبّؤات دقيقة عن أحداث في مجالات مختلفة، تتعدّىٰ السياسية منها، بالإضافة إلىٰ توقّع أحداث في المستقبل البعيد.

ولننظر الآن في نماذج لمثل هذه التوقّعات التي جاء بها عبد البهاء. لقد قضىٰ بأنّ حفيده شوقي أفندي سيترأّس الدين بعد وفاته، كما تنبّأ بأنّ شوقي أفندي سيكون أبا لسلالة ستترأّس الدين كذلك:

أيّها الأحبّاء الأوداء، بعد فقدان هذا المظلوم يجب علىٰ أغصان السدرة المباركة وعلىٰ أفنانها وعلىٰ أيادي أمر الله وعلىٰ أحبّاء الجمال الأبهىٰ، أن يتوجّهوا إلىٰ فرع السدرتين الذي نبت من الشجرتين المقدّستين المباركتين، أعني شوقي

---

(1) Peter Smith, A Concise Encyclopedia of the Bahái Faith, p. 20.

أفندي، لأنّه آية الله والغصن الممتاز ووليّ أمر الله ومبيّن آيات الله [ومن بعده بكرا بعد بكر].(١)

ترأّس شوقي أفندي الدينَ البهائيّ في عام ١٩٢١م، كما قضىٰ عبد البهاء؛ غير أنّ الوضع تغيّر بشكل كبير في عام ١٩٥٧م، عندما توفّي شوقي أفندي بشكل مفاجئ في الستين من عمره، ولم يُرزق أولادا، بحيث لم يترك ذرّيّة تقوم علىٰ رئاسة الدين من بعده.(٢) يتعارض هذا الواقع بشكل مباشر مع تنبّؤ عبد البهاء بأنّ شوقي سيكون "**مبيّن آيات الله، ومن بعده بكرا بعد بكر**". توفّي شوقي أفندي من دون تعيين خلف له، ما أجبر البهائيّين علىٰ إعادة هيكلة البنية الإدارية بصورة جذريّة؛ أفضت إلىٰ عدم ترؤّس شخص واحد للمؤمنين بعد اليوم، وتولّي مجلس مؤلّف من تسعة أعضاء منتخبين، يسمّىٰ بيت العدل الأعظم، إدارة شؤون الدين البهائي كافّة.

وفي نبوءة أخرىٰ، بشّر عبد البهاء لدىٰ سؤاله عن أحداث عام ١٩٥٧م بحصول تحوّل عالميّ في أحوال البشريّة:

سيحلّ السلام العالميّ علىٰ أسس متينة، وسيتخاطب الناس بلغة عالميّة واحدة. وستختفي النزاعات؛ وستنتشر القضيّة البهائيّة في كلّ الأرجاء وستتحقّق وحدة البشريّة، وسيكون ذلك حدثا جللا.(٣)

نُشرت توقّعات عبد البهاء للمرّة الأولىٰ في عام ١٩٢٣م، حيث تنبّأ بانتشار الدين البهائيّ في كلّ أرجاء العالم، وبحلول السلام العالميّ والوحدة بين البشر مع

---

(١) عبد البهاء. ألواح الوصايا. الجزء الأول.

(2) Peter B. Clarke, Peter Beyer, The World's Religions: Continuities and Transformations, see section "Succession and routinisation of Bahá'i leadership".

(3) J. E. Esslemont, Baha'u'llah and the New Era, 1923 edition, Chapter XIV – Prophecies of Bahá'u'lláh and Abdul-Bahá.

قدوم عام ١٩٥٧م. في الواقع، لقد كانت العقود المؤدّية إلىٰ عام ١٩٥٧ والعقود التي تلته الأكثر دمويّة في التاريخ. ولا زالت الأمراض الاجتماعيّة كالفقر، والعنصريّة، والجريمة تلاحق الجنس البشريّ، ناهيك عن ازدياد حدّتها بعد حوالي قرن علىٰ تنبّؤ عبد البهاء.

وعليه، يمكننا استنتاج عدم امتلاك رئيسَيِّ الدين البهائيّ المُتمثّلين في شخص بهاء الله مؤسّس الدين وولده عبد البهاء، أيّ معرفة استثنائيّة بالمستقبل. قد نستطيع القول بإمكانيّة امتلاكهما لمهارات علىٰ صعيد تحليل المجريات السياسيّة، إلّا أنّهما عندما تجرّآ علىٰ الخوض في مجالات أخرىٰ، وسعيا لإعطاء تنبّؤات علىٰ المدىٰ الطويل، كانت تنبّؤاتهما خاطئة، لذا لا يمكن اعتبارهما نبيّين صادقين.

تشارلز تايز راسل Charles Taze Russell

كان تشارلز تايز راسل (١٦ شباط/ فبراير ١٨٥٢م – ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٦م) قسّا أميركيّا مسيحيّا من بيتسبرغ، بنسيلفانيا. بدأ بنشر آرائه الخاصّة حول المسيحيّة بسبب امتعاضه من العقائد التي كانت تنشرها الكنيسة في زمانه. أسّس راسل في عام ١٨٨١م منظّمة عرفت باسم جمعيّة برج المراقبة، وتعدّ اليوم الهيئة القانونيّة الرئيسيّة التي يستخدمها شهود يهوه لنشر معتقداتهم الدينيّة. يعدّ شهود يهوه طائفة مسيحيّة تقوم علىٰ مبادئ تعاليم تشارلز تايز راسل، ويبلغ عدد أتباعها حوالي ٨ ملايين حول العالم، كما تعدّ مجلّة برج المراقبة المجلّة الأكثر توزيعا حول العالم، بمعدّل يصل إلىٰ حوالي ٦٢ مليون نسخة كلّ شهرين في ٣٠٧ لغة.

لطالما ادّعت جمعيّة برج المراقبة أنها المنظّمة الوحيدة التي تتحدّث باسم الله، وأنّ شهود يهوه السبيل الوحيد الذي يرشد الله به عباده الصادقين. وفيما يلي بعض المزاعم التي ادّعتها جمعيّة برج المراقبة عن نفسها:

إنّ برج المراقبة ليست أداة بيد شخص أو مجموعة من الأشخاص، كما أنّ محتواها لا يصدر وَفقا لأهواء البشر. لا تنضوي برج المراقبة تحت أيّ رأي من الآراء البشريّة... [١] وأيضًا:

أعطىٰ الله تفسيرات لنبوءاته، وقدّر لها أن تنتشر. كذا قدّر الربّ لهذه الحقائق أن تُنشر في برج المراقبة.[٢]

واعلم أيضا حقيقة أنّ منظّمة يهوه هي المنظّمة الوحيدة في الأرض التي يقوم

---

(1) Watchtower, November 1st, 1931 issue, p. 327.

(2) Watchtower, March 1st, 1936 issue, pp. 72 – 73.

علىٰ إدارة أمورها الروح القدس أو القوّة الفاعلة [زكريا ٤: ٦]. تعمل هذه المنظّمة فقط لخدمة يهوه وتمجيده. فلها وحدها، يعدّ كلام الله، الكتاب المقدّس، كتابا مفتوحا... [١]

وبناء عليه، تمارس جمعيّة برج المراقبة اليوم سيطرة كبيرة علىٰ كلّ جانب تقريبا من جوانب حياة الملايين من شهود يهوه حول العالم. وتعادل طاعة تعاليم تشارلز تايز راسل وجمعية برج المراقبة طاعة الله، بحيث يعدّ إنكار هذه التعاليم بمثابة الكفر بالله. ولقد تمّت الإشارة إلىٰ هذا الزعم صراحة في إحدىٰ إصدارات المجلّة:

لقد ثبت بالدليل القاطع القدوم الثاني للربّ، وموعد الحصاد، وملء الأخ راسل لمنصب "ذلك العبد"... لذا يوازي رفض عمله الكفر بالربّ. [٢]

ولنقم الآن بدراسة هذه المزاعم لنرىٰ مدىٰ صمودها أمام التحليل الدقيق.

قام تشارلز تايز راسل بنشر الطبعة الأولىٰ من مجلة برج المراقبة في تموز/ يوليو من عام ١٨٧٩م تحت عنوان "برج مراقبة صهيون وبشير حضور المسيح".

وبحسب الإصدار الأوّل، لقد كان هدف المجلّة جذب الانتباه إلىٰ اعتقاد راسل بأنّ الناس في زمانه "**يعيشون في الأيّام الأخيرة**":

هذا هو العدد الأوّل من "المجلّد" الأوّل لمجلّة "برج مراقبة صهيون". ولا ضير في الإشارة إلىٰ الهدف من إصدارها. نحن نعيش "في الأيّام الأخيرة" – "زمن الربّ" – "نهاية" زمن الإنجيل، وبالتالي في فجر "زمن جديد". [٣]

---

(1) Watchtower, July 1st, 1973 issue, p. 402.

(2) Watchtower, May 1st, 1922 issue.

(3) Zion's Watch Tower and Herald of Christ's Presence, July 1879, p. 1.

وهكذا نرىٰ أنّه منذ مطلع تأسيسها، كان الهدف من وراء منظّمة تشارلز تايز راسل الإشارة إلىٰ آخر الزمان. وبعبارة أخرىٰ، لقد تمثّل هدفه في جذب الانتباه حول اقتراب نهاية العالم كما رآه. ولم يتأخّر بعدها كثيرا في إعطاء تواريخ محدّدة لنهاية العالم:

علىٰ ضوء الأدلّة الصلبة الواردة في الكتاب المقدّس بشأن حُكم الأمم، فإنّنا نرىٰ بأن النهاية الأخيرة لممالك هذا العالم، والقيام التامّ لمملكة الله الذي سيتمّ في أواخر عام ١٩١٤م هو حقيقة ثابتة. [١]

لقد كتب راسل الكلام أعلاه في عام ١٨٨٩م، مشيرا إلىٰ أنّ قيام مملكة الله علىٰ الأرض بنهاية عام ١٩١٤م يعدّ "حقيقة ثابتة". لم يكن هذا التصريح تصريحا عارضا، حيث كرّر راسل مزاعم مماثلة علىٰ مدىٰ إصداراته في السنوات اللاحقة. ووصل به الأمر بعد بضع سنوات إلىٰ تحديد الشهر الذي سينتهي به العالم، وهو تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٤م:

إنّ موعد انتهاء تلك "المعركة" مبيّن في النصوص المقدّسة علىٰ أنّه في تشرين الأوّل/ أكتوبر من دون أدنىٰ شكّ. والمعركة دائرة منذ زمن، حيث انطلقت شرارتها الأولىٰ في تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٨٧٤م. واقتصرت إلىٰ الآن علىٰ المعارك الكلاميّة وتنظيم القوىٰ – رأس المال، واليد العاملة، والجيوش، والمنظّمات السرّيّة. لم يشهد أيّ عصر من ذي قبل عمليّات حشد واستقطاب مثل تلك التي يشهدها عصرنا هذا. [٢]

ما الأمور التي قال تشارلز تايز راسل بحدوثها في الوقت الذي سيحين فيه تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩١٤م؟ لقد حدّد راسل عددا من الأحداث في عام

---

(1) Charles Taze Russell , The Time Is At Hand, pp. 98 – 99.

(2) Watchtower, January 15th, 1892 issue.

١٨٨٩م كالآتي: يذكر بأنّ نقاطه ليست مبنيّة علىٰ التخمينات وإنّما علىٰ "أدلّة الكتاب المقدّس"، بمعنىٰ أن جميع توقّعاته مُنزّلة:

سنعرض في هذا الفصل أدلّة الكتاب المقدّس التي تثبت نهاية حُكم الأمم – أي النهاية التامّة لحُكمهم في عام ١٩١٤م؛ وكون هذا التاريخ الحدّ الأقصىٰ لحكم الإنسان الخطّاء... وامتلاك مملكة الله في ذلك التاريخ، التي أمرنا الله أن نصلّي من أجلها قائلا "مملكتي قادمة" السيطرة الكاملة والشاملة، و"ستبنىٰ" أو تقوم بثبات في الأرض علىٰ أنقاض المؤسّسات الحاليّة. ثانيا، سيثبت أنّه مَن يمتلك الحقّ في السيطرة سيظهر كحاكم الأرض الجديد... لأنّ الإطاحة بحكومات الأمم هو نتيجة مباشرة لقيامه بكسرهم مثل إناء خزاف (المزامير ٢:٩؛ الرؤيا ٢:٢٧)، وتأسيس حُكمه الحقّ بدلا منها. [1]

وكما نرىٰ، تصرّح المادّة الواردة أعلاه بعبارات لا تحمل الشكّ، حدوث الأمور التالية من ضمن غيرها من الأمور:

- سنة ١٩١٤ هي "**الحدّ الأقصىٰ لحكم الإنسان الخطّاء**"؛
- القضاء علىٰ المؤسّسات الحاكمة في العالم "**كسرهم مثل إناء خزاف**"؛
- الربّ هو "**الحاكم الجديد للأرض**"؛ وأنّ مملكة الله ستحظىٰ "**بالسيطرة الكاملة والشاملة**"، و"**ستقوم بثبات في الأرض علىٰ أنقاض المؤسّسات الحاليّة**".

حلّ عام ١٩١٤م وانتهىٰ من دون تحقّق هذه النّبوءات – فأديان العالم وحكوماته كانت، ولا زالت قائمة اليوم بعد ١٠٠ عام علىٰ تلك النّبوءات. توفّي تشارلز تايز راسل في سنة ١٩١٦م؛ تاركا وراءه إرثا من نبوءات آخر الزمان التي لم يتجلّ أيّ منها علىٰ أرض الواقع.

---

(1) Charles Taze Russell, The Time Is At Hand, pp. 76 – 78.

علىٰ من يقع اللوم إذًا في هذا اللبس وخيبة الأمل؟ من خلال قراءة الإصدارات الحديثة لمجلّة برج المراقبة، يستشفّ المرء محاولتها الإيحاء بعدم اقتصار كلام تشارلز تايز راسل، رئيس برج المراقبة، علىٰ أحداث عام ١٩١٤م وحده؛ والتلميح إلىٰ تحمّل الآخرين، أي القرّاء، مسؤوليّة الخروج بأيّ توقّعات كبيرة أو مزاعم عقائديّة جازمة. ونجد مثالا عن هذا الأمر في التأريخ الرسميّ للمنظّمة المعتمد منذ عدّة سنوات:

لا شكّ بأنّ الكثير من الناس كانوا متحمّسين للغاية في هذه الفترة بخصوص ما يمكن توقّعه. ولقد وضع بعضهم تصريحات برج المراقبة في غير موضعها وقوّلها ما لم تقل، وفي الوقت الذي رأىٰ فيه راسل ضرورة لفت النظر إلىٰ حتميّة حدوث تغيير كبير نتيجة لانتهاء حُكم الأمم، إلّا أنّه شجّع قرّاءه علىٰ البقاء مرنين، لا سيّما فيما يتعلّق بعامل الزمن.[١]

ونرىٰ هنا أنّه بدلا من تحمّل المسؤوليّة والاعتراف بخطأ تعاليم برج المراقبة بشأن تلك المسألة العقائديّة الأساسيّة، ألقي اللوم علىٰ أولئك الذين لا يملكون سوىٰ اتّباع هذه التعليمات بشكل أعمىٰ.

بعد إدراك خطأ نبوءة عام ١٩١٤م، عملت إصدارات برج المراقبة علىٰ تدارك الموقف منعا للحرج. ولنتذكّر أنّه قبل ١٩١٤م، كرّر تشارلز تايز راسل زعمه بانتهاء حكومات العالم. وأورد فيما يلي مقطعا من كتابه "اقتربت الساعة" (The Time is at Hand) لطبعة عام ١٨٨٩م كنت قد أشرت إليه سابقا:

أوّلا، ستمتلك مملكة الله التي أمرنا الله أن نصلّي من أجلها قائلا "مملكتي قادمة" السيطرة الكاملة والشاملة في ذلك التاريخ، و"ستبنىٰ" أو ستقوم بثبات في

---

(1) Jehovah's Witnesses in the Divine Purpose, 1959, p. 52.

الأرض علىٰ أنقاض المؤسّسات الحاليّة.

يتعارض تعبير بأنّ مملكة الله "**ستملك السيطرة الكاملة والشاملة**" مع التعبير الوارد في طبعة صدرت بعد سنة ١٩١٤م للكتاب نفسه تقول بأنّ مملكة الله "**ستبدأ في تولّي مقاليد الحكم**":

أوّلا، ستبدأ مملكة الله التي أمرنا الله أن نصلّي من أجلها قائلا "مملكتي قادمة" في تولّي مقاليد الحكم في ذلك التاريخ، و"ستبنىٰ" أو ستقوم بعد ذلك بفترة وجيزة بثبات في الأرض علىٰ أنقاض المؤسّسات الحاليّة.

نرىٰ هنا سعي الطبعات الصادرة بعد عام ١٩١٤م إلىٰ التورية علىٰ هذه النّبوءة الخاطئة، من خلال تحريف الكلام. لا يملك الكثير من شهود يهوه اليوم أيّ فكرة عن عِظم المزاعم التي رافقت سنة ١٩١٤م. وتمرّ إصدارات برج المراقبة مرور الكرام علىٰ هذه التوقّعات، في حين تتورّع عن التطرّق إلىٰ بعضها الآخر بالكامل.

وحتّىٰ في عام ١٩٩٤م، كانت التعديلات لا تزال قائمة علىٰ قدم وساق، بهدف لملمة الإرباك المتعلّق بعام ١٩١٤م.

ونجد دليلا علىٰ ذلك علىٰ غلاف مجلّة "استيقظ" حيث نقرأ في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٩٥م ما يلي:

تهدف "استيقظ" إلىٰ تثقيف أفراد الأسرة. فهي تبيّن كيفيّة معالجة مشاكل اليوم، وتنقل الأخبار، وتفتح نوافذ علىٰ شعوب العالم، وتبحث في شؤون الدين والعلوم. لكنّها تقوم بأكثر من ذلك. إنّها تسبر الأغوار لتشير إلىٰ المعنىٰ الحقيقيّ للأحداث الدائرة، إلّا أنّها تحافظ دائما علىٰ حيادها السياسيّ، ولا تعظّم عرقا دونًا عن غيره. والأهمّ من هذا كلّه، تعزّز هذه المجلّة الثقة بوعد الخالق بقيام عالم جديد آمن قبل وفاة الجيل الذي كان شاهدا علىٰ أحداث عام ١٩١٤م.

لقد ظهرت عبارة "**تعزّز هذه المجلّة الثقة بوعد الخالق بقيام عالم جديد آمن، قبل وفاة الجيل الذي كان شاهدا علىٰ أحداث عام ١٩١٤م**" عاما بعد عام منذ عام ١٩٨٢م وحتىٰ الـ ٢٢ من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٥م. ومع إصدار تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٥م، عُدّلت هذه العبارة بحذف الإشارة إلىٰ سنة ١٩١٤م، حيث أصبحت الآن مطلقة من دون حدود زمنيّة ثابتة كالآتي: "**تعزّز هذه المجلّة الثقة بوعد الخالق، باقتراب قيام عالم جديد آمن وسعيد محلّ الأنظمة الكافرة وغير الشرعيّة**":

تهدف "استيقظ" إلىٰ تثقيف أفراد الأسرة بكاملها. فهي تبيّن كيفيّة معالجة مشاكل اليوم، وتنقل الأخبار، وتفتح نوافذ علىٰ شعوب العالم، وتبحث في شؤون الدين والعلوم. لكنّها تقوم بأكثر من ذلك؛ إنّها تسبر الأغوار لتشير إلىٰ المعنىٰ الحقيقيّ للأحداث الدائرة، إلّا أنّها تحافظ دائما علىٰ حيادها السياسيّ، ولا تعظّم عرقا دونًا عن غيره. والأهمّ من هذا كلّه، تعزّز هذه المجلّة الثقة بوعد الخالق باقتراب قيام عالم جديد آمن محلّ الأنظمة الكافرة وغير الشرعيّة.

وباختصار، لقد رأينا بأنّ إصدارات تشارلز تايز راسل، قدّمت توقّعاتها المتعلّقة بنهاية الزمان في عام ١٩١٤م علىٰ أنّها نتاج للهدي الإلهيّ. وأشير إلىٰ هذه الحسابات علىٰ أنّها "**تواريخ الله، وليست تواريخنا**"،[١] و"**حقيقة ثابتة**"[٢] و"**مبيّنة في النصوص المقدّسة من دون أدنىٰ شكّ**"[٣]. وفي الفترة التي نشرت فيها هذه الإصدارات، لم يكن لدىٰ القارئ ذرّة شكّ في كونها منزّلة وليست مجرّد رأي أو تخمينات. لقد مضىٰ أكثر من قرن علىٰ النّبوءة الأصليّة، ولم ينته العالم بعد، الأمر الذي يحكم ببطلانها.

---

(1) Watchtower, July 15th, 1894 issue.

(2) Charles Taze Russell, The Time Is At Hand, pp. 98 – 99.

(3) Watchtower, January 15th, 1892 issue.

آليستر كراولي Aleister Crowley

كان آليستر كراولي (١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٧٥م – ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧م) مؤمنا بالتعاليم الباطنيّة وساحرا وشاعرا. كان واحدا من أشهر شخصيّات القرن العشرين حيث لقّب بـ"**أخبث رجل في العالم**" من جهة الصحافة البريطانيّة بسبب آرائه المتحرّرة حول الجنس والمخدّرات وكتاباته المارقة ضدّ الأديان التقليديّة كالمسيحيّة.

وقبيل وفاته في عام ١٩٤٧م، استحوذ علىٰ لقب الباطنيّ الأكثر شهرة. ويعدّ كراولي كاتبا فذّا حيث قام بنشر الكثير من الأعمال المتعلّقة بنظريّات السحر وممارسته طوال حياته؛ إلّا أنّ أكثر أعماله شهرة، هو نصّ يعرف باسم كتاب القانون.

وعلىٰ الرغم من خطّه لهذا الكتاب بيده، غير أنّ كراولي ينكر كونه من تأليفه. ويزعم الرجل أنّه في أثناء رحلة قام بها إلىٰ مصر في عام ١٩٠٤م، قام كيان خارق يسمّي نفسه آيواس بالتواصل معه. ويصف كراولي آيواس بأنّه كائن يفوق ذكاؤه ذكاء البشر بمراحل، وبأنّه أملىٰ عليه كتاب القانون بشكل مباشر علىٰ مدىٰ ثلاثة أيّام.

بعد هذه الواقعة، عرّف كراولي نفسه بأنّه نبيّ تمّ تكليفه من جهة الآلهة، لتوجيه الإنسانيّة نحو عهد روحيّ جديد. وأسّس ديانة الثيليما علىٰ مبادئ كتاب القانون. ويطلق اليوم أتباع آليستر كراولي علىٰ أنفسهم اسم الثيليميين. ويعدّ كراولي كتاب القانون دليلا علىٰ مصدره الخارق:

لقد بيّن [آيواس] علمه بشكل رئيس عبر استخدام الشيفرة أو الرموز السرّيّة في

بعض المقاطع لعرض الوقائع المبهمة، بما فيها بعض الأحداث التي لـم تـأت بعـد، والتي لـيس بمقـدور أيّ إنسـان اسـتنباطها؛ لـذا، يتـوافر دليـل مزاعمـه في المخطوطـة نفسها.[1]

نرىٰ هنا أنّه بحسب كراولي، تكمـن إحـدىٰ دلائـل الأصـل الخـارق للكتـاب في التنبّؤات الدقيقة حول أحداث المستقبل. ونعرض فيما يلي أشهر مثال لنبوءة مرتبطة بكتاب القانون:

أنا ربّ الحرب في الأربعينيات: الثمانينيات تضعف أمامي وتذلّ. سـآخذ بيـدكم إلىٰ النصر والسـعادة. سـأكون عنـد ذراعكـم في أثنـاء المعركـة، وسـتتلذّذون بإزهـاق الأرواح. النصر دليلكم، والشجاعة سلاحكم. سـيروا، سـيروا، بقـوّتي؛ ولـن تُهزمـوا أبدا.[2]

يقدّم أتباع كراولي هذه النّبوءة كدليل علىٰ أنّها ليست من عنـد البـشر، باعتبارهـا نبوءة دقيقة حول الحرب العالميّة الثانيـة التـي وقعـت في أربعينيـات القـرن الماضـي. لنقم بدراسة هذه المزاعم، لنرىٰ إن كانت حقّا دليلا علىٰ قـوّة الكتـاب التنبّئيـة. تـبرز إحـدىٰ المـشاكل في غمـوض المعنـىٰ كمـا في الكثيـر مـن مقـاطع كتـاب القـانون. وفي تعليقـه علىٰ هـذا المقطـع، لا يتعامـل كراولـي مـع "الأربعينيـات" و"الثمانينيـات" كتواريخ:

أربعون هي الماء، الرجل المشنوق. وثمانون هي المريخ، البـرج المُـدَمَّر. تـشير هاتان الورقتان بالترتيب إلىٰ "دمار العالـم بالماء"، و"النار". وتدلّ بشكل عامّ علىٰ أنّه سيّد كلتا القوّتين.[3]

---

(1) Aleister Crowley, Introduction to The Book of the Law.

(2) Aleister Crowley, The Book of the Law, III.46.

(3) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.46.

تعود عبارتا "**الرجل المشنوق**" و"**البرج المُدَمَّر**" إلىٰ أوراق التاروت التي استخدمها كراولي لفهم ذكر العددين "الأربعينيات" و"الثمانينيات". وباستخدام هذه الأوراق، خلص كراولي إلىٰ معنىٰ "**دمار العالم بالماء والنار**". قد يكون صحيحا إشارة ذلك إلىٰ الحرب، ولكنّه قد يكون أيضا إشارة إلىٰ الكوارث الطبيعيّة كالسيول. ففي نهاية المطاف، الأمر ليس واضحا تماما.

يعكس لنا استخدام كراولي لأوراق التاروت لتفسير المعاني مشكلة كبيرة في هذا الكتاب، وذلك لجهة الطريقة التي ينبغي اعتمادها في التفسير. هل يجب أن تكون حرفيّة أو مجازيّة أو بطريقة أخرىٰ؟ وبحسب الطريقة التي يختار المرء اعتمادها، يمكنه التوصّل إلىٰ معانيَ مختلفة للغاية. وعلىٰ الرغم من بذل كراولي كلّ ما بوسعه لفهم هذا البيت، إلّا أنه تحدّث عن وجود بعض الأجزاء التي لم يكن واثقا من كيفيّة تفسيرها. في الواقع، لم يكن كراولي، بحسب تعليقه علىٰ هذا البيت، واثقا من المعنىٰ العامّ: "**أميل إلىٰ القول بأنّ هناك معنىٰ بسيطا وآخر عميقا في النصّ الذي أمطتُ اللثام عنه**".[1] إذًا لدينا هنا مثال عن قيام أتباعه باستخلاص نبوءات من النصّ، لم يقل النبيّ نفسه بها. ولو سلّمنا جدلا بأنّ هذه النّبوءة ترجع إلىٰ الحرب، فإنّ ذلك لا يجعلها استثنائيّة بأيّ شكل من الأشكال. فلقد كان القرن العشرون الذي كُتب كتاب القانون فيه عصر الإمبراطوريّات. وكانت الأمم تسعىٰ لتوسيع نطاق سيطرتها علىٰ الأراضي، وتتقاتل فيما بينها علىٰ النفوذ طوال الوقت. في الواقع، كانت الحروب السمة البارزة لمعظم عقود القرن العشرين، كالحرب العالميّة الأولىٰ من ١٩١٤م – ١٩١٩م، والحرب العالميّة الثانية من ١٩٣٩م – ١٩٤٥م، والحرب الباردة من ١٩٤٧م – ١٩٨٩م. لذا قد تتوافق أيّ حرب من هذه الحروب مع هذه النّبوءة! من هذا المنطلق، كانت النّبوءة ستعدّ أكثر لفتا للنظر لو أنّها حدّدت

---

(1) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.46.

العقد الذي سيحل فيه السلام، بما أنّ القتال والنزاع كانا القاعدة آنذاك.

أمّا النّبوءة الأخرىٰ المرتبطة بكتاب القانون فهي الآتية:

ضحِّ بالأبقار، صغيرة وكبيرة: بعد طفل، ولكن ليس الآن. سترىٰ تلك الساعة، أيّها الوحش المبارك، وأنت المحظيّة القرمزيّة لرغبته! وسيعتريك الحزن بسببها. [1]

أسبغ كراولي علىٰ هذه الأبيات صفة النّبوءة التي تحقّقت بالوفاة المأساوية لابنه البكر في عام ١٩٠٦م، بعد عامين من كتابة كتاب القانون.

هل تنبّأت هذه الأبيات حقّا بوفاة ابنه؟ تكمن إحدىٰ المشاكل في إضفاء صفة النّبوءة علىٰ هذه الأبيات، في عجز كراولي نفسه عن التوصّل للعلاقة بين الأمرين. ولم يعلن عن كونها نبوءة إلا عقب وفاة ابنه، حيث علّق قائلا:

إنّ هذه الأبيات التي أسيء فهمها طوال ذلك الوقت، أصبحت اليوم واضحة جليّة. ولقد شرح البيتُ الخامسَ عشرَ نفسَه، رغم أنّه كان يبدو نتيجة مستحيلة. لقد تحقّق هذا البيت، بقراءته متّصلا بالبيت الثالث والأربعين في ١ أيار/ مايو ١٩٠٦م. لقد كانت تلك الفاجعة أيضا جزءًا من عمليّة إعدادي كما هو مبيّن في هيكل الملك سليمان. إلّا أنّها كانت شديدة المرارة بحيث لا أجد رغبة في الكتابة عنها. [2]

وقد تكون إحدىٰ الأسباب التي منعته من عدّها نبوءة، هو الغموض الذي يكتنفها.

فبالنظر إلىٰ بنية اللغة المستخدمة وأسلوبها، نرىٰ بأنّ المعنىٰ ليس واضحا تماما. وقد تعني جملة "**ضحِّ بالأبقار، صغيرة وكبيرة: بعد طفل**" عدّة أمور؛ نذكر منها علىٰ سبيل المثال:

---

(1) Aleister Crowley, The Book of the Law, III.12-15.

(2) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verses III.12-15.

١. قد تكون أمرًا بالتضحية بطفل بعد التضحية بالحيوانات.

٢. قد تكون إخبارًا بولادة طفل بعد الانتهاء من التضحية بالحيوانات.

٣. قد تكون أمرًا بالتضحية بالحيوانات بعد ولادة طفل.

ويتمثّل الجزء الغامض الآخر من هذه النبوءة في الجملة التالية "**وسيعتريك الحزن بسببها**". توضّح هذه الجملة بأنّ كراولي سيصاب بالحزن، إلّا أنّ ما لا توضّحه هو السبب الذي سيجعله حزينا. لقد جاءت تلك الجملة بعد الإشارة إلىٰ التضحية بالحيوانات، والطفل، والمحظيّة القرمزيّة؛ لذا يمكن لأيّ من هذه الأمور الثلاثة، أو ثلاثتها معا، أن تكون سبب حزنه، بمعنىٰ أنّها لا ترجع بالضرورة إلىٰ الطفل وحده. لو كان هذا الكتاب حقّا وحيا منزّلا من قبل قوّة خارقة تُعلّم الغيب، ولو كانت تلك النّبوءة تهدف إلىٰ إعلام كراولي بوفاة ابنه، لكان بالإمكان صياغتها بصورة أوضح كما يلي: "**ضحِّ بالحيوانات. سيولد طفل ثمّ يموت. وسيكون ذلك مبعث أسىٰ لك**". ويبدو أن صياغة هذه النّبوءة بذلك الغموض كان أمرا متعمّدا لكي تنطبق علىٰ أكبر عدد من الأحداث في المستقبل.

أما المثال الآخر عن نبوءة شهيرة له فهو التالي:

لكنّ مكانك المقدّس لن يمسّ علىٰ مدىٰ العصور: وعلىٰ الرغم من إحراقه وتحطيمه بالنار والسيوف؛ إلّا أنّ منزلا غير مرئيّ سيحلّ مكانه، وسيبقىٰ قائما حتّىٰ سقوط الاعتدال العظيم.[١]

يحدّد كراولي "**المكان المقدّس**" بمنزل بولسكاين[٢]، وهو قصر يقع في الجنوب الشرقي من لوخ نيس في المرتفعات الاسكتلنديّة. اشترىٰ كراولي هذا

---

(1) Aleister Crowley, The Book of the Law, III.34.

(2) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.34.

المنزل في سنة ١٨٩٩م لاعتقاده بأنّ تصميمه المعماريّ وموقعه المعزول مثاليان لممارسة طقوسه السحريّة. ثمّ قام ببيعه لاحقا في عام ١٩١٣م حيث تعاقب علىٰ امتلاكه منذ ذلك الوقت الكثير من الأشخاص. وفي ليلة الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من عام ٢٠١٥م، لحقت بقصر بولسكاين أضرار جسيمة نتيجة اندلاع حريق بداخله في ظروف غامضة، ما حدا بأتباع كراولي إلىٰ القول بتحقّق النّبوءة.

لا تعدّ هذه النّبوءة لافتة عند التفكير بصورة عقلانيّة، لعدّة أسباب.

أوّلها إمكانيّة كونها ذاتيّة التحقّق، إذ لا يمكن استبعاد قيام أحد أتباع كراولي بافتعال الحريق، لكي ترىٰ هذه النّبوءة النور.

وثانيها أنّه حتّىٰ لو كان الحريق مجرّد حادث، فإنّ المنازل تحترق طوال الوقت، لذا تعد الحادثة أمرا مألوفا واعتياديّا.

وثالثها إمكانيّة ادّعاء حتميّة دمار ذلك المنزل، حيث يحيط به تاريخ قاتم، لطالما زرع الخوف في قلوب الإسكتلنديين الذين يملكون الدافع لتخليص مجتمعهم ممّا عدّه الكثير منهم مكانا للشرور والحظّ العاثر.

لقد وجدنا بحسب ما درسناه من كتاب "القانون" إلىٰ حدّ الآن، بأنّ الكتاب يكتنفه الغموض في كثير من الأحيان. لقد كتب كراولي الكثير من التعليقات حول هذا الكتاب في حياته، يفسّر بعضَها أبياته بطرق مختلفة للغاية إذا ما قورنت ببعضها. وفي الواقع، يعدّ كتاب القانون شديد الغموض لدرجة أنّ تفسير بعض فصوله استغرق كراولي أكثر من سبع عشرة سنة حسب قوله.[1] يعترف كراولي بغموض الكتاب ويعطي لذلك التبرير الآتي:

---

(1) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.19.

يمتنع الإله عن التصريح بكلمته لحكمة يعلمها، فإذا ما وقع الأمر، جاء معه تفسير كلمته. ولقد ساعد هذا الوميض المتراكب لتلك الكلمة في إبقائها علىٰ قيد الحياة في الوقت الذي استحال فيه نزول وحي جديد بشأنها. وفي كلّ مرّة كنت أسأم فيها من كتاب القانون؛ كان يحدث شيء يضيء وهجه في قلبي من جديد.[1]

يقول كراولي هنا بأنّ غموض الكتاب أمر متعمّد، ويصفه بالأمر الحسن، لأنّه أبقىٰ لديه دافع العكوف علىٰ دراسته. تعدّ سمة الغموض حسنة في الكتب الخياليّة في بعض الأحيان، حيث إنّها تفتح المجال أمام مناقشة المعنىٰ المراد؛ إلّا أنّه لا بدّ للمعنىٰ أن يكون واضحا في الكتب الدينيّة ككتاب القانون علىٰ سبيل المثال، وذلك لطابعها التوجيهيّ بالنسبة لأتباعها.

بالإضافة إلىٰ ذلك، يكمن الهدف من النّبوءة في لفت انتباهك إلىٰ أحداث محدّدة في المستقبل؛ ولكن عندما تكون النّبوءة شديدة الغموض، فإنّها تفقد قدرتها التوقّعيّة، وهو ما يهدم الغاية من النّبوءة برمّتها.

تتمثّل المشكلة الرئيسيّة الأخرىٰ في كتاب القانون، في وجود نبوءات خاطئة تشكّك في مدىٰ صحّة أصله الخارق للطبيعة. ونذكر هنا المثال الآتي:

أنا الأفعىٰ التي تمنح العلم والبهجة والمجد الساطع، وتطرب قلوب البشر بالثمالة. لعبادتي، عاقرِ الخمر وتعاطَ المخدِّرات مثلما سأقول لنبيّي، واثمل منها! لن تسبّب لك الأذىٰ علىٰ الإطلاق. إنّها كذبة، هذا جهل بالنفس...[2]

يخبر الكتاب هنا كراولي عن استطاعته الانغماس في المُسكرات كالخمر والمخدّرات ("**عاقر الخمر وتعاطَ المخدّرات**") من غير أن يصيبه أيّ ضرر منها

---

(1) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.16.

(2) Aleister Crowley, The Book of the Law, II.22.

("**لن تسبّب لك الأذىٰ علىٰ الإطلاق**"). ويبدو بأنّ كراولي حمل هذه النّبوءة علىٰ محمل الجدّ، وبدأ بتجربة شتّىٰ أنواع المخدّرات علىٰ مدىٰ حياته وغمسها في طقوسه السحريّة.

ولقد قطع إدراك تأثيرات الكحول والمخدّرات علىٰ جسم الإنسان علىٰ المدىٰ الطويل شوطا كبيرا بعد مرور أكثر من مئة عام علىٰ كتابة كتاب القانون. وأظهرت الكثير من الدراسات بأنّ الإدمان، والأمراض العقليّة، وأمراضًا مثل السرطان، هي بعض الآثار السلبيّة التي يسبّبها تعاطي مثل هذه المسكرات.[١]

ولقد وُثّقت معاناة كراولي من إدمان المخدّرات بصورة دقيقة.[٢] حيث بدأت صحّته بالتدهور تدريجيّا بعد بلوغه الخمسين من عمره. وفارق الحياة في هاستينغ، إنكلترا في الأوّل من كانون الأوّل/ ديسمبر من عام ١٩٤٧م. وبحسب وثيقة وفاته، فقد مات نتيجة تكلّس في عضلة القلب والتهاب مزمن بالشعب الهوائيّة، عزّزه تعاطي الهيروين المزمن.[٣] وبخلاف نبوءته، لقد أثّر تعاطي المخدِّرات علىٰ صحّته بلا أدنىٰ شكّ.

والنقطة الأخيرة بخصوص تعاطيه للمخدّرات، هي أنّ استخدامه للموادّ التي تؤثّر علىٰ العقل تثير شكوكا حول صدق نبوءته، إذ قد يكون لقاؤه الغامض بالكائن الذي سمّاه أيواس، مجرّد توهّمات سبّبتها طقوسه المحقونة بالتعاطي، أكثر منه تجربة خارقة للعادة وحقيقيّة.

أما المثال الآخر عن إحدىٰ نبوءاته الخاطئة فهو:

---

(1) John Brick, Handbook of the Medical Consequences of Alcohol and Drug Abuse.

(2) Kenneth Grant, Remembering Aleister Crowley, p. 18.

(3) Gary Lachman, Aleister Crowley: Magick, Rock and Roll, and the Wickedest Man in the World.

ثم يأتي رجل ثريّ من الغرب يغدق عليك من ذهبه.[1]

يتنبّأ الكتاب هنا بأنّ كراولي سيتمتع في يوم من الأيام بثروات يغدقها عليه رجل ثري قادم من الغرب. وتظهر دراسة حياته كساحر، عدم تحقّق هذا التوقّع. كان كراولي، قبل انخراطه بالسحر، ميسور الحال بفضل الثروة الطائلة التي تركها له والده في صباه، والتي جعلت منه مليونيرا كبيرا في مصطلحات عصرنا هذا؛ وسمحت له بعيش حياة بذخ وترف، وبتمويل تجاربه في السحر؛ غير أنّه عانىٰ في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين، من ضائقة ماليّة بالغة، زاد إدمانُه علىٰ المخدّرات من حدّتها. وتمّ إشهار إفلاسه عندما أصبح عاجزا عن سداد الديون إلىٰ دائنيه.[2]

وفي آخر أيّام حياته، انتقل للعيش في غرفة صغيرة في نُزل، معتاشا من العوائد الضئيلة لأعماله المنشورة. وعلىٰ عكس النّبوءة، لم يقم أحد بإنقاذ كراولي من براثن الإفلاس من خلال إغداقه بالذهب.

لقد أمضىٰ آخر أيّامه في ظلمة قاتمة، منبوذا بسبب أعماله المشينة، يندب علىٰ أطلال الرخاء الذي عاشه في شبابه. أمّا الشقّ الآخر المتعلّق بهذه النّبوءة، فهو أنّ كراولي نفسه كان غربيا، ولا بدّ أنّه اختلط بحكم ثرائه الذي تمتّع به في يوم من الأيّام بأوساط المجتمع المخمليّ، وبنىٰ روابط وعلاقات مع غربيّين أثرياء. لذا كانت نسبة تحقّق هذه النّبوءة مرتفعة للغاية، إذ لم يكن من المستبعد قيام أحد أصدقائه أو معارفه الأثرياء بانتشاله من الإفلاس، إلّا أنّ أحدًا منهم لم يبادر لفعل ذلك.

وهنا مثال آخر عن نبوءاته الخاطئة:

---

(1) Aleister Crowley, The Book of the Law, III.31.

(2) Marco Pasi, Aleister Crowley and the Temptation of Politics, p. 20.

فلتحذر المرأة القرمزيّة! إذا زارت الشفقة والعطف والرقة قلبها؛ إذا تركت عملي لتلعب بمشاعر اللطف القديمة؛ فلتكن علىٰ دراية بانتقامي. سأذبح ولدها: سأعصر قلبها: سأبعد الرجال عنها: ستزحف في الشوارع المظلمة والمبلّلة كمومس دنيئة شمطاء، وستقضي حتفها بسبب البرد والجوع.[١]

يوجّه كراولي هنا تحذيرا شديد اللهجة إلىٰ النساء القرمزيّات، وهو الاسم الذي أطلقه كراولي علىٰ مُمارِسات السحر من نسائه، مهدّدا إياهنّ بملاقاة مصير مأساويّ هنّ وأولادهنّ إذا ما تركن دينه. ومن الواضح أنّ كراولي لم يفهم هذه النّبوءة علىٰ أنّها تحذير لامرأة بعينها، وإنّما كتحذير عامّ لجميع نسائه القرمزيّات، حيث قال: **"لتحذر المرأة التالية التي يسقط عنها القناع".**[٢]

لقد كانت أوّل امرأة قرمزيّة لكراولي زوجته روز كيلي Rose Kelly التي تزوّجها في عام ١٩٠٣م، وطلّقها في عام ١٩٠٩م، ثم أدخلها في عام ١٩١١م إلىٰ مصحّة عقليّة بسبب الخرف الكحوليّ، وتوفّيت في سنة ١٩٣٢م. أنجبت كيلي ولدين من زواجها بكراولي، إلّا أن ابنه البكر نوي ما أهاتور هيكات سابفو جيزيبل ليليث Nuit Ma Ahathoor Hecate Sappho Jezebel Lilith توفّي صغيرا في عام ١٩٠٦م عندما كانا لا يزالان متزوّجين.

هل يعدّ المصير المأساويّ الذي لاقته زوجته وابنه توقّعا لافتا؟ علينا أن نتذكّر بأنّ كراولي فسّر هذه النّبوءة علىٰ أنّها تحذير عامّ لجميع نسائه القرمزيّات، لذا فإن كان في هذه النّبوءة أثارة من حقّ، فعلينا إذًا أن نتوقّع مصيرا مماثلا لجميع النساء اللواتي تركن دينه. إلّا أنّ الواقع مخالف لذلك، حيث كان لكراولي الكثير من النساء القرمزيّات في حياته اللواتي قام الكثيرات منهنّ بهجره والعودة إلىٰ حياتهنّ السابقة.

---

(1) Aleister Crowley, The Book of the Law, III.43.

(2) Aleister Crowley, The Law is for All, see commentary on verse III.43.

وبخلاف النّبوءة، لقد استمررن في عيش حياة طبيعيّة بالكامل، حيث عملن، وتزوجن، وأسّسن عائلات، ووصلن إلىٰ عمر الشيخوخة؛ نذكر منهنّ علىٰ سبيل المثال ليا هيرسغ Leah Hirsig التي كانت أشهر امرأة قرمزيّة لكراولي، والتي هجرها في أحلك الظروف. ولقد عادت فيما بعد إلىٰ مزاولة مهنتها السابقة في التعليم، وتزوّجت مرّة ثانية، وأنكرت نبوّة كراولي.[1] تُناقض كلّ هذه الأحداث ما ورد في النّبوءة، كما توفيت في عام ١٩٧٥م حيث عمّرت حتّىٰ سنّ الواحدة والتسعين.

لقد قمنا في هذا الجزء بتحليل عدد من النّبوءات الواردة في كتاب القانون. ويفيد غموض الكتاب ونبوءاته الخاطئة، بأنّه كان علىٰ الأرجح نتيجة مخيّلة كراولي أكثر منه ذكاءً خارقا للطبيعة. وأذكر فيما يلي ما توصّل إليه البروفسور جوشوا غان Joshua Gunn من استنتاجات، حيث تحدّث عن أنّ التشابه البيانيّ بين كتاب القانون وكتابات كراولي الشعريّة كبير، لدرجة لا تسمح لنا سوىٰ بعدّه من بنات أفكاره:

علىٰ الرغم من اعتقاد كراولي الراسخ بأنّ كتاب القانون مُنزّل من جهة ذكاءات خارقة، إلّا أن صور الكتاب النمطيّة، وأسلوبه المُنمّق، وعروض الصوت البيئيّ، بالغة الشبه بكتابات كراولي الشعريّة الأخرىٰ، بحيث ينتفي بها كونه نتاج أمر خارق للعادة.[2]

(1) Lawrence Sutin, Do What Thou Wilt: A Life of Aleister Crowley, p. 330.

(2) Joshua Gunn, Modern occult rhetoric: mass media and the drama of secrecy in the twentieth century, pp. 91–92.

الخرافات في المجتمعات العلمانية

تمتلك، نظريًا، كلّ ثقافة ظهرت على مدى التاريخ، معتقداتها وممارساتها الخرافيّةَ الخاصّة، التي تتشارك الثقافاتُ في الكثير من مظاهرها. ويُعدّ النقر على الخشب على سبيل المثال، لجلب الفأل الحسن، واحدًا من أكثر الخرافات المُتجذّرة في التاريخ والتي ترجع إلى آلاف السنوات من الميثولوجيا، والأعراف، والمعتقدات الدينيّة التي تقول بقدسيّة الأشجار.[1] ويُعدّ الملح مثالا آخر، حيث استخدم لآلاف السنوات كمادّة في السحر والخرافات. وكان يُعتقد بأنّ انسكاب الملح نذير شؤم. وتُظهر لوحة العشاء الأخير للرسّام ليوناردو دافينشي، قيام يهوذا بسكب الملح، للدلالة على خيانته.[2]

وفي الوقت الذي لا يترتّب عن الكثير من الخرافات، كتلك المشار إليها أعلاه، أيُّ ضرر، إلّا أنّه قد يكون لبعضها عواقب وخيمة. لقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر عمليّات تعذيب وقتل لآلاف النساء، فيما يعرف بمحاكمات الشعوذة في أوروبّا.[3] وشكّلت الخرافات حجر الزاوية في هذه المحاكمات، حيث كان الناس يعتقدون بأنّ أصل جميع المصائب يرجع إلى الخوارق. ولقد تمّ المزج بين الخرافات والأدلّة الذاتيّة لخلق بيئة تسهّل مِن رمي تهم الشعوذة وإثباتها. وكان الهلع من المشعوذين منتشرا على نطاق واسع، ما حذا بملك إنكلترا جايمس الأوّل، إلى كتابة رسالة شهيرة في عام ١٥٩٧م بعنوان **"علم الشياطين"** تناول فيها السحر والشعوذة، وذلك قبل سنوات من نشر نسخته الأولى المعتمدة للكتاب المقدّس.

(1) Richard Webster, The Encyclopedia of Superstitions, p. 147.

(2) Doug Lennox, Now You Know: The Book of Answers, p. 111.

(3) Joachim Savelsberg, Crime and Human Rights: Criminology of Genocide and Atrocities, p. 17.

وتمثّل إحدىٰ الاختبارات التي أوعز بها لإثبات تهمة الشعوذة من عدمه في **"اختبار السباحة"** الشهير، حيث كان يقيّد المتّهم ويرمىٰ في الماء، ليرىٰ ما إذا كان سيطفو أم سيغرق. وكان يعتقد بأنّ البريء سيغرق كما تغرق الأحجار، أما المشعوذ فسيطفو علىٰ سطح الماء.[١] وكان يُربط حبل حول خصر الضحيّة للتمكّن من سحبه في حال الغرق، إلّا أنّ ذلك لم يمنع الوقوع في حوادث الموت غرقا.

والمثال الآخر لهذه الاختبارات هو **"اختبار الصلاة"**. لقد اعتقدت حِكمة العصور الوسطىٰ عدم قدرة السحرة علىٰ قراءة النصوص المقدّسة بصوت مرتفع، لذا كان يُطلب من المشعوذين قراءة مقتطفات من الكتاب المقدّس – الصلاة الربّانيّة عادة – من دون خطأ أو نقصان، إلّا أنّ القراءة الصحيحة تلك، لم تشكّل ضمانة للنجاة. ففي أثناء محاكمات (الشعوذة في سالم) Salem Witch Trials، تمكّن المتّهم بالشعوذة جورج بورروز George Burroughs من قراءة الصلاة بطلاقة علىٰ أعواد المشنقة قبل تنفيذ حكم الإعدام، غير أنّه تم رفض القراءة باعتبارها خدعة من الشيطان، واستُكملت عمليّة الشنق كما كان مقرّرا.[٢] أمّا الاختبار الآخر، فتمثّل في **"وسمة الشيطان"**. كان متعقّبو السحرة يقومون في معظم الأحيان بتجريد المتّهمين من ملابسهم ومعاينتهم أمام الملأ بحثا عن أصغر تشوّه، كان يُعتقد بوسم الساحر به عند عقد عهده مع الشيطان.[٣] لذا كان من السهولة بمكان تصنيف أصغر التشوهات الجسديّة علىٰ أنّها من عمل الشيطان، وهكذا قلّما خرج المعاينون خالي الوفاض.

---

(1) William W. Coventry, Demonic Possession on Trial: Case Studies in Early Modern England and Colonial America, 1593 - 1692, p. 109.

(2) Marilynne K. Roach, The Salem Witch Trials: A Day-by-day Chronicle of a Community Under Siege, p. 243.

(3) Jonathan Durrant and Michael D. Bailey, Historical Dictionary of Witchcraft, p. 61.

قد يسخر الناس من هذه الأمثلة في أيّامنا هذه، إلّا أنّ الخرافات لا تزال تحافظ علىٰ سلطة مفاجئة إلىٰ اليوم. لقد أصبحت الخرافات القديمة في الواقع تقاليد لا دينيّة في العصر الحديث. يقوم الكثير منّا، حتّىٰ في المجتمعات العلمانيّة، بممارسة أفعال وقول أقوال متجذّرة في الخرافات من دون وعي منه. يرجع كلّ رسم من مراسم الزواج في الغرب تقريبا، إلىٰ أصول خرافيّة قديمة. فحمْل العريس عروسَه علىٰ العتبة كانت عادة تمارس في روما، للاعتقاد بأنّ تعثر العروس سيجلب الفأل السيّئ.(١) كما يعود ارتداء الوصيفات لفساتين متماثلة إلىٰ روما القديمة، حيث كان يفترض بهنّ تشتيت انتباه الأرواح الشرّيرة عن العروس.(٢)

كما تظهر الخرافات في أحاديثنا اليوميّة. يُرجع الجميع -علىٰ سبيل المثال- سبب المرور بيوم سيّئ إلىٰ "**الاستيقاظ علىٰ الجانب الخاطئ من السرير**". وفي عالم الأعراف والخرافة، كان يُعتقد بأنّ الوقوف علىٰ القدم اليسرىٰ عند الاستيقاظ من النوم، من شأنه أن يجلب الحظّ السيّئ.(٣)

يحاول بعض الأشخاص اليوم الاستفادة من ميولنا نحو الخرافات، من خلال زعم استطاعتهم التنبّؤ بالأحداث المستقبليّة والتأثير بمجرياتها. ولقد أسّس الكثير منهم من هذه المزاعم مهنة لهم. لا يقع ضمن دائرة أهداف هذا الكتاب، التطرّق إلىٰ كلّ واحد منهم، إلّا أنّنا سنلقي نظرة علىٰ الأشكال الأكثر انتشارا اليوم في المجتمعات العلمانيّة، كالوسطاء الروحيّين، وقرّاء أوراق التاروت، وقرّاء الكفّ. يدّعي الوسطاء الروحيّون قدرتهم علىٰ تحديد معلومات تجهلها الحواسّ العاديّة. ومع التاروت، يقوم قارئ الأوراق بخلط مجموعة منها بصورة عشوائيّة واستخراج

---

(1) R M Ogilvie, The Romans And Their Gods, Chapter 6.

(2) Charles Raymond Dillon, Superstitions and Folk Remedies, p. 5.

(3) Christine Ammer, The American Heritage Dictionary of Idioms, Second Edition, p. 172.

معلومات حول موضوع معيّن، بناء علىٰ ترتيب الأوراق والصور. أما قرّاء الكفّ، فيعتمدون علىٰ الخطوط الظاهرة علىٰ اليد لاستنباط قراءتهم. وعلىٰ الرغم من اختلاف منهجيّات كلّ من الوسطاء الروحيّين، وقرّاء أوراق التاروت، وقرّاء الكفّ، إلّا أنّ جميعهم يستخدمون تقنيّة تسمّىٰ بالقراءة الباردة. بالاستناد إلىٰ المعلومات البصريّة المتوافرة بصورة فوريّة، كالجنس، والعمر، والملابس، يقوم الممارس بـ"**تحمية الزبون**" من خلال إخباره بأمور يقطع بصحّتها بنسبة كبيرة وفقا للمفاتيح البصريّة. قد يلاحظ الممارس ارتداءك لماركة معيّنة من الملابس أو المجوهرات واستنتاج كونك ثريًّا علىٰ نحو صائب؛ أو قد يطلق أحكاما عامّة، ويقول "**لديك ندبة في جسدك**". بالطبع، لقد وقع الكثير منّا في طفولتهم أو تعرضوا لحوادث تركت ندوبا علىٰ أجسامهم، لذا يعدّ ذلك رهانا رابحا كبداية.

تضع هذه التقنيّات البسيطة المستهدَف في حالة من قابليّة الإيحاء. ويصبح الممارس بعد ذلك أكثر قابليّة لوضع الافتراضات والتلاعب؛ تمكّنه من البدء بإعطاء تخمينات فضفاضة، وبحسب لغة جسد المستهدف وردود فعله الكلاميّة، يستطيع الممارس بسهولة جمع الكثير من المعلومات المفصّلة. وسينتقل بسرعة من التخمينات الخاطئة لشحذ أيّ تخمينات أخرىٰ صحيحة.

وبما أنّ الضحيّة قد تمّت تحميتها وأصبحت في حالة قابلة للإيحاء، سيقوم الممارسون علىٰ الأغلب بالتغاضي عن التخمينات الخاطئة والتركيز علىٰ التخمينات القليلة الصائبة. يعوّل الممارسون علىٰ قدرتنا علىٰ تذكّر "النجاحات" ونسيان "الإخفاقات" – وهو شكل من الانحياز الانتقائيّ.

كما تؤدّي الوساطة الروحيّة التلاعبيّة دورًا، حيث يقول الممارس في أغلب الأحيان أمورا متكاملة بشكل كبير حول شخصك، علىٰ نحو يجعل عقلك يرغب بتصديق كلّ ما يقوله كحقائق ثابتة؛ كما قد يقول أمورا تسبّب الخوف، كالتلميح

بحصول أمر مأساويّ لك أو لعائلتك، الأمر الذي سيستحوذ علىٰ اهتمام الكثير من الأشخاص بطبيعة الحال. ينتهي المطاف بالكثير من الناس إلىٰ التصديق بقدرة الوسطاء الروحيّين، وقرّاء أوراق التاروت، وقرّاء الكفّ علىٰ كشف مغاليق المستقبل، بما في ذلك الممارسون أنفسهم. ليس كلّ الممارسين دجّالين بالضرورة، إذ قد يحاول بعضهم إقناع نفسه بامتلاك قدرات خارقة بسبب بعض التخمينات الصحيحة التي نجحوا في إعطائها.

يعدّ الطلب علىٰ مثل هذه "الخدمات" مرتفعا للغاية، حيث إنّه حتّىٰ في المجتمعات العلمانيّة الغنيّة، لا يعدّ من الغريب إيجاد وسطاء روحيّين وقرّاء أوراق تاروت وقرّاء كفّ في وسط المدن الكبرىٰ مثل نيويورك ولندن وطوكيو.

ويُعدّ علم الأرقام شكلا آخر من الأشكال المنتشرة في المجتمع اليوم. ويمثّل هذا العلم فكرة وجود علاقة مُلغزة بين رقم معيّن وحدث أو أكثر من الأحداث المتزامنة معه.

يعدّ الخوف من الرقم ١٣ شائعا للغاية في المجتمعات الغربيّة، لدرجة إعطائه اسما هو تريسكا ديكا فوبيا (أو الخوف غير العقلاني من الرقم ١٣). وحتّىٰ الأشخاص الذين يتّصفون بالعقلانيّة في كلّ مسارات حياتهم، قد يتجنّبون السفر علىٰ طائرة في يوم جمعة يقع فيه الرقم ١٣. وتتخطىٰ بعض المدن تسمية "الشارع ١٣" وتقفز بعض المباني بالتسمية من الطابق الثاني عشر إلىٰ الطابق الرابع عشر مباشرة. ومن المثير للاهتمام أنّ الرقم ١٣ نفسه كان يعدّ رقما مقدّسا في مصر القديمة، ويعدّ اليوم رقم حظّ في اليابان.[1]

أمّا في الدول الشرقيّة كالصين واليابان وكوريا الجنوبيّة، يعدّ التيترافوبيا

---

(1) Byron P. Palls, Cultural Portraits: A Synoptic Guide, p. 274.

(الخوف من الرقم ٤) شائعا وذلك ربّما بسبب تشابه النطق بين الرقم **"أربعة"** و**"الموت"**.[1] ولا يعدّ من المستغرب في تلك الدول القفز من الرقم ٣ إلىٰ الرقم ٥ في طوابق المباني. لا يملك الرقم أربعة أيّ معنىٰ استثنائيّ لدىٰ الغربيّين.

يعدّ الرقم سبعة رقم حظّ في الغرب، في حين يحمل مضامين سلبيّة وإيجابيّة علىٰ السواء في الصين.

إذاً من وجهة نظر عقلانيّة، يبيّن لنا كل ذلك عدم امتلاك الأرقام لفأل حسن أو سيّئ بصورة وراثيّة. إذ لو كان الرقم ١٣ يجلب الفأل السيّئ حقّا، لكان ذلك هو الحال بصورة دائمة في كلّ الحضارات وعلىٰ مدار التاريخ. وختاما، يتقاضىٰ أولئك الذين يدّعون كونهم وسطاء روحيّين، وقرّاء أوراق تاروت، وقرّاء كفّ، وعلماء أعداد متمرّسين، مقابلاً ماليّا نظير خدماتهم. ولو سلّمنا جدلا بأنّ كلّ هذه الممارسات تملك رؤىٰ في المستقبل، وبإمكانها التأثير في مجرياته، فلماذا لا تستطيع إذاً توقّع أرقام اليانصيب والتأثير فيها؟

---

(1) Ibid., p. 275.

الخاتمة

لقد قمنا في هذا الفصل بدراسة عدد من أنظمة النّبوءات الأكثر شهرة في التاريخ، علما أنّنا لم نتطرّق إلىٰ النّبوءات التي لم يأت زمانها بعد، حيث لا يمكن عدّها نبوءات خاطئة بالضرورة. وبعبارة أخرىٰ، يجب علينا التمييز بين النّبوءات الخاطئة، التي تعدّ معضلة، والنّبوءات التي لم يحن أوانها بعد، والتي قد تتحقّق وقد لا تتحقّق في يوم من الأيام – فالوقت وحده كفيل بإخبارنا. ولقد غطّينا الكثير من الأفراد، والكتب المقدّسة القديمة، والطرق، والخرافات التي تهيمن علىٰ حياة ملايين الأشخاص، وذلك لاعتقادهم بامتلاك رؤىٰ استثنائيّة، كقدرتهم علىٰ معرفة المستقبل. تعدّ مزاعم قدرة شخص علىٰ معرفة المستقبل وحتّىٰ التأثير في مجرياته، استثنائيّة، والادّعاءات الاستثنائيّة تستدعي وجود قرائن استثنائيّة. ولقد قمنا باستخدام المعايير الآتية للتدقيق في هذه الأنظمة المختلفة للنبوءات:

- **الدقّة**: يجب علىٰ النّبوءة أن توافق الأحداث بشكل دقيق؛

- **الكثرة**: يجب علىٰ النّبوءات أن تكون كثيرة؛

- **الوضوح**: يجب علىٰ النّبوءات ألّا تكون غامضة بطبيعتها؛

- **قابليّة التوقّع**: يجب علىٰ النّبوءات ألّا تكون نتيجة ذهن مُتقد. وبعبارة أخرىٰ، يجب ألّا تكون واضحة لدىٰ أيّ شخص بمقدوره تحليل الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة واستخلاص نتائج مستقبلية.

- **المصداقيّة**: يجب علىٰ الشخص الذي يقوم بالنّبوءات ألّا يكون معروفا بالاحتيال أو بالكذب.

لقد سمحت لنا هذه المعايير بتحليل المزاعم الاستثنائيّة لمختلف أنظمة

النّبوءات بطريقة موضوعيّة ومنهجيّة. ولقد رأينا مدىٰ قصورها عند وضعها تحت الاختبار. وكان الهدف من تمضية كلّ هذا الوقت في النظر في هذه الأنظمة، وضع أساس قياسيّ للتفريق بين الحقّ والباطل. لا يمكن لأيّ شخص أن يأتي بتنبّؤات كثيرة ومفصّلة وصحيحة، ما لم يكن يعرف المستقبل بصدق. ولا بدّ لنا أن ندرك أن فشل المُتنبئين الأكثر شهرة عبر التاريخ، لا يعني عدم وجود أيّ شخص كان بمقدوره معرفة المستقبل. وسنرىٰ في الفصل القادم وجود شخصيّة مميّزة تفوّقت علىٰ كلّ مَن عداها.

الفصل الثاني

محمد ﷺ

الفصل الثاني

محمد ﷺ

ولد محمّد ﷺ في القرن السابع الميلاديّ في مكّة؛ وادّعىٰ لدىٰ بلوغه الأربعين من عمره لقاءه بمَلك من عند الله اسمه جبريل في أثناء تعبّده في إحدىٰ الكهوف. وكان هذا اللقاء فاتحة لعدّة لقاءات جمعته مع المَلك الذي نزل بالوحي المُبشّر بحمل محمّد ﷺ لرسالة، تدعو البشريّة إلىٰ العودة لعبادة الله الواحد الحقّ.

وعلىٰ مدىٰ السنوات الثلاثة والعشرين اللاحقة، نزل الوحي عليه من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام، وشكّل مجموعُه القرآن الكريم، الذي يعدّ أعظم كتاب مقدّس في الإسلام. وأعلن محمّد ﷺ بأنّ القرآن هو كتاب الله الخاتم المُرسل لهداية البشريّة جمعاء. ويعدّ محمّدًا ﷺ أحد أكثر الأشخاص اتّباعا في التاريخ، حيث تشير الإحصائيّات إلىٰ أنّ واحدا من بين أربعة أشخاص من مختلف الأعراق واللغات في العالم يدين بالإسلام.

وفيما يتعلّق بالأمور الغيبيّة، يرشدنا الإسلام بأنّ الله وحده يعلم الغيب، وهو الذي يحدّد المقدار الذي يظهره لرسله: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٧].

ويؤكّد القرآن بأنّ محمّدًا ﷺ موحىٰ إليه من ربّه، وبأنّه يملك رؤىٰ مستقبليّة: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا**﴾ [هود: ٤٩]. وسنقوم في هذا الفصل، بوضع هذه المزاعم تحت المجهر؛ فإن كان محمّد ﷺ يعلم الغيب فعلا عن طريق الوحي، فلا بدّ لنا من إيجاد قرائن تدلّ علىٰ ذلك في تعاليمه.

نبوءاته ﷺ

علىٰ مدىٰ السنوات الثلاثة والعشرين من نبوّته، أتىٰ محمّد ﷺ بعدّة نبوءات ستتجلّىٰ في المستقبل، وتتناول أحداثا مختلفة، في أوقات وأزمان متفرّقة.

١ . نبوءة البدو العرب:

في النّبوءة الآتية، سُئل محمّد ﷺ عن علامات "الساعة"، فأشار إلىٰ أنّ فئة معيّنة من الناس ستتنافس فيما بينها علىٰ تشييد المباني الشاهقة:

قال [الرجل]: "**فمتىٰ الساعة؟**"

قال ﷺ: "**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.**"

قال [الرجل]: "**فما أمارتها؟**"

قال ﷺ: "**أن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.**" (١)

ولنلاحظ هنا المواصفات الدقيقة التي زوّدنا بها محمّد ﷺ، وهي ذكر الحفاة ورعاء الشاء العراة. عندما سُئل ﷺ عن هويّة هؤلاء الناس، أجاب محدّدا العرب:

"[...] **قال: يا رسولَ اللهِ ومن أصحابُ الشاءِ والحُفاةُ الجِياعُ العالةُ قال ﷺ: العَرَبُ**". (٢)

ويمكننا أن نرىٰ هنا بأنّ محمّدا ﷺ تنبّأ بأنّ فئة محدّدة من العرب، الحفاة ورعاء الشاء العراة، سيتنافسون في يوم من الأيّام علىٰ التطاول بالبنيان.

(١) ذكره ابن ماجه في السنن. حديث # ٦٣.

(٢) رواه أحمد في المسند. حديث # ٢٩٢٤.

في الواقع، يعود التوصيف المُفصّل إلىٰ فئة معيّنة من العرب وهم البدو. فهناك فئتان من العرب منذ آلاف السنين: سكّان الحضر والبدو. تشكّل الفئة الأولىٰ غالبيّة العرب، ويقطنون في المدن القديمة كدمشق والقاهرة وبغداد. في المقابل، يعدّ البدو من أهل البادية الرُّحّل الذين يرتحلون في الصحراء الواسعة بصورة مستمرّة. وحتّىٰ في فترة العصر الذهبيّ للإسلام الذي كان فيه المسلمون الأغنىٰ والأكثر علما في الأرض، بقي البدو علىٰ حالهم الذي كانوا عليه منذ آلاف السنين، فقراء وأمّيّون ومنقطعون عن سائر أرجاء العالم. وفي عام ١٩٤٠م، كان المكتشف البريطانيّ السير ويلفرد ذاسايغر Sir Wilfred Thesiger يسافر في الصحاري التي يسكنها البدو موثّقا أحوالهم حيث قال:

وبينما أنا أستمع، فكّرت مرّة أخرىٰ بالخطر الداهم الذي كان يُحدِّق بوجود البدو. لقد عرّضهم أسلوب حياتهم للموت؛ بشكل خارج عن إرادتهم في أغلب الأحيان. لم يستطيعوا العمل للغد حيث كان كلّ شيء بالنسبة لهم معتمدا علىٰ صدفة هطول المطر؛ كما تركهم تعرّضهم للغارات أو الأمراض أو مئات الأمور الأخرىٰ التي قد تحدث علىٰ حين غرّة، في احتمال وقوعهم في أيّ لحظة بحالة عوز وضيق تنهي حياتهم. لقد فعلوا كلّ ما في وسعهم، ولن يضاهيهم أحد من جهة اعتمادهم علىٰ أنفسهم، ولكن إذا سلكت الأمور مسارا سيّئا، فإنّهم يرضون بقدرهم بثبات علىٰ أنّه إرادة الله.[1]

لقد فهم الكثير من علماء الإسلام المتقدّمين وشرّاح الحديث هذه النّبوءة علىٰ أنّها إشارة إلىٰ البدو العرب الذين كانوا يُعرفون باسم **"أهل البادية"**.

وقال الفقيه المحدّث الإمام النوويّ (١٢٣٣م – ١٢٧٧م) في معرض شرحه لهذه النّبوءة الآتي:

---

(1) Sir Wilfred Thesiger, Arabian Sands.

إنّ أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة، تُبسَط لهم الدنيا حتىٰ يتباهون في البنيان.[1]

وقال القرطبيّ (١٢١٤م – ١٢٧٣م) العالم الجليل:

المقصود الإخبار عن تبدّل الحال، بأن يستولي أهل البادية علىٰ الأمر، ويتملّكوا البلاد بالقهر، فتكثر أموالهم، وتنصرف هممهم إلىٰ تشييد البنيان والتفاخر به.[2]

أمّا الحافظ ابن حجر (١٣٧٢م – ١٤٤٩م) فقال عن هذه النّبوءة: **"والمعنىٰ أنّهم أهل البادية".**[3]

ونرىٰ هنا اتّفاق العلماء المسلمين المتقدّمين والشراح، الذين دوّنوا كتاباتهم منذ مئات القرون، في تحديد المقصود في ذلك الحديث بالبدو العرب. يُظهر ذلك مدىٰ دقّة محمّد ﷺ في وصف هؤلاء القوم. ونجد اليوم في شبه الجزيرة العربيّة البدو الذين كانوا فقراء يرعون الشاء والإبل حتّىٰ منتصف القرن العشرين، يتنافسون فيما بينهم لبناء أطول ناطحات السحاب، كما أخبر محمّد ﷺ. ولكن كيف حدث هذا التغيّر بين ليلة وضحاها؟ وكيف أصبحت إحدىٰ أفقر الشعوب علىٰ وجه الأرض، التي كانت ترتدي الأهدام، إحدىٰ أغنىٰ الأمم في العالم؟ لقد ساعد أمر واحد علىٰ جعل هذا التغيّر السريع ممكنا، أمر يدور حوله العالم الحديث أكثر من أيّ أمر آخر علىٰ الأغلب، وهو اكتشاف الذهب الأسود، النفط، الذي كان باطن صحارىٰ البدويين المقفرة ينعم به بوفرة. وهكذا انتقل البدو من ركوب الجمال إلىٰ ركوب سيّارات الكاديلاك في خلال عقد من الزمن.

---

(1) Muhammad Hisham Kabbani, The Approach of Armageddon? An Islamic Perspective, p. 90.

(٢) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد. أركان الإسلام. حديث # ١٤/١.

(3) Muhammad Hisham Kabbani, The Approach of Armageddon? An Islamic Perspective, p. 90.

تتمركز اليوم أعلىٰ ناطحات السحاب في العالم في شبه الجزيرة العربية، لا سيّما في المناطق التي كان يسكنها البدو. لقد كانت أبراج الساعة في مكة أعلىٰ بناء في العالم في عام ٢٠١٢م حيث بلغ طولها ٦٠١ مترا، ولقد شُيّد هذا البناء الضخم في الصحراء التي ولد بها النبي ﷺ. وبعد مرور سنتين علىٰ تشييده، تم بناء برج خليفة في مدينة دبي بارتفاع وصل إلىٰ ٨٢٨ مترا. وبعد ذلك بفترة وجيزة، أعلنت عائلة سعودية مزاحمة عزمها بناء برج أكثر ارتفاعا (١٠٠٠ متر) أطلقت عليه اسم برج المملكة. يتنافس البدو العرب اليوم حرفيّا فيما بينهم علىٰ النجاح في تشييد أعلىٰ بناء علىٰ صعيد العالم.

ما الذي دفع بمحمّد ﷺ للقيام بهكذا نبوءة؟ لو كان يهدف إلىٰ اختلاق نبوءة ما، لكان من الأجدىٰ ربط تلك النّبوءة بالقوىٰ الكبرىٰ التي كانت في زمانه، كروما أو فارس أو حتّىٰ الصين التي كانت (علىٰ خلاف العرب) تميل إلىٰ تشييد المباني الفارهة والقصور. لقد بنت الإمبراطوريّة الرومانيّة علىٰ سبيل المثال كنيسة آيا صوفيا في عام ٥٣٧م، قبل قرن من مجيء محمّد ﷺ، وبقيت أكبر كنيسة في العالم لقرابة ألف عام. بالإضافة إلىٰ ذلك، نجد أنّ التفاصيل الدقيقة التي أعطاها محمّد ﷺ في هذه النّبوءة تكشف النقاب عن الكثير من الأمور.

حيث يأتي الأدعياء الذين يدّعون النبوة زورا بنبوءات عامّة وغامضة عادة، بحيث يمكن نسبها لوقائع مختلفة. فكلّما كانت النّبوءة أكثر شمولا وغموضا، زادت فرصة حصول حدث ما في المستقبل يحمل أوجه تشابه كافية لجعل النّبوءة تبدو كما لو أنّها توقّع دقيق. كان باستطاعة محمّد ﷺ قول **"ستشهدون تشييد المباني المرتفعة"** إذ إنّ مثل هذا التنبّؤ يستخدِم توصيفا عامّا للغاية، يجعله مرنا علىٰ نحو يسمح بنسبته لأيّ مكان في العالم؛ إلّا أنّ النّبوءة التي جاء بها محمّد ﷺ تزخر بالكثير من التفاصيل المُحدّدة. هذا وقام بتحديد طبيعة البُناة البدو العرب من خلال

إعطاء علامات فارقة عن مظهرهم الخارجيّ "الحفاة، العراة" وأسلوب حياتهم "رعاء الشاء".

نستطيع أن نلاحظ اشتمال هذه النّبوءة علىٰ عدّة مغايرات، كلّ واحدة منها غاية في التفصيل، وضرورة تحقّقها بطريقة محدّدة جدًّا، بشكل يحدّ من الاحتمالات المُمكنة لكيفيّة وقوع الحدث.

لقد شقّت ناطحات السحاب طريقها إلىٰ مكة، المدينة التي ولد فيها محمّد ﷺ كما شهدت في العقود الأخيرة طفرة كبيرة في عمليّات البناء، مكّنت أبراج الساعة في مكة من احتلال المرتبة الثالثة عالميّا من حيث ارتفاعها. ولم يكن لهذه المباني الضخمة أن تحفر أسسها علىٰ أرض الواقع، لو لم يتمّ نسف الكثير من جبال مكة لتأمين المساحة اللازمة لها؛ وهو أمر تنبّأ به أيضا محمّد ﷺ؛ حيث أخبر عن زوال الجبال في يوم من الأيّام: "**لا تقوم الساعة حتىٰ تزول الجبال عن أماكنها**".[1]

لم يتحقّق هذا الإنجاز الكبير المتمثّل في إمكانيّة نسف الجبال إلّا في القرن العشرين، وذلك نتيجة التقدّم التقنيّ الذي تجلّت إحدىٰ مظاهره في اكتشاف المتفجّرات. وبفضل التقدّم التقنيّ الحديث، أصبح بالإمكان تفجير الجبال وتحويلها إلىٰ حجارة بغية تأمين المساحة الضروريّة لبناء البنىٰ التحتيّة، كالأبنية والطرق السريعة.

ولا بدّ هنا من التنويه، إلىٰ عدم رغبة محمّد ﷺ في انخراط المسلمين في محاولة زيادة ثرواتهم بصورة مبالغ فيها. ولقد حذّر من مخاطرها وكيفيّة إفسادها لأمّته. ولم يستسغ أو يشجّع علىٰ بناء الأبنية الضخمة. لقد كان رجلا بسيطا يعيش في بيت متواضع، وأراد لباقي المسلمين المحافظة علىٰ تلك البساطة. هذا ما كانت

---

(١) رواه الطبراني في التاريخ الكبير. حديث # ٦٨٥٧.

عليه تعاليمه وهكذا كانت حياته. لذا، لو أراد لهذه النّبوءة أن تبصر النور فعلا، لقام بحثّ العرب علىٰ تشييد المباني المرتفعة، ولربّما كان السبّاق لفعل ذلك! وفي الواقع، نرىٰ بأنّ القرآن الكريم يذمّ مثل هذا السلوك: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩].

٢. غَلبة الروم علىٰ الفرس

كانت الإمبراطوريّة البيزنطيّة [الرومية] والإمبراطوريّة الفارسيّة قوّتين عظيمتين ورئيستين في القرن السابع الميلاديّ. وراقب العالم بأسره الحرب الضروس التي نشبت بينهما في عام ٦٠٢م، والإرباك الذي سبّبته آلة الحرب الفارسيّة منذ بداية المواجهات للبيزنطيّين الذين كانوا يعانون من ثورة داخليّة زعزعت صفوفهم. وبعد سلسلة من الهزائم النكراء، فقد البيزنطيّون القدرة علىٰ وقف الهجمات الفارسيّة؛ ثم وقع ما لم يكن في الحسبان، حيث سقطت مدينة القدس، التي كانت تعدّ قلب المسيحيّة آنذاك، ودنّسها الفرس الذين عمدوا في الوقت نفسه إلىٰ سرقة الصليب الحقيقيّ، وهو بقايا ما كان يعتقد أنّه الصليب الذي وضع عليه المسيح عليه السلام، وأخذه إلىٰ فارس.

شكّلت خسارة القدس ضربة نفسيّة كبيرة للبيزنطيّين لكونهم مسيحيّين. ولم تكن الحرب بين الإمبراطوريّتين صراعا تحرّكه السياسة أو المصالح الاقتصاديّة وحسب، وإنّما انضوىٰ علىٰ عامل دينيّ أيضا، إذ كان العالم في ذلك الوقت ساحة صراع بين المسيحيّة والزرادشتيّة.

سُرّ مشركو الجزيرة العربيّة بهزيمة البيزنطيّين المسيحيّين علىٰ يد الفرس، وانتهزوها فرصة للاستهزاء بالمسلمين.

وتحدّث ابن عباس رضي الله عنه، أحد صحابة النبيّ ﷺ في هذه المسألة قائلا:

"كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَىٰ الرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَىٰ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ".[١]

ونزلت علىٰ محمّد ﷺ آيات عظيمات تبيّن مآل هذه الهزائم:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَىٰ الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾. [الروم: ٢ - ٤]

تنبّأ القرآن الكريم بحصول تحوّل جذريّ في مسار الأحداث في خلال تسع سنوات مع انتصار البيزنطيّين علىٰ الفرس. نزلت هذه الآية في سنة ٦١٥م في وقت أنهىٰ فيه الفرس غزوهم لسوريا.[٢]

لقد كان التنبّؤ بانتصار البيزنطيّين مُخالفا لكلّ التحليلات السياسيّة آنذاك، لأنّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، كانت تعاني من هزائم ساحقة شارفت بها علىٰ السقوط. وأشار المؤرّخ إدوارد غيبون Edward Gibbon إلىٰ أرجحيّة عدم تحقق هذه النّبوءة قائلا:

تابع محمّد بفرح كامن تطوّرات إجهاز الإمبراطوريّتين بعضهما علىٰ بعض، لأنّه كان يعيش في ذلك الوقت علىٰ هامش إمبراطوريتي الشرق العظيمتين؛ وفي خضمّ الانتصارات الفارسيّة، غامر بالتنبّؤ برفرفة رايات الروم بالنصر مرّة أخرىٰ بعد مضيّ بضع سنوات. كانت جميع المؤشّرات تدلّ علىٰ استحالة تحقّق تلك النّبوءة في تلك الفترة التي نزلت فيها، لأنّ السنوات الإثني عشرة الأولىٰ من حكم هرقل، كانت تؤذن باقتراب زوال الإمبراطوريّة.[٣]

---

(١) تفسير ابن كثير. الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠. ص: ١٠١٩.

(2) Abul A'la Mawdudi, Towards Understanding the Quran, p. 65.

(3) Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Volume 5, pp. 73-74.

بعد نزول الوحي على محمّد ﷺ مبشّرا بانتصار البيزنطيّين، كان التخبّط في تلك الإمبراطوريّة لا يزال سيّد الموقف. وارتأىٰ الإمبراطور البيزنطيّ هرقل في مرحلة ما، نقل حكومته التي كان مقرّها القسطنطينيّة إلىٰ قرطاج في أفريقيا.[1]

إلّا أن الحملات الفارسيّة تابعت هجماتها وألحقت الهزيمة بالبيزنطيّين في مصر واستولت علىٰ الإقليم. وصاحَب استسلام الأراضي البيزنطيّة خسارة الكثير من عائدات الضرائب التي كانوا بأمسّ الحاجة إليها، وما زاد الطين بلّة، تفشّي الطاعون في عام ٦١٩م الذي ترتّب عنه مزيد من التراجع في تلك العائدات.

وبعد غزو مصر، أرسل الإمبراطور الفارسيّ كسرىٰ رسالة إلىٰ هرقل يقول له فيها:

من كسرىٰ أعظم الآلهة وسيّد الأرض، إلىٰ عبده الوضيع والساذج هرقل. حتّىٰ متىٰ ترفض النزول عند حُكمي وتدّعي المُلك؟ ألم أقضِ علىٰ الإغريق؟ تقول أنك تؤمن بإلهك، لماذا إذًا لم يخلّص قيصريّة، والقدس، والإسكندريّة من قبضتي؟ هل تظنّ بأنّ القسطنطينيّة ستفلت من بين يدي؟ لكنّي سأتجاوز عن زلّاتك، إذا خضعت لي وقدِمت إليّ مع زوجتك وأبنائك، وسأمنحك أراضيَ، وكرومًا وبساتين زيتون، وسأنظر إليك بعين العطف. لا تخدع نفسك بآمال زائفة بذلك المسيح، الذي لم يستطع حماية نفسه من اليهود الذين قتلوه علىٰ الصليب. ولو التجأت إلىٰ قاع البحر، فإن يدِي ستطالك وستجلبك، سواء شئت أم أبيت.[2]

وتفاقم وضع البيزنطيّين سوءًا بحسب المؤرّخ الأرميني سيبيوس Sebeos من القرن السابع الميلادي، لدرجة دفعت بهرقل إلىٰ الموافقة علىٰ التنحّي وسوقه كعبد

(1) Walter Emil Kaegi, Heraclius: Emperor of Byzantium, p. 88.

(2) Norman Davies, Europe: a history, p. 245.

للإمبراطور الفارسيّ، وذلك بعدما وصل الفرس إلىٰ مدينة شالسدون الواقعة بالقرب من القسطنطينيّة التي كانت قلب الإمبراطوريّة البيزنطيّة.[1]

وعلىٰ الرغم من ابتعاد تلك الإمبراطوريّة كلّ البعد عن النصر في ذلك الوقت، إلّا أنّها تمكّنت في عام ٦٢٢م، أي بعد سبع سنوات من نزول النّبوءة القرآنيّة، من شنّ هجوم معاكس، حين نصب الفرس كمينا في مدينة كابادوكيا في تركيا اليوم. لكنّ السحر انقلب علىٰ الساحر عندما تنبّه هرقل لذلك الكمين، ونجح باستدراجهم إلىٰ فخّ أجهز به عليهم. كشف هذا التحوّل المفاجئ في الأحداث ظهر الفرس، وسمح للبيزنطيّين بشنّ سلسلة من الهجمات التي أعادت إليهم ماء وجههم وأراضيهم. وفي عام ٦٢٤م، وبعد مرور تسع سنوات علىٰ النّبوءة القرآنيّة، نجح البيزنطيّون في الثأر للقدس، حيث قاموا باجتياح عقر دار الفرس وسحق جيشهم وهدم معبد النار الشهير تختي سليمان.

وكما شكّل تدنيس القدس وسرقة الصليب الحقيقيّ صدمة نفسيّة لدىٰ المسيحيّين، كذا أثار تدمير معبد النار موجات من الصدمة في أرجاء فارس. وعبّر ثيوفانوس المؤرّخ البيزنطيّ من القرن التاسع الميلادي عن دهشته من انقلاب دفّة الموازين:

استولىٰ الروم علىٰ معسكرهم (أي الفرس) وعلىٰ كامل العتاد، ورفع القوم أكفّهم إلىٰ السماء شكرا لله؛ وتضرّعوا بالصلاة للإمبراطور الذي أحسن قيادتهم؛ إذ لم يكن يخطر ببالهم مجرّد خاطر احتمال تقهقر الفرس، وها هم الآن يسلبون خيمهم؛ فمَن ذا الذي كان يتوقّع تولية العِرق الفارسي الجبّار دبره أمام الروم.[2]

---

(1) Parvaneh Pourshariati, Decline and fall of the Sasanian empire: the Sasanian-Parthian confederacy and the Arab conquest of Iran, p. 141.

(2) Theophanes, p. 15.

لقد تحققّت النّبوءة ضمن الفترة الزمنيّة التي أخبر بها القرآن بالضبط. كان يمكن لهذه النّبوءة أن تحطّ رحالها بشكل خاطئ بأكثر من طريقة لو أنّ محمّدا ﷺ كان يعطي مجرّد تخمينات.

فلو أنّ البيزنطيّين بدؤوا هجومهم المعاكس في سنة ٦٢٥م بدلا من ٦٢٢م علىٰ سبيل المثال، لما كانت النّبوءة لتصبّ في الإطار الزمنيّ المحدّد لها بين ٣ و٩ سنوات. لو كان محمّد ﷺ يخمّن، لقال بانتصار الفرس، لأنّ ذلك ما كانت تدلّ عليه المعطيات في ذلك الوقت. لماذا يخاطر بسمعة القرآن عبر الزعم بخوض البيزنطيّين لمعركة ينتصرون بها علىٰ عدوّهم في هكذا فترة زمنيّة وجيزة؟

٣. سقوط روما وفارس

لقد كانت معركة الخندق أحد أعظم المحن التي ألمّت بالنبيّ ﷺ. ففي عام ٦٢٧م تحالفت قبائل العرب الوثنيّة، وجهّزت جيشا قوامه ١٠.٠٠٠ مقاتل[1] للانقضاض علىٰ المدينة المنوّرة التي كانت المدينةَ الإسلاميّة الوحيدة في العالم آنذاك. وأعطت تلك المعركة فرصة لا تعوّض لأعداء الإسلام لاجتثاث المسلمين من علىٰ وجه الأرض. بلغ قوام جيش المسلمين ثلث عداد جيش المشركين، وظلّ تحت الحصار أسبوعين كاملين. وتصف سورة الأحزاب الموقف العصيب الذي واجهه المسلمون في ذلك الوقت:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾. [الأحزاب: ١٠]

بعد بدء المعركة بفترة قصيرة، أعدّ المسلمون العدّة لمواجهة الهجوم المرتقب

(1) Ali al-Sallabi, Noble Life of The Prophet, p. 1358.

بحفر خندق حول المدينة، حيث عانوا فيه ما عانوه من الصعاب الجمّة، وبينما كانت أبصارهم تشخص الهزيمة المحتّمة، أخبرهم محمّد ﷺ بتنبّؤ عظيم:

قال البراء: لمّا كان يوم الخندق، عَرَضَت لنا في بعض الخندق صخرةٌ لا تأخذ منها المَعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله - صلّىٰ الله عليه وسلم - فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله، ثمّ ضرب ضربة، وقال الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إنّي لأنظر قصورها الحُمرَ الساعة، ثمّ ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر! أُعطيت فارس، والله إنّي لأُبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني.[1]

لم يكتف محمّد ﷺ بذلك الزعم العظيم بالقول بسيطرة المسلمين علىٰ اليمن وسوريا اللتين كانتا تخضعان للحكم الروميّ، بل وبهزيمة إمبراطوريّة فارس العظمىٰ التي كانت من أكبر قوىٰ العالم. وفي نبوءة أخرىٰ، حدّد محمّد ﷺ اسم الملك الفارسيّ الذي سيمنىٰ بالهزيمة وهو الملك كسرىٰ:

قال النبيّ ﷺ: **"والله ليتمّنّ هذا الأمر حتّىٰ ترينّ الظعينة -أي المرأة- ترتحل من الحيرة حتّىٰ تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلّا الله. ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرىٰ".**

فقال عدي بن حاتم (متعجّبا): **"كسرىٰ بن هرمز؟"**

فأجابه النبيﷺ: **"كسرىٰ بن هرمز."** [2]

ولنلاحظ هنا ردّة فعل عديّ بن حاتم أحد صحابة النبيّ ﷺ الذي بدا متعجّبا

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى. حديث # ٨٨٥٨.

(٢) رواه أحمدَ في المسند. حديث # ١٨٢٦٠.

من تنبّؤه بغزو بلاد فارس، حيث إنّ هذا التصريح منه جاء في وقت لم يكن يتخيّل فيه أحد وصول دولة إسلاميّة صغيرة ومُحاصرة من جهة المشركين العرب، إلىٰ مثل هذه السطوة والقوّة. ومن الأهمّيّة بمكان، تقدير مدىٰ الاتّساع والقوّة اللذين كانت تتمتع بهما إمبراطوريّتا روما وفارس في ذلك الوقت. امتدّت الإمبراطوريّة الروميّة من أوروبا إلىٰ شمال أفريقيا؛ كما كانت إمبراطوريّة الفرس مترامية الأطراف، مع عاصمتها طيسفون التي كانت أحد أكبر المدن في العالم. في المقابل، كان حجم قوّة المسلمين متقزّما من حيث العدد والأراضي علىٰ حدّ سواء، بالإضافة إلىٰ الافتقار للخبرة في إدارة شؤون الحرب، وللأسلحة المتطوّرة والتخطيط العسكريّ اللذين كان يتمتّع بهما خصومهم. وتشير أستاذة التاريخ الإسلاميّ كارول هيلينبراند Carole Hillenbrand إلىٰ التفوّق الفارسيّ علىٰ المسلمين:

لقد أريق الكثير من الحبر علىٰ ظاهرة الغزو الإسلاميّ، إلّا أنّ الاستنتاجات الثابتة التي يمكن التوصّل إليها تبقىٰ طفيفة. لم يكن تفوّق العرب عسكريّا علىٰ خصومهم أمرا مُرجّحا، إذ لم يكن بحوزتهم أسلحة سحريّة أو تقنيّات جديدة بكلّ تأكيد. وافتقروا بلا أدنىٰ شكّ إلىٰ الخبرة في بعض الميادين العسكريّة؛ وأخذوا أسس حروب الحصار، علىٰ سبيل المثال، عن الفرس. كما لم يكونوا علىٰ دراية بأساليب القتال البحريّة.(1)

غير أنّه في غضون عقد من وفاة محمّد ﷺ، تحقّقت كلّ هذه الأمور، وشهد عليها صحابة النبيّ ﷺ الذين سمعوه يُحدّث بها. والمدهش في الأمر هو أنّه بعد وفاة محمّد ﷺ، هاجم المسلمون كلتا القوّتين العسكريّتين الضخمتين بصورة متزامنة. وعلىٰ الرغم من العداوة اللدودة بين الروم والفرس، ومن التناحر فيما بينهما علىٰ

(1) Carole Hillenbrand, Muhammad and the rise of Islam, The New Cambridge Medieval History, vol 1, p. 340.

ضمّ الأراضي طوال قرن من الزمن قبل محمّد ﷺ، إلّا أنّهما ونتيجة لخسارتهما أمام المسلمين، قاما بتوحيد صفوفهما للقتال جنبا إلىٰ جنب ضد جيش المسلمين في معركة فاصلة وقعت في فراض في إيران اليوم؛ حارب فيها مئة ألف روميّ وفارسيّ وعربيّ مسيحيّ ضدّ قوّةٍ أقلّ خبرة وعتادا، قوامها عشرون ألف مسلم.(١) هزم المسلمون هذا التحالف، وتابعوا مسيرهم لغزو سوريا، وفارس، واليمن كما أخبر محمّد ﷺ تماما.

ما حظوظ المسلمين، الذين كانوا يفتقرون إلىٰ القوّة الاقتصاديّة، والعسكريّة، والسياسيّة، في الإطاحة بقوّتَي العالم الكبيرتين في تلك الفترة الوجيزة؟ لقد كانت الحظوظ معدومة، إذ إنّ الأمر أشبه بزعم شخص في يومنا وزماننا هذا، بقيام دولة صغيرة لا يتجاوز عدد سكّانها بضعة عشر ألف نسمة مع قوّة عسكريّة واقتصاديّة متواضعة، بالإطاحة بالقوىٰ الكبرىٰ اليوم كالولايات المتّحدة الأميركيّة وروسيا. لقد أثارت الطريقة المذهلة التي تمكّن فيها المسلمون من هزيمة القوىٰ الكبرىٰ دهشة العالم، كما يشرح المؤرّخ برنابي روجيرسون Barnaby Rogerson:

علينا أن نتذكّر بأنّ القوّتين الكبيرتين العظيمتين، الإمبراطوريّة البيزنطيّة [إمبراطوريّة روما الشرقيّة] والساسنيّة الفارسيّة، كانتا قوّتين مهيمنتين. وإذا أردنا إسقاط المشهد علىٰ ساحة العالم الحديث، لشبّهناه علىٰ وجه التقريب بقضاء الأسكيمو علىٰ الولايات المتّحدة الأميركيّة وروسيا.(٢)

لا يمكن لأيّ عاقل القول بمثل هذا الاحتمال، ولو كان محمّد ﷺ يخمّن، لكان عندئذ يخاطر بمكانته كنبيّ بالمقامرة بتحقّق هكذا تنبّؤ مُستبعد. ويكرّر هذا

(1) R. G Grant, 1001 Battles That Changed the Course of History, p. 108.
(2) Al Jazeera documentary, "The Caliph", Part 1. Accessed March 19th 2018: https://youtu.be/P3O9d7PsI48

الشعور المؤرّخون العاجزون عن تفسير الأسباب التي جعلت الإسلام قوّة مهيمنة بهذه السرعة. وكتب آندرو لوث Andrew Louth، أستاذ الدراسات البيزنطيّة، قائلا: "**تبقىٰ السرعة التي استسلمت فيها أقاليم الإمبراطوريّة البيزنطيّة الشرقيّة للمسلمين، رهينة تفسيرات المؤرّخين**".(١)

٤. انتشار الفاحشة

كشف محمّد ﷺ عن قدوم اليوم الذي ستصبح فيه الفاحشة أمرا عاديّا يمارس أمام الملأ: "**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّىٰ يتسافدَ النَّاسُ في الطُّرقِ تسافدَ الحميرِ**".(٢) نعيش اليوم في زمن تعمّه المشاهد الجنسيّة الصريحة علىٰ شاشات التلفاز، وفي الأفلام، والإعلانات. ومع اختراع الإنترنت، أصبحت الإباحيّة في متناول اليد في أيّ وقت ومكان. وفي الواقع، يُعتقل أشخاص بتهم ممارسة الجنس في الأماكن العامّة. والمدهش في الأمر هو أنّنا رأينا محمّدا ﷺ يتنبّأ في وقت سابق بتوسّع رقعة الإسلام لتشمل كلّ حدب وصوب، لذا يعدّ هذا الفساد الجنسيّ مخالفا لما يمكن للمرء أن يتوقّعه، وذلك لما يولي الإسلام العفّة من أهمّيّة بالغة. يأمر الإسلام علىٰ سبيل المثال المرأة والرجل بغضّ البصر، لتحصينهما من مغبّة اتّباع الشهوات والوقوع في المحرّمات. يعدّ واقع اليوم، في ظلّ انتشار الإسلام وتفشّي الاضمحلال الأخلاقيّ، متناقضا في الحقيقة؛ لذا لا تعدّ تلك النّبوءة الأكثر منطقيّة إذا ما فكّرنا فيها مليّا.

وينبغي تسليط الضوء علىٰ حقيقة كون الفضيلة سمة الناس بصورة عامّة في زمن محمّد ﷺ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، بمن فيهم اليهود والمسيحيّون.

---

(1) Andrew Louth, The Byzantine Empire in the seventh century, The New Cambridge Medieval History, vol 1, p. 298.

(٢) رواه ابن حبّان في الصحيح. حديث # ٦٧٦٧.

ومع اعتناق الإمبراطوريّة الروميّة الوثنيّة للمسيحيّة في القرن الرابع الميلادي، وما تلاه من انتشار المسيحيّة في أرجاء أوروبا، وتعزيز الكنيسة الكاثوليكيّة لمبادئ صارمة من الأخلاقيّات والآداب العامّة، أصبح جزء كبير من الغرب محافظا قبل ولادة محمّد ﷺ. وفي العصور الوسطىٰ، نظّمت الكنيسة الكاثوليكيّة كلّ الأمور المتعلّقة بالجنس بدقّة متناهية. ووصل الأمر بالكثير من رجال الكنيسة النافذين، إلىٰ اعتبار الجنس وغيره من مظاهر اللذّة ضمن إطار الزواج شرّا يجرّ إلىٰ الخطيئة، إلّا إذا تمّت ممارسته بنيّة صادقة للإنجاب.[١]

كما حدث تحوّل كبير في الجزيرة العربيّة في القرن السابع الميلادي، إذ لم يكن الفحش أمرا نادرا في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام؛ ونعلم بقيام العرب الوثنيّين بالطواف حول الكعبة في أثناء الحج عراة بالكامل. ولقد انتهت هذه المظاهر تماما مع قدوم الإسلام الذي حرّم مثل هذه الممارسات. وفي الوقت الذي أصبح فيه الشرق والغرب محافظا علىٰ نطاق واسع نتيجة لانتشار الديانات الإبراهيميّة كالمسيحيّة والإسلام، تعدّ نبوءة محمّد ﷺ بانتشار الفاحشة مخالفة لشعار الفضيلة الذي كان طاغيا علىٰ العالم في زمانه. لم يسبق لحالة العالم الراهنة مثيل، إذ لم يمرّ علىٰ تاريخ البشريّة قاطبة انتشار الفاحشة بهذا المستوىٰ الكبير. لقد أصبح الانحطاط الأخلاقيّ القاعدة كما تنبّأ محمّد ﷺ. ويهمّني هنا أن أورد نقطة علىٰ الهامش، أذكر فيها وصف النبي ﷺ للنتائج المترتّبة عن انتشار الفاحشة حيث قال:

"لم تظهر الفاحشة في قومٍ قطُّ حتّىٰ يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا".[٢] ولقد أدّىٰ ازدياد الفاحشة إلىٰ ظهور أمراض جديدة لم يسمع بها أسلافنا من قبل، مثل مرض نقص المناعة المكتسب

---

(1) James Brundage, Law, Sex, and Christian Society in Medieval Europe, p. 182.

(٢) رواه ابن ماجه في السنن. حديث # ٤٠١٩.

(الإيدز) كما حذّر محمّد ﷺ.

٥. انغماس العالم بالرّبا

أخبر محمّد ﷺ عن هيمنة الربا في يوم من الأيّام، لدرجة سيعجز فيها أولئك الذين يحاولون تجنّبها من الإفلات من براثن تأثيراتها:

قال رسول الله ﷺ **"ليأتينّ علىٰ الناس زمانٌ لا يبقىٰ منهم أحد، إلّا أكل الربا، فمن لم يأكل، أصابه من غباره."** [١]

يصف هذا الحديث بوضوح وضع العالم الاقتصاديّ في هذه الأيّام.

وكما تنبّأ محمّد ﷺ، يستحيل نظريّا في العالم الحديث تجنّب التعامل بالربا، أو التأثّر به علىٰ أقلّ تقدير. ولنفكر فقط بعدد الأشخاص الذين يملكون حسابات مصرفيّة قائمة علىٰ الربا، والذين يشترون حاجيّاتهم باستخدام بطاقات الائتمان المصرفيّة، والذين لا يستطيعون تحمّل أعباء شراء منزل إلّا عن طريق اللجوء إلىٰ قرض قائم علىٰ الربا. ولو نجح أحدهم بتجنّب التعامل بالربا بشكل مباشر، إلّا أنّ كلّ مظهر من مظاهر الحياة اليوم يدور في فلكه. ونرىٰ بأنّ كلّ دولة من دول العالم، بمن فيها الغنيّة، غارقة في الديون القائمة علىٰ الربا. تتصارع الولايات المتحدة الأميركيّة حاليّا مع دين يبلغ تريليونات الدولارات. وتتحكّم المصارف المركزيّة بالقوّة الشرائيّة لأموالنا، كما عانىٰ النظام الماليّ من انهيار عالميّ في سنة ٢٠٠٨م نتيجة الممارسة الواسعة النطاق لعمليّة بيع وشراء الديون الماليّة القائمة علىٰ الربا. لقد كان ذلك بمثابة كارثة أغرقت العالم في محنة اقتصاديّة ستمتدّ آثارها لعقود قادمة.

---

(١) رواه أحمد في المسند. حديث # ١٠١٩١.

ما يجعل تنبّؤ محمّد ﷺ لافتا، هو أنّ الوضع الماليّ العالميّ في السنوات المئة الأخيرة فريد من نوعه تاريخيّا. ففي زمانه ﷺ، كان التمويل قائما علىٰ السلع ذات القيمة الذاتيّة، كالنقود المعدنيّة من ذهب وفضّة. وكان الذهب والفضّة شكلا العملة الأكثر شيوعا في التاريخ. وفي كثير من اللغات، كالفرنسيّة والإسبانيّة، ارتبطت كلمة فضّة مباشرة بكلمة مال؛ وحتىٰ مع ظهور العملة الورقيّة، كان لا يزال الاعتماد علىٰ الفضّة والذهب قائما. وكانت العملة الورقيّة في الأصل مدعومة بالذهب والفضّة، وكان يمكن استبدال كلّ مبلغ ورقيّ يملكه المرء بالذهب من المصرف عند الطلب. وفي عام ١٩٣٣م، ألغت الولايات المتّحدة الأميركيّة نظام استبدال الذهب، مُنهية بذلك النظام الماليّ العالميّ القائم. ولم تعد الأموال الورقيّة التي بحوزة الناس مدعومة بالذهب.

وتحت هذا النظام الماليّ العالميّ الجديد، أصبحت العملة الورقيّة ذات قيمة، فقط لأنّ الحكومات قالت بذلك. وبخلاف الذهب والفضّة، لا تملك الأموال الورقيّة الحديثة أيّ قيمة ذاتيّة. وعليه، نحن اليوم أمام نظام يسمح للمصارف بطباعة ما يحلو لها من العملة الورقيّة، طالما أنّها لم تعد تخضع لقيود تأمين احتياط من الذهب يوازيها.

وبموجب النظام الحاليّ، يُستحضر المال من الفراغ بكلّ ما للكلمة من معنىٰ. وبما أنّ المصارف الآن تستطيع طباعة الأموال عند الطلب، فهذا يعني أنّ بمقدورها تسليف المزيد من المال، الأمر الذي يترتّب عليه خلق المزيد من الديون القائمة علىٰ الربا.

نعيش اليوم في زمن تطغىٰ عليه الفوضىٰ الماليّة، إذ إنّ نظامنا الماليّ بأسره يقوم، وفق الآليّة التي يعمل بها، علىٰ الديون. إذ يجب اقتراض كلّ عملة نقديّة وورقيّة قبل امتلاكها. فمع النظام القديم القائم علىٰ الذهب والفضّة، كان ثمّة نظام

طبيعيّ للمال، حيث إنّ قيمتها كانت ترتفع وتنخفض وفقا للعرض والطلب على المعادن الثمينة. أمّا في ظلّ النظام الجديد، فتستطيع المصارف إصدار الأموال الورقيّة بالكمّيّة التي تريدها، لذا يعدّ هذا الشكل من عرض المال مرنا للغاية. وباختصار، يعدّ التمويل الحديث نظاما قائما على الدين والربا، وهو نظام فريد من نوعه في التاريخ؛ إذ إن استخدام العملة الورقيّة التي لا تتمتّع بقيمة ذاتيّة مع الديون والربا الكبيرين الناتجين عنها، هو ظاهرة للتمويل الحديث وليس أمرا يمكن لمحمّد ﷺ معرفته بسهولة منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة.

ولا أقول هنا بأنّ مفهوم الربا لم يكن موجودا في الجزيرة العربيّة على الإطلاق في القرن السابع الميلادي، لأنّ القرآن يُحرّم بصرامة على المؤمنين التعامل به: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا. وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ. وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ. هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فضلا عن ذلك، كان التعامل بالربا مُحرّما في العالم المسيحيّ أيضا. ولقد منعت الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة رجال الدين من أخذ الربا، ثمّ توسّعت في هذا الحكم في القرن الخامس الميلادي بفرضه على العامّة أيضا. كما أُعلن عن كونه جريمة جنائيّة في القرن الثامن الميلادي.(1) وعليه، لا تعدّ نبوءة محمّد ﷺ بهيمنة الربا على العالم استنتاجا مفروغا منه بأيّ شكل من الأشكال. في الواقع، لا بدّ أن الصحابة وجدوا هذه النّبوءة غريبة، لأنّ محمّدا ﷺ كان قد تنبّأ بظهور الإسلام -الذي يُحرّم الربا- على كلّ الأديان، ووصوله إلى كلّ أصقاع الدنيا من شرقها إلى غربها. وتُظهر حقيقة حِفظ الصحابة لهذه النّبوءة الإيمان المطلق والثقة بكلام نبيّهم، وبتحقّقها مهما بدت حينذاك مُستبعدة بنظرهم.

---

(1) Scott Gustafson, Altar of Wall Street: The Rituals, Myths, Theologies, Sacraments, and Mission of the Religion Known as the Modern Global Economy, p. 136.

٦. شيوع الكتابة وازدياد الجهل

يَعدّ الكثيرون اليوم وفرة الكتب في العصر الحديث من البديهيّات؛ إلّا أنّ غالبيّة الناس في الماضي، لم تحظ بإمساك كتاب واحد بيدها. وتعود إحدىٰ الأسباب الكامنة وراء ذلك إلىٰ غياب التعليم، حيث كان معظم الناس أمّيّين، لذا كان الطلب علىٰ شراء الكتب طفيفا.

أمّا السبب الآخر فهو الندرة، حيث اتّسم إصدار الكتب بالصعوبة وكلفته الباهظة، لضرورة كتابة كلّ نسخة بخطّ اليد. كانت هذه القاعدة في أغلب التاريخ البشريّ، ولم يكن الوضع مختلفا في الجزيرة العربيّة في القرن السابع. لقد ولد محمّد ﷺ في مجتمع تستطيع القلّة القليلة فيه القراءة والكتابة. ويُقدّر عدم تجاوز عدد المتعلّمين في مكّة السبعة عشر شخصا.[1] ومحمّد ﷺ نفسه كان أمّيّا. وكان ثمّة مجتمعات بأسرها لا تملك أيّ كتاب، ولم يُقدِموا علىٰ كتابة أيّ شيء، لأنّ لغتهم كانت منطوقة فقط.

وإزاء هذه الخلفيّة، تنبّأ محمّد ﷺ بشيوع الكتابة بين البشر في يوم من الأيام:

بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ حَتَّىٰ تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَىٰ التِّجَارَةِ، وَقَطْعُ الأَرْحَامِ، وَفُشُوُّ الْقَلَمِ، وَظُهُورُ الشَّهَادَةِ بِالزُّورِ، وَكِتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ.[2]

يزخر توقّع محمّد ﷺ هنا في الواقع بالنّبوءات الدقيقة، حيث تحقّقت عبارة "تسليم الخاصّة" مع ظهور المدن شديدة الاكتظاظ في العصر الحديث، حيث يشيع عدم تواصل الناس مع جيرانهم.[3] وتحقّقت عبارة **"تعين المرأة زوجها علىٰ**

---

(1) M. Azami, Studies in Early Hadith Literature, p. 1.

(٢) رواه أحمد في المسند. حديث # ٣٨٧٠.

(3) See research “Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community” published in 2000 by professor Robert Putnam.

التجارة" مع دخول المرأة معترك الحياة المهنيّة بأعداد كبيرة لا سيّما في الدول الغربيّة.[١] كما تحقّقت عبارة "**قطع الأرحام**" مع انهيار قيم الأسرة التقليديّة التي لطالما شكّلت في السابق نسيج المجتمع.[٢] وتبرز إحدىٰ مظاهر هذا الانهيار في تزايد أعداد كبار السنّ الذين تعمد عائلاتهم إلىٰ وضعهم في دور العجزة. كما تتمثّل في انهيار قيم المجتمع مع ظهور فلسفة التحرّريّة التي اكتسحت معظم العالم 'الحديث'، وهي فلسفة تقوم علىٰ مبدأ الفردانيّة والحقوق الفرديّة علىٰ حساب حقوق المجتمع.

إلّا أنّ ما يهمّنا في هذه الجزئيّة، هو التركيز علىٰ عبارة "**وفشوّ القلم**". تحمل كلمة 'قلم' التي استخدمها محمّد ﷺ المعنىٰ الواسع للكتابة، أو كلّ ما هو مكتوب بشكل عامّ.[٣] تصف هذه النّبوءة حال العالم اليوم علىٰ نحو دقيق، حيث أصبحت القاعدة هي معرفة الناس للكتابة والقراءة ووفرة الكتب والصحف والمجلاّ ت، أمران قد حصلا بفضل التقدّم التكنولوجيّ في القرن الخامس عشر، كالطباعة التي تمّ اختراعها بعد مرور ٨٠٠ عام علىٰ نبوءة محمّد ﷺ.

فللمرّة الأولىٰ في التاريخ، أصبح بالإمكان إصدار الموادّ المكتوبة بأعداد كبيرة. وجَلبت الكفاية المتزايدة لإصدار الكتب انخفاضا في الأسعار أعقبه إقبال متصاعد علىٰ شرائها، حيث أصبحت بأسعار مقبولة للجميع. ولرؤية الأمر من المنظور المناسب، فقد شهد القرن الخامس عشر وحده في أوروبا، طباعة ذات عدد

---

(1) See research "Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community" published in 2000 by professor Robert Putnam.

(2) See research "The family and community life of older people: social networks and social support in three urban areas" published in 2001 by professor Chris Phillipson.

(3) See entry for the Arabic word 'qalam' in the "Dictionary of Modern Written Arabic" by Hans Wehr.

المخطوطات التي تمّ خطّها طوال القرون الأربعة عشر السابقة له مجتمعة.[١] ومع ظهور الإنترنت، تنتشر الكتابة أكثر فأكثر، حيث يستطيع أيّ شخص يملك حاسوبا أو هاتفا ذكيّا، الولوج إلىٰ ملايين الكتب بنقرة واحدة. وتعدّ نبوءة محمّد ﷺ المتعلّقة بانتشار القراءة والكتابة، علىٰ الرغم من أمّيّته، عظيمة للغاية.

ويهمّ هنا الإشارة، إلىٰ أنّ إصدار الكتب، والمعرفة لم يكونا في تزايد مضطرد مع تقدّم الزمن. فمنذ القرن السادس الميلادي، بذلت الكنيسة الكاثوليكيّة جهودا موحّدة لحماية وتوطيد مكانتها في الهيمنة والقوّة، حيث عمدت إلىٰ إغلاق معاهد الفلسفة، وحظر الكتب، وقمعت التفكير العلميّ الذي هدّد نظرتها الدينيّة الخاصّة بالعالم، ومنع العامّة من اقتناء الكتاب المقدّس، وأُحرق الكُتّاب أحياءً لتأليفهم كتابات تعارض المعتقدات الدينيّة للكنيسة الكاثوليكيّة. ودوّن المؤرّخ الإخباريّ اليونانيّ جون ملالاس John Malalas الآتي: "**في خلال حكم ديسيوس Decius [529م]، أصدر الإمبراطور مرسوما وأرسله إلىٰ أثينا، يقضي فيه بمنع تعليم الفلسفة وتفسير القوانين**".[٢] وبالنتيجة، دخلت أوروبا في فترة من السُبات الفكريّ بلغت ١٠٠٠ عام من الزمن. وهكذا "انقطع النور" عن التفكير العقلانيّ، ودخلت أوروبا في عصور الظلام. وبالطبع، عرفت أوروبا طاقات الإبداع والاختراعات في مرحلة لاحقة بعد بزوغ شمس "الثورة العلميّة" في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وبالإضافة إلىٰ تنبّه بانتشار الكتابة، أخبر محمّد ﷺ بعلامة أخرىٰ من علامات آخر الزمان، هي "**نزول الجهل، وكثرة الهرج**".[٣] يشير محمّد ﷺ هنا إلىٰ شيوع

---

(1) See Table 1 in Buringh and Van Zanden, Charting the "Rise of the West": Manuscripts and Printed Books in Europe, A Long-Term Perspective from the Sixth through Eighteenth Centuries.

(2) John Malalas's Chronicle 18.47.

(٣) رواه ابن ماجه في السنن. حديث # ٤٠٥٠.

الجهل وكثرة القتل. ويعدّ القرن العشرين القرن الأكثر دمويّة في التاريخ، بشكل يتخطّىٰ بأشواط الدمار العالميّ الذي طال الحقبات السابقة. وفي الوقت الذي تختلف فيه إحصائيّات الوفيات، فقد بلغت تقديرات أعداد الضحايا الذين قضوا في الحربين العالميّتين الأولىٰ والثانية وحدهما، بين ٥٠ و٨٠ مليون شخصا. كما شهدنا وقوع إبادات جماعية أدّت بكل أسف إلىٰ وفاة عشرات الملايين من الناس. ومع تقدّم الزمن، تستمرّ البشريّة في تطوير أسلحة ذات قدرات أكثر دقّة علىٰ القتل والتدمير. وشهد القرن العشرون تطوير الأسلحة الذرّيّة واستخدامها ضدّ المدنيّين. وتستطيع الأسلحة النوويّة اليوم تدمير مدن بأسرها، مع تخزين الحكومات لقنابل نوويّة تكفي لتدمير كلّ الكرة الأرضيّة مرّة بعد مرّة.

يحدث كلّ ذلك علىٰ الرغم من قدرة البشر علىٰ القراءة والحصول علىٰ العلم والمعرفة أكثر من أيّ وقت مضىٰ. ونحن أمام واقع غريب من تفشّي العلم وطغيان القتل. ويعدّ هذان التوقعان اللذان جاء بهما محمّد ﷺ من غريب المفارقات عند وضعهما جنبا إلىٰ جنب. لو كان محمّد ﷺ يخمّن، لقال بارتفاع معدّل الكتابة وانخفاض معدّل الجهل بفضل تنوّر البشريّة. إلّا أنّه تنبّأ بأمرين متباينين، هما هذه الحالة المتناقضة من انتشار الكتابة وتعاظم فتن كالقتل. ويشير المؤرّخ نيال فيرغوسون Niall Ferguson إلىٰ هذا التعارض الذي يعيشه العصر الحديث بقوله:

لماذا؟ ما الذي جعل القرن العشرين، لا سيّما السنوات الخمسينَ الممتدّة من ١٩٠٤ إلىٰ ١٩٥٤ بهذه الدمويّة؟ قد يبدو العنف المفرط الذي عانت منه هذه الحقبة من عجيب المفارقات؛ ففي النهاية، لقد كانت السنوات المئة التي أعقبت سنة ١٩٠٠ سنوات تطوّر منقطع النظير.[١]

---

(1) Niall Ferguson, The War of the World: History's Age of Hatred, see Introduction.

٧. اخضرار صحاري الجزيرة العربيّة

جاء محمّد ﷺ بتنبّؤ عظيم عن حال بلاد العرب حيث قال: **"لا تقوم الساعة حتّىٰ تعود أرض العرب مروجا وأنهارا"**.[١]

تنبّأت هذه الرواية باخضرار بيئة الجزيرة العربيّة شديدة الجفاف؛ فحتّىٰ عام ١٩٨٦م، كانت المنطقة شبه خالية من أيّ نشاط زراعيّ. إلّا أنّ الوضع تغيّر في العقود الأخيرة، حيث باشرت تلك الصحاري زراعة الحبوب، والفواكه، والخضروات بفضل تقنيّات مثل الريّ المحوريّ؛ وهي عمليّة تقوم بضخ المياه إلىٰ سطح الأرض من احتياطيّ المياه الجوفيّة العميقة، التي يرجع بعضها إلىٰ العصر الجليديّ قبل أكثر من ٢٠.٠٠٠ سنة. توزّع المياه الجوفيّة عن طريق أنابيب ضخمة، وينتج عنها دوائر من التخضير بالريّ. ويتراوح قطر دوائر المحاصيل المرويّة بين بضع مئات من الأمتار إلىٰ ٣ كيلومترات.

ويتوقّع اخضرار الصحراء العربيّة مستقبلا حتّىٰ من دون التدخّل البشريّ. ويشرح كاتب العلوم جايسون دايلي Jason Daley قائلا: **"في الواقع، تفيد الطبيعة الدوريّة للجزيرة الخضراء، بأنّ المنطقة ستعود يوما ما في المستقبل خضراء وغنيّة بالغلاف النباتيّ، علىٰ الرغم من عدم تأكّد الباحثين بصورة دقيقة من زمن حدوث ذلك، وما إذا كان التغيّر المناخيّ سيثبط عمليّة التخضير هذه"**.[٢]

والآن ضع نفسك مكان شخص يعيش في المملكة العربيّة السعوديّة في القرن السابع؛ هذه المنطقة التي تمتلك مساحات شاسعة من الصحاري المكسوّة بالرمال

---

(١) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ١٥٧.

(٢) تاريخ الزيارة ٢٥ تموز/يوليو ٢٠١٨:

https://www.smithsonianmag.com/smart-news/human-artifacts-found-46-ancient-lakes-arabian-desert-180964303/

والحصىٰ، مع معدّلات أمطار تتراوح بين عشرة وعشرين سنتمتراً سنويّا. ولنفهم هذا الوضع، دعونا نقارن ذلك مع المملكة المتّحدة التي تصل معدّلات الأمطار في بعض أجزائها إلىٰ ٤٠٠ سنتمتر سنويّا. هل يمكن لأيّ شخص يعيش في تلك البيئة القاسية، أن يتصوّر إمكانيّة مجيء اليوم الذي تصبح فيه موارد المياه والمحاصيل الزراعيّة متوافرة بكثرة؟ لم يكن من مصلحة محمّد ﷺ القيام بهكذا تنبّؤ صارخ؛ وعلاوة علىٰ هذا، لم تكن المسألة بسيطة، إذ أعطت أعداءه ذريعة للسخرية منه والتشكيك في نبوّته.

ولكنّها كانت معلومة ضروريّة ينبغي إيصالها، لكونها علامة من علامات اقتراب آخر الزمان، ولذا تُعدّ ذات منفعة كبيرة للأجيال التي ستأتي من بعده. لم يَخف محمّد ﷺ من الاستهزاء به، لأنّه لم يكن يتحدّث من عنده؛ ولم يشكّك قطّ في تحقّق النّبوءة، لأنّها مُنزّلة من السماء.

تتجلّىٰ هذه النّبوءة اليوم أمام أعيننا بفضل احتياطيّ المياه القديمة المدفونة في أعماق رمال الصحراء، والتطوّرات الحديثة في تقنيّات الريّ التي لم يكن بمقدور محمّد ﷺ تخيّلها قبل ١٤٠٠ سنة.

كما تخوض هذه النّبوءة في مزاعم حول الماضي القديم، ولنلاحظ هنا الكلمة التي استخدمها محمّد ﷺ هنا:

"... تعود أرض العرب مروجا وأنهارا".

يحمل قوله **"تعود"** في طيّاته إشارة إلىٰ أنّ هذه الصحراء كانت في مرحلة معيّنة من تاريخها مفعمة بالخضرة والحياة، وأنّها ستعود إلىٰ ما كانت عليه.

ويعلم علماء الجيولوجيا اليوم علم اليقين، بأنّ شبه الجزيرة العربيّة كانت غنيّة بالمروج والأنهار في غابر الأزمان. وتميط الاكتشافات الأثريّة الحديثة اللثام عن عدد من الأحافير التي تدعم هذا القول.

وأجاب مايكل بتراغليا Michael Petraglia، أستاذ تطوّر الإنسان وما قبل التاريخ، وزميل باحث كبير، وشريك في إدارة مركز الآثار الآسيويّ والفنون والثقافة في كلّيّة الآثار بجامعة أكسفورد، لدىٰ سؤاله عمّا كشفه فريق البحث بشأن البيئة القديمة في المملكة العربيّة السعوديّة قائلا:

استهللنا عملنا باستخدام تكنولوجيا الاستشعار عن بعد؛ واطّلعنا علىٰ سبيل المثال علىٰ صور الأقمار الاصطناعيّة، واكتشفنا وجود آلاف الأنهار القديمة المتقاطعة في المملكة العربيّة السعوديّة. ونُحصي اليوم وجود ١٠.٠٠٠ بحيرة قديمة. إلّا أنّ الأمر الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة لي، هو ما توصّلنا إلىٰ اكتشافه عن طريق الأحفوريّات، لأنّها تخبرنا شيئا عن الحيوانات التي وَجدت طريقها إلىٰ المملكة في يوم من الأيّام. لدينا أحفوريات لفيلة ضخمة يفوق حجمها حجم الفيل الإفريقيّ. والعجيب أنّ بحوزتنا أحفوريات لفرس النهر. وتطلعك هذه الاكتشافات علىٰ الطبيعة النَديّة التي كانت تتمتّع بها تلك المنطقة، لأنّ فرس النهر لا يستطيع العيش في ظروف مناخيّة جافّة وناضبة، لذا يجب أن تكون الطبيعة خضراء ليستمرّ علىٰ قيد الحياة. وعليه، كان هناك الكثير من البحيرات والأنهار بكلّ تأكيد في كلّ أنحاء الجزيرة العربيّة، بالإضافة إلىٰ وفرة الأعشاب والنباتات لتتغذّىٰ عليها تلك الحيوانات.[1]

وهكذا لم تتنبّأ هذه الرواية باخضرار الجزيرة العربيّة مرّة أخرىٰ في المستقبل وحسب، وإنّما توافقت مع الاكتشافات الأثريّة الحديثة والاستنتاجات التي تمّ التوصّل إليها عن ماضي الجزيرة العربيّة القديم قبل الإسلام. كان يمكن لمحمّد ﷺ أن يكون مخطئا بعدّة أشكال، إذ كان بإمكانه مثلا الزعم بأنّ **"الله سيبارك الجزيرة**

---

(١) تاريخ الزيارة ٢٥ تموز/يوليو ٢٠١٨.

https://www.natureasia.com/en/nmiddleeast/article/10.1038/nmiddleeast.2018.44

العربيّة بالخضرة والأنهار للمرّة الأولىٰ"؛ أو ادّعاء أمر يسهل علىٰ أفهام الناس تقبّله في ذلك الزمان كقوله مثلا: **"ستبقىٰ الجزيرة العربية جدباء قاحلة"**. لا يمكن شرح توقّع محمّد ﷺ القديم حول الماضي والمستقبل بالملاحظة الطبيعيّة، لأنّه لم يكن يمتلك التقنيّات الحديثة التي ساعدت علىٰ اكتشاف جيولوجيا الجزيرة العربيّة الماضية والمستقبليّة.

٨. الانتشار السريع للإسلام وانحطاط المسلمين

يتنبّأ محمّد ﷺ بانتشار الحضارة الإسلاميّة في أرجاء الدنيا قائلا: **"إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا"**.[١]

يتحدّث محمّد ﷺ في هذه النّبوءة عن وصول الإسلام إلىٰ أقاصي الأرض. ويُهمّ هنا فهم السياق الذي جاء فيه هذا التوقّع. لم يكن المسلمون في تلك الفترة محاطين بأعدائهم فقط بمن فيهم قوىٰ العالم العظمىٰ وقبائل العرب المشركة، وإنّما كانوا يعانون من تحدّ داخليّ إضافيّ، يتمثّل في الشقاق نتيجة القبليّة. فقبل الإسلام، لم يكن من النادر دخول قبيلة عربيّة في حرب مع قبيلة أخرىٰ بسبب أتفه النزاعات. وتكرّر الأخذ بالثأر بصورة مستمرّة بين القبائل، واستمرّ في الكثير من الأحيان لأجيال متعاقبة.

يشهد التاريخ علىٰ الانتشار السريع للإسلام في الشرق والغرب، حتّىٰ وصل إلىٰ إسبانيا والصين كما أخبر محمّد ﷺ. وعُدّ هذا الانتشار في ذلك الوقت توسّعا جغرافيّا لم يَرَ له العالم مثيلا علىٰ الإطلاق. وكانت الدولة الإسلاميّة أكبر إمبراطوريّة عرفها العالم، تحقيقا لتوقّع محمّد ﷺ، وإنفاذا لوعد الله الذي أعطاه

---

(١) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٢٨٨٩.

للمسلمين في نصّ القرآن:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا . يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. [النور: ٥٥]

ولوضع الأمور في سياقها، دعونا نقارن حال الإسلام مع حال الديانتين الإبراهيميّتين الأخرىٰ، اليهوديّة والمسيحيّة. تركّزت الديانتان في أيّامهما الأولىٰ في فلسطين والمناطق المحيطة بها بشكل رئيس، مع وجود عدد قليل من الأتباع في مناطق أخرىٰ، إلّا أنّ توسّعهما المبكر، أعاقه وجود الأمم الوثنيّة من حولهما. ونذكر قيام أعداء اليهود بأسر الشعب اليهوديّ بكامله في عدّة حوادث؛ وبقاء المسيحيّة كديانة صغيرة ومضطهدة لمئات السنين، إلىٰ أن تبنّت الإمبراطوريّة الروميّة الوثنيّة المسيحيّةَ دينا للدولة في القرن الرابع بعد الميلاد.

ليس من المستغرب ظهور حضارات جديدة، وفرض هيمنتها لفترة من الزمن، ثم انحسارها أو اندثارها بشكل تامّ. كما لا يندر توحّد القبائل المتشرذمة والمتفرّقة تحت راية قائد ملهم، ثم قيامها بغزو أراض شاسعة.

ويعدّ المغول هنا مثالا صائبا، حيث ظهرت إمبراطوريّتهم بعد الإسلام، وحكمت في ذروة هيمنتها في القرن الثالث عشر أكبر إمبراطوريّة من حيث مساحة الأراضي المتّصلة. إلّا أنّ هذه الإمبراطوريّة سقطت، بخلاف الدولة الإسلاميّة، في خلال قرن واحد فقط.

لقد قمنا بتحليل النّبوءات الدقيقة التي جاء بها محمّد ﷺ بشأن ظهور الإسلام علىٰ القوىٰ العظمىٰ والتوسّع العالميّ. لم يكتف محمّد ﷺ بإخبارنا عن بروز الإسلام المبهر، وإنّما تنبّأ أيضا بانحداره:

"يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ:

"وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟" قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".[1]

نرىٰ هنا تنبّؤ محمّد ﷺ بالظروف المريرة التي ستحيط بالمسلمين. وأخبر عن قدوم يوم تتضخّم فيه أعدادهم، لكنّهم يكونون بحالة من الوهن تجعل الأمم الأخرىٰ تتداعىٰ عليهم. وشُبّهت حالهم بتداعي الأكلة إلىٰ قصعتها، للدلالة علىٰ مدىٰ العجز الذي سيؤولون إليه. وأعاد النبيّ ﷺ أسباب هذا الضعف إلىٰ حبّ الدنيا وكراهية الموت، ما يعني مجيء يوم علىٰ المسلمين يحبّون فيه الحياة المادّيّة، لدرجة يتهاونون فيها في أمور دينهم، ويفرّطون في فرائضه وينسون الآخرة.

تصف هذه النّبوءة بصورة دقيقة، التحوّل الجذريّ في الأحداث التي جرت في العالم الإسلاميّ في القرنين التاسع عشر والعشرين. قبل ذلك، كبرت مساحة الأراضي الإسلاميّة لتصبح من بين الأكثر قوّة في العالم. ومنذ وفاة محمّد ﷺ وحتّىٰ القرن التاسع عشر، امتلك المسلمون إمبراطوريّات واسعة، كانت في مقدّمة الكثير من دول العالم علىٰ مختلف الصعد الاقتصاديّة، والسياسيّة، والعسكريّة، والتربويّة. ثمّ حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين ما لم يكن متوقّعا، حيث سقط معظم العالم الإسلاميّ من إندونيسا في أقصىٰ الشرق إلىٰ المغرب في أقصىٰ الغرب تحت الاحتلال، والاستعمار، وهزم عسكريّا علىٰ يد أمم غير إسلاميّة.

فقامت روسيا بضمّ القوقاز إلىٰ أراضيها؛ وسيطرت فرنسا علىٰ كلّ من الجزائر، والمغرب، وتونس؛ واحتلّت المملكة المتّحدة مصر، وسوريا، والعراق، وفلسطين، والهند المغوليّة؛ كما سيطرت هولندا علىٰ ماليزيا وإندونيسيّا.

---

(١) رواه أبو داود في السنن. حديث # ٤٢٩٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨/٩٧/٢) وآخرون.

ومن بين الدول الإسلاميّة الخمسين الموجودة اليوم، لم يسلم سوىٰ عدد قليل منها من نير الاحتلال، علىٰ الرغم من خضوعها إلىٰ اليوم لحكام استعماريّين. لقد حدث ذلك علىٰ الرغم من أعداد المسلمين الضخمة آنذاك. ففي بدايات القرن العشرين، قدّرت أعداد المسلمين بحوالي ٢٠٠ مليون شخص، يمثلون ١٢.٥٪ من سكان العالم.[1] إلّا أنّ هذه الأعداد الغفيرة لم تستطع منع السقوط؛ وقدِمت الأمم غير الإسلاميّة، كلّ علىٰ حدة، وغزت، وتداعت لأخذ الأراضي الإسلاميّة كما تنبّأ محمّد ﷺ بالحرف.

لو تفكّرنا في هذه النّبوءة، لوجدنا أنّها تخالف الحدس، ولنتذكّر ردّة فعل الصحابيّ عندما سمع محمّدا ﷺ يحدّث بهذا التوقّع حيث قال: **"ومن قلّة نحن يومئذ؟"**. لقد توصّل ذلك الصحابيّ إلىٰ الاستنتاج الطبيعيّ، بأنّ حالة ضعف المسلمين ستكون نتيجة قلّة عددهم، لأنّ كثرة العدد ترتبط نمطيّا بالقوّة.

لو كان هذا التوقّع تخمينا، لكان من الأجدىٰ منطقيّا القول بأنّ أعداد المسلمين القليلة ستكون سبب ضعفهم. لكنّ محمّدا ﷺ توقّع العكس تماما، حالة متعارضة من كثرة عدد المسلمين وشدّة ضعفهم، وهو الأمر الذي وقع فعلا. أمّا الجانب الآخر المثير من هذا التوقّع، فهو العامل النفسيّ الذي تعكسه. في أثناء حياة محمّد ﷺ، لم يكن المسلمون قوّة عظمىٰ عالميّة بعد، كما لم يطيحوا بالقوىٰ العظمىٰ الأخرىٰ كفارس. لو كان محمّد ﷺ كاذبا يسعىٰ لخداع الناس بصدق نبوّته، لما أخبر سوىٰ بالأمور الإيجابيّة عن مسلمي المستقبل مثل: **"لن تقهروا قطّ"** أو **"لن يستطيع أعداؤكم القضاء عليكم"**، إذ ستشجّع هذه الصورة المستقبليّة المشرقة الناس علىٰ الدخول في دينه واتّباعه، فالطبيعة البشريّة تستهوي النجاح.

---

(1) Stanley D. Brunn, The Changing World Religion Map: Sacred Places, Identities, Practices and Politics, p. 1774.

وعليـه، لا يظهـر هـذا القـول الـصريح حـول المـستقبل القـاتم الـذي ينتظـر المسلمين، بأنه كان صادق الكلمة فقط، وإنّما يدلّ كذلك علىٰ نقل صحابته لكـلّ مـا قاله، سواء كان سلبيا أو إيجابيا، محفّزا أو مثبطا.

وفي الختام، لقد رأينا تنبّؤ محمّد ﷺ الدقيق بـصعود الدولـة الإسـلاميّة المهيـب كقـوّة عظمـىٰ مـن جهـة، وبالـسقوط العـسكريّ والـسياسيّ اللاحـق للمـسلمين علىٰ الرغم من كثرة عددهم من جهة أخرىٰ.

ومن الناحية التاريخيّة، عندما تخسر الأديان نفوذها علىٰ المسرح العـالميّ بهـذه الطريقة، فإنّ ذلك يليه عادة انخفاض أعداد أتباعها أو بقائها علىٰ مـا هـي عليـه. هـذا هو المتوقّع، إذ إنّ الطبيعة البشريّة تحبّذ الارتباط بالقوّة؛ لكن محمّدا ﷺ تنبّأ بعكس ذلـك تمامـا، فيمـا يتعلّـق بالـدين الإسـلاميّ، حيـث أخـبر باسـتمرار تزايـد أعـداد المسلمين إلىٰ أن يصل الإسلام في نهاية المطاف إلىٰ كـلّ بيـت: **"يبلـغ هـذا الأمـر مـا بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلّا أدخله الله هذا الدين".**[1] ونرىٰ اليوم هذه النّبوءة بادية أمام أعيننا.

يعدّ الإسـلام الـدين الأسرع انتشارا في العـالم، مع اعتنـاق حـوالي ربـع سـكّان الأرض للإسلام. كما يتوقّع أن يكون الدين الأكبر في العالم بحلول عـام ٢٠٧٠م،[2] علىٰ الرغم من الهجمات المستمرّة التي يتعرّض لهـا في وسـائل الإعـلام، واسـتعمار الأراضي الإسلاميّة، ونشوب الكثير من الحروب التي تعصف بالعالم الإسلاميّ.

---

(١) رواه أحمد في المسند. حديث # ١٦٥٠٩.

(٢) تاريخ الزيارة ٤ آب/أغسطس ٢٠١٨:

http://www.pewresearch.org/fact-tank/2017/04/06/why-muslims-are-the-worlds-fastest-growing-religious-group

حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية

قد يفكّر أحدهم في هذه المرحلة في استحالة تدوين هذه النّبوءات قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة. وربّما يُعتقد بكتاباتها عقب وقوع هذه الأحداث، بمعنىٰ أنّها نبوءات رجعيّة. لقد شاهدنا حدوث هذا الأمر مع أدعياء آخرين في الماضي، فكيف يمكننا الجزم بعدم سريان الأمر نفسه علىٰ توقّعات محمّد ﷺ؟ لقد أخذنا هذه التوقّعات التي قمنا بتحليلها هنا من القرآن والحديث. وتفيد كلمة **"حديث"** بمعناها العريض: الرواية أو القصّة. وفي الأدب الإسلاميّ، ينحصر معناها بجملة الروايات عن محمّد ﷺ التي تُصوِّر أقواله وأفعاله كما نقلها صَحابته عنه. أمّا كلمة **"قرآن"** فتعني حرفيّا القراءة. يؤمن المسلمون بأنّ الله اختار محمّدا ﷺ ليكون خاتم أنبيائه، وأنزل عليه كتابه الأخير، القرآن، هدىٰ للبشريّة.

يمكن الوثوق بالمعلومات التي وصلت إلينا في القرآن والأحاديث، لأنّ نصوص هذين المصدرين الإسلاميّين هي الأكثر صحّة من بين جميع النصوص الدينيّة أو التاريخيّة، وذلك لجملة أسباب. علىٰ عكس النصوص القديمة أو النصوص الدينيّة، تعتمد وسائل حفظ القرآن والحديث الرئيسيّة، وستعتمد دائما، علىٰ حفظهما عن ظهر قلب. ويشير القرآن إلىٰ حفظه بهذه الطريقة: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** [القمر: ٢٢]. وأمر الله محمّدا ﷺ بحفظ آيات القرآن، ونقلها وتفسيرها للمسلمين كما نزلت عليه من عند الله عن طريق جبريل:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. وقام المسلمون، أي الصحابة، الذين تعلّموا القرآن مباشرة من محمّد ﷺ بدورهم بنقل ما حفظوه من القرآن، إلىٰ جانب ما شهدوه من أقوال محمّد ﷺ وأفعاله (أي الحديث) إلىٰ الأمم والقبائل المجاورة.

واستمرّ هذا الإرث من الحفظ الجماعيّ علىٰ طول التاريخ الإسلاميّ.

لا يشكّ المسلمون اليوم بالحفظ التامّ للقرآن والسنّة. وشهدت هذه الرواية الشفهيّة المستمرّة منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، علىٰ انتقال القرآن والحديث من الشيخ إلىٰ تلاميذه بأسانيد متّصلة ترجع إلىٰ محمّد ﷺ من دون أيّ خطأ أو تبديل. وثمّة تقديرات تشير إلىٰ حفظ ملايين المسلمين اليوم للقرآن والحديث عن ظهر قلب باللغة العربية التي جاءا بها.

ونستعرض أدناه ما جاء علىٰ لسان بعض علماء النصوص غير المسلمين بشأن حفظ القرآن. يشير العالم المستشرق ويليام غراهام William Graham إلىٰ الآتي:

غير أنّه في العقيدة الإسلاميّة، يأتي النصّ المكتوب دائما في المرتبة الثانية، مقابل التقليد القويّ للنقل الشفهيّ، والوجود السمعيّ للنصّ المقدّس الذي يتعدّىٰ بمراحل ما يقوم عليه الاستخدام اليهوديّ والمسيحيّ. وتهيمن في الإسلام وظائف الكتاب المقدّس كنصّ شفهيّ علىٰ وظائفه كنصّ مكتوب أو مطبوع. وكما قال إنكليزيّ متخصّص في اللغة العربيّة منذ وقت طويل: "يُعدّ القرآن من أوّله إلىٰ آخره كتابا ليُسمع في المقام الأوّل، لا ليقرأ." ويُعدّ "النص المقدّس" بالنسبة لملايين لا حصر لها من المسلمين علىٰ مدىٰ ثلاثة عشر قرنا كتابا للتعلّم، والقراءة، والتناقل عبر الترديد اللفظيّ والحفظ عن ظهر قلب.[1]

ويكتب المستشرق ألفرد، تي ويلش A. T. Welch قائلا:

يعدّ القرآن بالنسبة للمسلمين أكثر من كتاب مقدّس أو أدب مقدّس بالمعنىٰ الغربيّ المُستخدم. وتمثّلت أهمّيّته الرئيسة لدىٰ الغالبيّة العظمىٰ عبر القرون في شكله

(1) William Graham, Beyond the Written Word, pp. 79 – 80.

الشفهيّ، وهو الشكل الذي ظهر به للمرّة الأولىٰ، كما قام محمّد "بقراءته" علىٰ أتباعه علىٰ مدىٰ عشرين سنة تقريبا. وقام بعض أتباع محمّد بحفظ القرآن عن ظهر قلب في خلال حياته، وتمتّع التقليد الشفهيّ القائم بتاريخ مستمرّ منذ ذلك الوقت وأصبح، بشكل ما، مستقلّا ومتفوّقا علىٰ القرآن المكتوب. وتمّت المحافظة علىٰ التقليد الشفهيّ لكامل القرآن من قبل القرّاء المُجازين علىٰ اختلاف العصور. ولم يُعترف بأهمّيّة القرآن المسموع في الغرب إلا مؤخّرا.[1]

ويبيّن عالم الكتاب المقدّس كينيث كراغ Kenneth Cragg أنّ:

هذه الظاهرة من القرآن المسموع، تعني بأنّ النصّ شقّ طريقه عبر القرون بتسلسل حيّ ومتوال من الإخلاص. لذا، لا يمكن التعامل معه ككتاب تراثيّ، أو كمستند تاريخيّ قادم من ماض سحيق. لقد جعل الحفظ من القرآن مِلكيّة حاضرة علىٰ مدىٰ عمر الإسلام، ووفّرت له عملة بشريّة في كلّ جيل، مانعا بذلك إحالته إلىٰ مجرّد سلطة مرجعيّة.[2]

ويشير العالم المتخصّص بالإسلام السير وليام موير Sir William Muir المعروف بانتقاده اللاذع للإسلام قائلا: "**لا يوجد علىٰ الأرجح كتاب آخر في العالم، بقي لاثني عشر قرنا** [أربعة عشر اليوم] **بهذا النقاء.**"[3]

في الواقع، لو تعرّضت جميع النصوص المكتوبة لكلّ كتاب مقدّس في الوجود إلىٰ التلف؛ لا يمكن سوىٰ إعادة كتابة القرآن والحديث بصورة كاملة بفضل الحفظ الجماعيّ لهما. يحفظ القرآن والحديث أشخاصٌ من الأعمار كافّة، الغالبيّة العظمىٰ

(1) The Encyclopedia of Islam, 'The Quran in Muslim Life and Thought.'

(2) Kenneth Cragg, The Mind of the Quran, London: George Allen & Unwin, 1973, p. 26.

(3) Sir William Muir, Life of Mohamet, London, 1894, Vol.1, Introduction.

منهم ليسوا عربا ولا يتحدّثون العربيّة. ويعدّ الحفظ الشفهيّ للقرآن والحديث ظاهرة خاصّة بالإسلام.

ولننظر الآن في الحديث بمزيد من التفاصيل. يقوم الحديث علىٰ جانبين: المتن والسند. يعطي المتن معلومات عمّا قاله أو فعله محمّد ﷺ كما شهد صحابته. أمّا السند فهو سلسلة الأشخاص الذين نقلوا المتن إلينا. وتنضوي معرفة السند المرتبط بالمتن علىٰ أهمّيّة بالغة، إذ من دونها يستطيع أيّ شخص ادّعاء ما يحلو له بشأن محمّد ﷺ، ويتعذّر بغيابها التثبّت من صحّة الحديث من عدمها. تسمح الأسانيد لعلماء الإسلام التفريق بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف أو الموضوع من خلال تمحيص الأسانيد. كان علماء الإسلام المتقدّمون، أوّل من وضع هذه المنهجيّة وعُرفت باسم علم الأحاديث. ويأخذ علماء الإسلام بعين الاعتبار عدّة عوامل مختلفة، مثل اسم كلّ فرد من الذين نقلوا المتن في السند، وترجمته، وعدد الناقلين المنفردين، وغيرها. ولا يوجد هذا المستوىٰ من التمحيص في أيّ تقليد قديم أو دين، بما فيها التقاليد اليهوديّة والمسيحيّة.(١) لقد كرّس علماء الإسلام حياتهم لدراسة صحّة الأحاديث. ولولا وجود هذه المنهجيّة، ما كان لنا لنملك طريقة موثوقة للتمييز بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف أو الموضوع.

ونرىٰ بأنّ الشهادة شرط أساس في نقل الأحاديث، حيث نعتمد فيها علىٰ قول الصحابة الذين قاموا بنقل الرواية.

فهل يمكن عدّ الشهادة مصدرا موثوقا للعلم؟

تعدّ الشهادة في الواقع جزءًا لا يتجزّأ من العلم، وتسري علىٰ حقائق لا يمكن

---

(١) يرجى العودة إلى الفصل السادس من إصدار IERA: "Jesus: Man, Messenger, Messiah" للمزيد من المعلومات حول المسألة. ويمكن تنزيل النسخة المجانية عبر الرابط التالي:
www.iera.org/jesus

لأيّ أحد إنكارها. بالنسبة للكثير منّا، تنضوي هذه الحقائق على التصديق بوجود القبائل الأمازونيّة الأصليّة، والتركيب الضوئيّ، والأشعّة فوق البنفسجيّة، والبكتيريا. ولنتعمّق في هذه المسألة بشكل أكبر. كيف تُثبت لشخص لا تعرفه أنّ أمّك هي التي أنجبتك حقّا؟ وبغضّ النظر عن مدىٰ غرابة السؤال، إلّا أنّه يساعد في إيضاح مصدر للعلم في غاية الأهمّيّة، علىٰ الرغم من عدم إيفائه المكانة التي يستحقّها. قد تقول "**أمّي أخبرتني**"، أو "**لديّ وثيقة الولادة**"، أو "**أبي أخبرني، لقد كان هناك**"، أو "**لقد اطلعت علىٰ سجلّات أمّي الطبيّة في المستشفىٰ**".

جميع هذه الإجابات صحيحة؛ إلّا أنّها مبنيّة علىٰ أقوال أناس آخرين، ما قد لا يُرضي العقول المُشكّكة. وقد تسعىٰ للحصول علىٰ دليل للاقتناع من خلال لعب 'ورقة تحليل الحمض النوويّ'، أو العودة إلىٰ مقطع فيديو مصوّر للّحظات الأولىٰ من الولادة. ولا يقوم الاقتناع بأنّ والدتك هي مَن تدّعي أنّها كذلك، علىٰ إجراء تحليل حمض نوويّ في المنزل؛ ولا علىٰ مقاطع الفيديو المصوّرة، إذ تبقىٰ مضطرًّا إلىٰ الاعتماد علىٰ أقوال الآخرين بأنّ الطفل هو أنت بالفعل. فما الذي يجعلنا واثقين لهذه الدرجة؟ أعترف بأنّ هذا المثال غريب بعض الشيء، إلّا أنّه يعيد التشديد علىٰ مصدر مهمّ للعلم وهو الشهادة.

في الواقع، تستند معظم مداركنا علىٰ ما يقوله الآخرون. وتعدّ كرويّة الأرض مثالا قويّا علىٰ ذلك. لا يستند الاعتقاد بكرويّة الأرض – بالنسبة لمعظمنا – علىٰ الرياضيّات أو العلوم؛ وإنّما يرتكز صرفا علىٰ الشهادة. وقد تنطوي ردّات الفعل الأولىٰ علىٰ العبارات الآتية: "**رأيت صورًا تبيّن ذلك**"، و"**قرأت ذلك في كتب العلوم**"، و"**كلّ أساتذتي أخبروني**"، و"**أستطيع الصعود إلىٰ أعلىٰ قمّة الجبل ورؤية تقوّس الأرض**"، وهلمّ جرّا. إلّا أنّه بموجب التمحيص العلميّ، تندرج كلّ هذه الإجابات تحت المعرفة القائمة علىٰ الشهادة، فرؤية صور هي شهادة، لأنّ عليك

قَبول قول سلطة شخص أو سلطة ما بأنّها صورة عن الكون. كما أنّ تعلّم هذه الحقيقة من كتب العلوم، هو من جرّاء نقل الاستشهاد إذ ينبغي عليك القَبول بصحّة ما يقوله المؤلّفون. ويسري الأمر نفسه عند الإشارة إلىٰ المُعلّمين. والحديث عن محاولة تبرير قناعتك بالصعود إلىٰ أعلىٰ قمّة الجبل، لا يزال مبنيّا علىٰ الشهادة لأنّ الكثير منّا لم يقم بهكذا أمر. وافتراضك بأنّ الوقوف علىٰ أعلىٰ قمّة الجبل، سيوفّر لك الدليل علىٰ كرويّة الأرض، قائم أيضا علىٰ قول الآخرين. فحتّىٰ لو قمت بذلك من قبل، فإنّ ذلك لا يثبت بأيّ حال من الأحوال كرويّة الأرض، لأنّ الوقوف علىٰ القمّة يشير إلىٰ تمتّع الأرض بشيء من التقوّس – وليس الشكل الكرويّ الكامل – (ففي النهاية قد تكون نصف كرويّة أو تشبه شكل الزهرة). وباختصار، لا تعتمد حقيقة اعتقادنا بكرويّة الأرض علىٰ شيء سوىٰ علىٰ الشهادة.[1]

ولنتمعّن في نبوءة وردت في أحد الأحاديث، حيث يخبر فيها محمّد ﷺ عن استشهاد اثنين من صحابته المقرّبين، عمر وعثمان:

حدّث أنس بن مالك قائلا: **"أنّ النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلّم، صعد أُحداً وأبا بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحد، فإنّما عليك نبيّ وصدّيق وشهيدان."**

لاحظ هنا، أنّ الحديث بدأ بعبارة **"حدّث أنس بن مالك"**. يُعدّ أنس بن مالك أحد أشهر صحابة محمّد ﷺ، ويروي لنا حادثة أدلىٰ بها محمّد ﷺ بهذه النّبوءة. إلّا أننا لا نعتمد هنا علىٰ شهادة أنس بن مالك وحده بتلفّظ محمّد ﷺ بهذه الكلمات، حيث إنّ هذا الحديث وصلنا من طرق عدّة. وبعبارة أخرىٰ، لقد قام صحابة آخرون بنقل النّبوءة نفسها. وتجدون أدناه رسما توضيحيّا يلخّص أسماء الصحابة الذين

---

(١) انظر مقالة حمزة تزورتزس "GOD'S TESTIMONY: THE DIVINE AUTHORSHIP OF THE QUR'AN". تاريخ الزيارة ٢٤ آب/أغسطس ٢٠١٨:
http://www.hamzatzortzis.com/gods-testimony-the-divine-authorship-of-the-quran

نقلوا الرواية عن محمّد ﷺ وأسماء الأشخاص الذين نقل لهم الصحابة هذه الرواية.[1] يذكر أنّه بسبب ضيق المساحة، سيقتصر الرسم التوضيحيّ في الصفحة التالية علىٰ أسماء سبعة أجيال فقط من المُحدِّثين:

(١) تم وضع هذا الرسم التوضيحي بالاستناد إلى برنامج موسوعة جوامع الكلم الإصدار ٤.٥.



النبي محمد
أبو هريرة
أبو صالح السمان
سهيل بن أبي صالح
يحيى بن سعيد
سليمان بن بلال
يعقوب بن كاسب
عبد الملك بن محمد
إسماعيل بن أبي أويس
عبد العزيز بن محمد
محمد بن أبي عمرو
يعقوب بن كاسب
عبد الملك بن محمد
قتيبة بن سعيد
مسلم بن حجاج
سهل بن سعد
سلمة بن دينار
معمر بن أبي عمرو
عبد الرزاق بن همام
أحمد بن حنبل
إسحق بن أبي إسرائيل
حامد بن سعدان
يوسف بن قاسم
أحمد بن صالح
حامد بن سعدان
يوسف بن قاسم
أنس بن مالك
قتادة بن دعامة
مطر بن طهمان
داود بن الزبرقان
محمد بن السياح
محمد بن أحمد
سليمان بن أحمد
سعيد بن أبي عروبة
يحيى بن سعيد
محمد بن بشار
محمد بن عيسى
داود بن الزبرقان
محمد بن السياح
محمد بن أحمد
سليمان بن أحمد
روح بن عبادة
أحمد بن يونس
محمد بن يعقوب
الحكيم الترمذي
محمد بن موسى
عبد الوهاب بن عطاء
يحيى بن جعفر
حمزة بن محمد
حسن بن أبي بكر
محمد بن سواء
خليفة بن خياط
محمد بن إسماعيل
يزيد بن زريع
مسدد بن مسرهد
محمد بن إسماعيل
كهمس بن المنهال
خليفة بن خياط
محمد بن إسماعيل
مكي بن إبراهيم
أحمد بن يونس
محمد بن يعقوب
محمد بن موسى
الحكيم الترمذي
بريدة بن الحصيب
عبد الله بن بريدة
الحسين بن واقد
علي بن الحسن
محمد بن علي
أحمد بن عمرو
علي بن أبي طالب
محمد بن سرين
هشام بن حسن
حماد بن أسامة
ابن أبي شيبة
عثمان بن عفان
طلحة بن عبيد
هزيل بن شرحبيل
عمرو بن مرة
عبد الله بن عمرو
الحسن بن عبد الله
محمد بن عمرو
محمد بن أبي بكر
عنترة بن عبد الرحمن
هارون بن أبي وكيع
عبد الملك بن هارون
يونس بن موسى
أحمد بن عمرو
عبد الله بن حبيب
أبو إسحق
زيد بن أبي أنيسة
خالد بن أبي يزيد
محمد بن سلمة
محمد بن وهاب
أبو سلمان عبد الرحمن
أبو إسحق
يونس بن أبي إسحق
عيسى بن يونس
الخطاب بن عثمان
عمران بن بكار
ثمامة بن حزن
سعيد بن إياس
يحيى بن أبي الحجاج
يعقوب بن كاسب
أحمد بن عمرو
عثمان بن كثير
أحمد بن عمرو
هلال بن حق
محمد بن عبد الله
محمد بن أبي بكر

يملك هذا الحديث قدرا كبيرا من الشواهد. ويستحيل نظريا أن يكون **"مكذوبا بالوضع"** نتيجة لوجود عدّة طرق للإسناد، مكوّنة من أشخاص في أزمان وأماكن مختلفة، يروي جميعهم الحديث نفسه. وبما أنّهم يروون الشيء نفسه، فهذا يعني وقوع الحدث علىٰ الأرجح، لأنّ افتراض خلاف ذلك يعني اتّهاما بشيء من التواطؤ الجماعيّ بين الصحابة علىٰ اختلاق الأكاذيب. وهو اتّهام سخيف، نظرًا لتعرّض الصحابة للقتل والتعذيب في حياة محمّد ﷺ، وقتالهم والموت في سبيل الإسلام لعقود بعد وفاته. إنّ اتّهام الصحابة بالكذب عن سابق إصرار وتصميم، يعني موت كلّ هؤلاء الصحابة في سبيل فكرة يعلمون أنهم يكذبون بشأنها. ثمّة الآلاف من الأحاديث الصحيحة في متناول يد المسلمين، والتي يمكن العثور عليها في كتب الأحاديث الصحيحة كصحيح البخاريّ وصحيح مسلم. وفي الواقع، إذا نظرت إلىٰ المراجع في الصفحات السابقة، للاحظت انتقائي للأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح البخاريّ وصحيح مسلم عند اقتباسي لنبوءات محمّد ﷺ.

هل ثمّة أيّ سبب يدعو للشكّ في صحّة القرآن والحديث؟

قام الملايين بحفظ هذين المصدرين من خلال نقل مباشر يبدأ من محمّد ﷺ نفسه. وتعدّ تبعات ذلك مذهلة للغاية. إذا كان بإمكان ملايين الأشخاص الذين حفظوا القرآن والحديث تتبّع حفظهم الشفهيّ علىٰ مدىٰ قرون من المعلّمين والعلماء، وصولا إلىٰ محمّد ﷺ نفسه، فمن هذا الذي يستطيع التشكيك في صحّة الرواية الشفهيّة؟ هذه هي الحقيقة لا سيّما عندما يقطن هؤلاء الحفّاظ أماكن مختلفة في العالم، ويتتلمذون علىٰ يد علماء ومعلّمين مختلفين. إنّ عدد النقولات الشفهيّة المتعدّدة، وعدد الأشخاص الذين حفظوها، وحقيقة عدم وجود اختلافات فيما حفظوه، ليس من قبيل الصدفة التاريخيّة. والاستنتاج الوحيد الذي يمكن التوصّل إليه، هو أنّ القرآن والحديث اللذين نحفظهما اليوم، هما نفسهما اللذان كانا

يدرّسان قبل ١٤٠٠ سنة. لا يوجد تفسير منطقيّ آخر لهذه الظاهرة الشفهيّة الفريدة، إلّا إذا حاول أحدهم زعم تمكّن جميع الحفّاظ على مدى العصور -في مراحل مختلفة من الزمن وفي أماكن متفرّقة- من الالتقاء بطريقة معيّنة للتأكّد من حفظهم وقراءتهم للقرآن والحديث نفسيهما. وطرح مثل هذه الحجّة يقوم على نظريّة المؤامرة، وهو سخيف على أيّ حال.

ولو سلّمنا جدلا وقلنا بعدم وجود مبدأ الحفظ الشفهّي في الإسلام، ولنقل أيضا بعدم امتلاكنا لأيّة أسانيدِ نقل، بحيث لا يمكننا ردّ التنبّؤات بشكل موثوق إلى محمّد ﷺ مباشرة؛ فإنّ ذلك لا يشكّل أيّ فارق على الإطلاق، لأنّ بحوزتنا سجلاّ ت مكتوبة لهذه التنبّؤات، يعود تاريخها لمئات السنين، وحتّى ألف سنة في الكثير من الحالات، أي قبل وقوع الأحداث المتنبّأ بحدوثها بسنوات كثيرة. لذا، لا يقلّل ذلك من ظاهرة دقّة التنبّؤات بأيّ شكل من الأشكال. في الواقع، نملك نسخا مكتوبة لمؤلّفات حديثيّة يعود تاريخها إلى أوائل القرن الأوّل من الإسلام. وتعدّ بعض هذه المؤلّفات متقدّمة للغاية، حيث خطّت بيد أشخاص التقوا بصحابة محمّد ﷺ وتتلمذوا على يديهم.[1]

ولو كان الأشخاص الذين لا يملكون رؤى مستقبليّة يضعون التنبّؤات مستخدمين اسم محمّد ﷺ، فما الذي نتوقّع إيجاده وقتها من دقّة هذه التنبّؤات؟ سنجد بلا أدنى شكّ الكثير من التنبّؤات الخاطئة، كما رأينا مع نوستراداموس، وجوزيف سميث، وتشارلز تايز راسل وغيرهم. هذه هي القاعدة تاريخيّا. لكن هذا ليس ما نجده في تنبّؤات القرآن والحديث، فجميعها دقيقة وحاسمة من دون خطأ. إذا كنت لا زلت تعتقد بأنّ هذا النوع من التنبّؤات سهل التزييف، دعنا إذًا نقوم

---

(1) A. F. L. Beeston, T. M. Johnstone, R. B. Serjeant and G. R. Smith, Arabic Literature To The End of Ummayyad Period, p. 272.

باختبار بسيط. اكتب عشر توقّعات مفصّلة عن مناطق مختلفة للسنة القادمة.

قد تكون علىٰ سبيل المثال عن الفريق الفائز في المنافسة الوطنيّة لهذا الموسم في لعبة كرة القدم أو كرة السلّة، أو الكارثة الطبيعيّة القادمة التي ستضرب الأرض، كزلزال مثلا. أو قد تكون عن أمر غير متوقّع سياسيًا كفضيحة أو عمليّة اغتيال. قم بذلك لعشر مناطق مختلفة، ووفّر المستوىٰ نفسه من التفاصيل الواردة في القرآن والحديث (مثل تحديد شعب معيّن، وأماكن، وأحداث). ستجد بأنّ أغلب التوقّعات التي تقوم علىٰ توفير أيّ نوع من التفاصيل تفشل من حيث الدقّة، علىٰ الرغم من التقدّم التكنولوجيّ الحديث مثل الإنترنت، ما يعني امتلاكنا لأفضليّة اطّلاعنا علىٰ ما يجري في العالم أكثر ممّا كان يحلم به أولئك الذين عاشوا في الماضي.

وختاما، يعدّ هذا الحفظ الكامل لنصوص المصادر الإسلاميّة تحقيقًا لوعد وارد في القرآن. يقدّم مؤلّف القرآن ادّعاءً كبيرا حول حفظه قائلا: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. كيف يمكن لمؤلّف القرآن أن يضمن حفظ القرآن بشكل كامل حتّىٰ يومنا هذا؟ لا سيّما إذا أخذنا بعين الاعتبار التغيّرات الاجتماعيّة والسياسية الكثيرة التي شهدها الإسلام علىٰ مدىٰ ١٤٠٠ عام منذ نزول القرآن؟ وتتضمّن هذه التغيّرات التنازع علىٰ تولّي الخلافة بعد وفاة محمّد ﷺ، ودخول الكثير من المفردات الأجنبيّة علىٰ اللغة العربيّة، كنتيجة لانتشار الإسلام في بلدان أجنبيّة وامتزاجه بلغات وثقافات جديدة، ودخول غير العرب في الدين، الذين لا يتحدّث كثير منهم اللغة العربيّة.

يثبت تتبّع سجلاّت جميع النصوص المقدّسة المنزّلة الأخرىٰ علىٰ مدار التاريخ، بأنّ العكس هو الواقع: عندما تعرّضت هذه النصوص لتغيّرات سياسيّة واجتماعيّة مشابهة لما تعرّض لها القرآن، كان العبث بالنصّ أو فقدانه هو النتيجة

الطبيعيّة. الحفظ الدقيق للقرآن هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة.

رفض الإسلام للخرافات وغيرها من الأباطيل

لم تقتصر رؤىٰ محمّد ﷺ الاستثنائيّة في عالم الغيبيّات علىٰ إعطاء توقّعات مستقبليّة دقيقة وحسب، بل شملت في الوقت عينه رفض الممارسات والمعتقدات الخرافيّة الخاطئة التي كانت سائدة في زمانه. ولقد تحدّثنا في الفصل السابق عن عدد من المعتقدات والممارسات الخرافيّة الخاطئة في هذا الزمن، كعلم الفلك وعلم الأرقام. لم يكن واقع عرب القرن السابع الميلادي في زمن محمّد ﷺ مختلفا عن واقعنا اليوم، حيث شكّلت الخرافة جزءًا مهمّا من حركة المجتمع؛ تضمّن بعضُها الإيمان بالطوالع، والفلك، وطلب البركة من الأصنام، والعرافة. قام محمّد ﷺ بتحريم كلّ هذه الأمور، ودعا الناس إلىٰ اتّباع الحقّ وترك الأساطير والخرافات الباطلة:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

لقد دوّن التاريخ سجلاّ ضخما من الأساطير والخرافات المرتبطة بالعرب، كان التنجيم أحد أشكالها الأكثر انتشارا. وثمّة حادثة شهيرة تذكر كسوف الشمس في اليوم الذي توفّي فيه ابن محمّد ﷺ. ربط الناس بين الأمرين، قائلين بأنّ الشمس والقمر حزنا أيضا علىٰ موت ابنه. أنكر محمّد ﷺ مثل هذه المعتقدات قائلا: "**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** [...] **لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَيَاتِهِ**..."[1]

هل ثمّة سبب يدفع محمّدا ﷺ لمعارضة خرافات قومه؟ لا سيّما وأنّه ينحدر

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ١٠٤٢.

من ثقافة قبليّة اعتادت اتّباع تقاليد أجدادها بشكل أعمىٰ؟ لو كان محمّد ﷺ مُدعيًا، لكانت هذه الحادثة فرصة مثاليّة للاستفادة من جهل قومه، لكنّه لم يفعل ذلك. ويتحدّث القرآن عن بعض خرافات العرب المتعلّقة بالشمس والقمر اللذين كانوا يعبدونهما: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وآمن العرب في الجاهليّة بمفهوم الطوالع الحسنة والسيّئة علىٰ نطاق واسع. فاعتقدوا علىٰ سبيل المثال بجلب بعض أشهر العام (كشهر صَفَر) للفأل السيّئ،[1] وشؤم بعض أنواع الطيور. وعند موت شخص ودفنه، كان يقال عن قيام طائر الليل (يسمىٰ بالهامة) بالحوم حول قبره أنه المقتول الذي لم يؤخذ بثأره.[2] ردّ محمّد ﷺ كِلا المعتقدين عندما قال: **"لا طيرة، ولا هامة، ولا صفر"**.[3]

وعندما يتعلّق الأمر بالأمراض والأدوية، نعلم بأنّ الخرافة والسحر كانا يحتلاّن جزءًا كبيرا من حياة العرب.[4] اجتاحت الحمّىٰ في يوم من الأيّام الواحة العربيّة بخيبر، وكان الذين يقومون بزيارة المدينة يعمدون إلىٰ النهيق مثل الحمير علىٰ أبوابها لدرء المرض عن أنفسهم، اعتقادا منهم بأنّ الحمّىٰ لا تصيب سوىٰ البشر؛ فبتقليدهم للحمير، كانوا يأملون تجنب الإصابة بالوباء.

وفي مثال آخر، كان باستطاعة المرء دفع الجنون عن نفسه، من خلال تلويث نفسه بملابس الحائض وإحاطة نفسه بالعظام البشريّة. كما كان يعتقد بإمكانيّة البرء من المرض عن طريق نقله لشخص آخر. ففي حالات الحمّىٰ مثلا، كان يُربط خيط

---

(١) رواه أبو داود في السنن. حديث # ٣٩١٤.

(2) T. E. Homerin, “Echoes of a thirsty owl: death and afterlife in pre-Islamic Arabic poetry”, pp. 165 – 184.

(٣) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٢٧.

(4) M. Ullmann, Islamic Medicine, pp. 2 – 5.

حول ذراع المريض، علىٰ أن تنتقل الحمّىٰ إلىٰ الشخص الذي يقوم بحلّ العقدة ليشفىٰ الأوّل من سقمه. وإذا تعرّض أحدهم للسعة أفعىٰ، كان يعتقد بإمكانيّة شفائه إذا قام بوضع قطع من المجوهرات الخاصّة بالنساء في يده وهزها طوال الليل.[1]
ومع مجيء الإسلام، وُضع حدّ لكلّ هذه الأمور. وهناك واقعة تذكر قدوم الأعراب علىٰ النبيّ ﷺ وسؤاله قائلين: "**يا رسول الله: أنتداوىٰ؟ فقال: تداووا، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلّا وضع له دواء، غير داء واحد الهرم**".[2]

وبالحديث عن الأمراض المعدية، سبق الإسلام زمانه بأشواط، حين وضع ركائز عدد من الممارسات كالعزل والحَجر اللذين يعدّان اليوم من الإستراتيجيّات المطبّقة من جهة سلطات الصحّة العامّة. قال محمّد ﷺ: "**إِذَا سَمِعْتُمْ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا**".[3] وفي الواقع، لقد أُلّفت كتب حول طبّ محمّد ﷺ مثل كتاب "الطبّ النبويّ" الذي كتبه العالم الشهير ابن قيّم الجوزيّة.

ولنقارن تعاليم محمّد ﷺ حول الأمراض والطبّ والعزل في القرن السابع الميلادي، بالوضع في أوروبا التي بقي فيها الاعتقاد السائد حتّىٰ القرن الرابع عشر، بتسبّب الكواكب بالأمراض علىٰ الأرض. وكان الطاعون الدبليّ المعروف باسم الموت الأسود، أحد أكثر الأوبئة الفتّاكة في التاريخ والذي أدّىٰ إلىٰ وفاة حوالي ٧٥ إلىٰ ٢٠٠ مليون شخص في أوراسيا، وبلغ أقصاه في أوروبا بين عامي ١٣٤٦م و١٣٥٣م.

حيث تفشّىٰ المرض بسرعة في أرجاء أوروبا، لأنّ الخبرة الطبّيّة فيها تجمّدت في

---

(1) Richard Tapper and Keith McLachlan, Technology, Tradition and Survival: Aspects of Material Culture in the Middle East and Central Asia, p. 35.

(٢) رواه الترمذي في السنن. حديث # ١٩٦١.

(٣) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٤٣.

العصور الوسطىٰ.[1]

وجاء التفسير الأعلىٰ مرجعيّة في أوروبّا من كلّيّة طبّ في باريس، حيث أصدرت تقريرا في ١٣٤٨م أُرسل إلىٰ ملك فرنسا تُرجع فيه السبب الرئيس للمرض إلىٰ اصطدام ثلاثة كواكب بعضها ببعض، ما أحدث "ضررا شديدا في الهواء":

نقول بأنّ السبب الأوّل والبعيد لهذا الطاعون كامن في تركيبة السماء. ففي عام ١٣٤٥م، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر من ٢٠ آذار/ مارس، حدث اصطدام عظيم بين ثلاثة كواكب في برج الدلو. يرمز هذا الاصطدام، إلىٰ جانب غيره من الاصطدامات السابقة والخسوفات، ونتيجة لما يسبّبه من تلوّث كبير في الهواء المحيط بنا، إلىٰ الموت والمجاعة وغيرها من الأمور التي لا مجال لذكرها هنا الآن، لعدم ارتباطها بموضوعنا. وقد استفحلت هذه التأثيرات لأنّ المرّيخ – وهو كوكب عدوانيّ، يولّد الغضب والحروب – كان في برج الأسد من ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٣٤٧م وحتّىٰ نهاية أيّار/ مايو من هذه السنة...[2]

وعندما ننظر في الكتابات الأوروبّيّة الساحقة القدم، نجد تفسيرات مشابهة.

حيث تعزو الإلياذة، وهي ملحمة شعريّة يونانيّة يُعتقد كتابتها بين ١١٩٤ – ١١٨٤ قبل الميلاد، الأمراض للنجوم:

وكان الشيخ فريام	**علىٰ الأبراج يرقبه**
فلاح له بكرّته	**عليه تسطع الحلل**
ككوكبة الخريف إذا	**بديجور الدجىٰ ظهرت**

---

(1) Robert Clifford Ostergren, The Europeans: A Geography of People, Culture, and Environment, p. 88.

(2) Rosemary Horrox, The Black Death, pp. 158 – 159.

تخال الزهر لا نور | حواليها لها ظهرا
(دعوها الكلب جبارا | لما عن شؤمها دارا
تؤج وإنما يصلىٰ الـ | ـورىٰ من حرّها نارا) [1]

ويبدو أنّ طبّ أوروبّا في القرن الرابع عشر كان يراوح مكانه، وبقي غارقا في خرافات أسلافه الإغريق قبل ألفي عام. ومع الأسف، ساد تفسير آخر أكثر رجعيّة للموت الأسود في أجزاءٍ أخرىٰ من أوروبا. ونجد أدناه سجلاً لراهب فرانسيسكاني من القرن الرابع عشر، يلقي فيه باللائمة علىٰ اليهود بسبب ظهور هذا المرض:

في سنة ١٣٤٧م، ظهر طاعون فتّاك نتجت عنه وفيات في كلّ أرجاء العالم تقريبا، ولم ينج منها بحسب المطّلعين سوىٰ عُشر البشريّة. لم يمكث الضحايا لوقت طويل بعد إصابتهم بالمرض، حيث فارقوا الحياة في اليوم الثاني أو الثالث منه. واستشرس الطاعون بصورة أفرغت مدنا وقرىٰ بأكملها من قاطنيها. وقال بعضهم بأنّه ناتج عن تلوّث الهواء؛ وقال آخرون بأنّ اليهود خطّطوا للقضاء علىٰ المسيحيّين، حيث قاموا بتسميم الآبار والأنهار في كلّ مكان. ولقد اعترف الكثير من اليهود تحت التعذيب، بقيامهم بتهجين العناكب والعلاجم في القدور والأواني، وبالاستحصال علىٰ سمّ من الخارج... لم يعانِ الله، ربّ الانتقام، من شرور اليهود لكي يفلتوا من العقاب، فأُحرقوا في مختلف أرجاء ألمانيا باستثناء أماكن قليلة. ووافق الكثير منهم علىٰ التعميد خوفا من الحرق وطمعا في النجاة بحياتهم. بدأت هذه الممارسات ضد اليهود في عام ١٣٤٩م ولا زالت مستمرّة بلا هوادة، حيث إنّ الكثير من الناس، نبلاء وعامّة علىٰ حدّ سواء، في عدد من المناطق قد وضعوا خططا ضدّهم وضدّ المدافعين

(١) هوميروس. الإلياذة. ترجمة سليمان البستاني. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢. النشيد الثاني والعشرين، السطر ٢١ – ٢٦. ص: ٨٣٣.

عنهم، ولن يفتروا عن تنفيذها حتّىٰ القضاء علىٰ العِرق اليهوديّ برمّته.[1]

وهكذا نجد أنّ أوروبا كانت لا تزال حتّىٰ القرن الرابع عشر، تعزو أسباب الأمراض إلىٰ التنجيم ونظريّات المؤامرة من الأقليّات. قارن كلّ ذلك بتعاليم محمّد ﷺ حول الأمراض، وسبل علاجها، والحَجر قبل ذلك بـ ٦٠٠ عام.

هذا وعانت البشريّة من الخرافات في جانب آخر، يتمثّل في نظام العدالة الجنائيّة. احتكم العرب في القرن السابع إلىٰ نظام قبليّ قائم علىٰ الثأر. وبحسب هذا التقليد، لم يكن كافيا الاقتصاص من الجاني وحده عند قتله لشخص ينتمي لقبيلة قويّة وذات نفوذ، ولا سيّما إذا كانت مكانة القاتل الاجتماعيّة أدنىٰ من مكانة الضحيّة، الأمر الذي كان يؤدّي إلىٰ إهراق دماء الكثير من الأبرياء من القبيلة الأخرىٰ. وكان يعتقد بأنّ عدم الثأر سيجلب العار للقبيلة، وأنّ علىٰ البالغين الرجال نبذ الخمر، والعطور، والأطعمة الفاخرة، إلىٰ أن يتمّ الانتقام لقبيلتهم.[2] ولإعطاء لمحة عن مدىٰ توغل مثل هذه الممارسات في أذهان العرب، تتحدّث واقعة شهيرة عن قيام قبيلة بقتل ناقة تعود لقبيلة أخرىٰ، أدّىٰ ذلك إلىٰ اندلاع حرب شعواء بينهما، استمرّت أربعين سنة، حاصدة أرواح الكثيرين من كلتا القبيلتين.[3]

أدان محمّد ﷺ مثل هذا النوع من نظم العدالة الجنائيّة لانعدام أخلاقيّتها. وتقهقر العقاب الجماعيّ لصالح المسؤوليّة الفرديّة، حيث أعلن القرآن وجوب التوقّف عن معاقبة الأبرياء علىٰ أخطاء غيرهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وعندما نأتي إلىٰ معاقبة شخص متّهم بارتكاب جريمة معيّنة، فإنّه يعدّ

---

(1) J. G. Meuschen, Hermanni Gygantis, ordinis fratrum minorum, Flores Temporum seu Chronicon Universale ab Orbe condito ad annum Christi MCCCXLIX, Leiden, 1750, pp. 138 – 139.

(2) Piotr Blumczynski and John Gillespie, Translating Values: Evaluative Concepts in Translation, p. 109.

(3) G.N Jalbani, Life of the Holy Prophet, 1988, pp. 2 – 3.

بريئا حتّىٰ تثبت إدانته بالأدلّة الدامغة. وبيّن محمّد ﷺ: **"لو يُعْطَىٰ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لادَّعَىٰ رِجَالٌ أموالَ قَوْمٍ ودِماءَهُمْ، لَكِنِ البَيِّنَةُ علىٰ المُدَّعِي واليَمينُ علىٰ من أَنْكَرَ".**[١] وتتجلّىٰ إحدىٰ أمثلة توافر الأدلّة في تعدّد شهادات شهود العيان المؤيّدة بعضها لبعض، علىٰ أن يكون كلّ شاهد شخصا موثوقا يمكن الاعتماد علىٰ صدق أقواله. ولا تقبل شهادة الأشخاص المشهود لهم بالكذب علىٰ سبيل المثال. ونرىٰ بأنّ الإسلام لم يهتمّ بالجانب الروحيّ فقط، وإنّما جلب معه مقاربات عمليّة لحلّ مشاكلنا وتحدّياتنا اليوميّة.

وقد تُحدّث نفسَك متسائلا عن السبب الذي يجعل هذا الأمر مميّزا، علما أنّه القاعدة في جميع نظم العدالة الجنائيّة في العالم. في يومنا هذا، تعدّ قرينة البراءة، والمحاكمات، والشهادة، والأدلّة من المسلّمات المفروغ منها. لكنّ الأنظمة القضائيّة القائمة حاليّا، تختلف إلىٰ حدّ كبير عن تلك التي كانت سارية قبل قرون قليلة مضت. فعلىٰ مدىٰ العصور الوسطىٰ في أوروبّا، سطت الخرافة علىٰ العدالة بشكل كبير. ولم يكن القاضي أو هيئة المحلّفين، الشخصيّة الأبرز في المحكمة؛ بل لم تكن تلك الشخصيّة بشرا من الأساس. عندما كان يُتّهم شخص ما بارتكاب جريمة، كان يجب ممارسة طقس يُظهر فيه الله براءة المتهم من عدمها. وكان يُحاكم الفقراء من المتّهمين عن طريق الابتلاء؛[٢] نذكر منها علىٰ سبيل المثال، إرغام المتّهم علىٰ الإمساك بحديدة حامية، ثم تضميد جرحه وإعادة فحصه بعد ثلاثة أيّام من قبل كاهن، يعلن علىٰ إثره ما إذا كان الله قد تدخّل لشفائه، ما يدلّ علىٰ براءة المتّهم، أو أنّ الجرح ملتهب بشكل طفيف ما كان يؤدّي في تلك الحالة إلىٰ إدانته. أما المتّهمون من طبقة النبلاء أو الأثرياء، فكانت تجري محاكمتهم عن طريق

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى. حديث # ٢١٢٤٣.

(2) Robert Bartlett, The Natural and the Supernatural in the Middle Ages, pp. 27 – 28.

العراك. إذا تمّ اتّهام شخص معيّن بارتكاب جريمة ما، كان باستطاعته إثبات براءته من خلال القتال مع المدّعي. وكان العراك يجري أمام حشد غفير، ويحمل طبيعة العرض، ويستمرّ لحين استسلام أحد الطرفين أو مصرعه. وكانت هذه المحاكمة تُعدّ عدالةً إلهيّة، لأنّ الله سيكفل انتصار الطرف البريء.(١)

وفي النّهاية أفسحت المحاكماتُ، بالابتلاء وبالعراك، الطريقَ للمحاكمات أمام هيئات المحلّفين، إلّا أنّ هذا النوع من نظم العدالة الخرافيّة، كان معتمدا في أوروبّا علىٰ مدىٰ العصور الوسطىٰ، بعد ألف عام من ردّ الإسلام للمحاكمات الخرافيّة، وتطبيق النظام القائم علىٰ الدليل.

كما أنّ للعنصريّة، التي تعدّ إحدىٰ أكبر الشرور في التاريخ، جذورا متأصّلة في الخرافة. تشير لعنة حام (التي تعرف أيضا بلعنة نوح) إلىٰ حادثة في الكتاب المقدّس، ورد ذكرها في سفر التكوين بشأن نوح وابنه حام. وبحسب هذه القصّة، غضب نوح علىٰ ابنه حام، ما دفعه إلىٰ لعنه هو ونسله (الكنعانيّين)، الأمر الذي كتب عليهم العبوديّة. كما نجد تفسيرا عنصريّا لهذه القصّة، يستخدمه بعضهم في الغرب لتبرير العبوديّة. وفي العصور الوسطىٰ، ظهر التفسير القائل بلعن الأفارقة السود (أبناء حام)، وإرجاع سبب "اسوداد" بشرتهم إلىٰ احتمال ارتكابهم للذنوب؛ ثمّ انتشر هذا التفسير بشكل متزايد في فترة تجارة العبيد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.(٢) وحتّىٰ الفيلسوف اليونانيّ أرسطو، الذي يعدّ مثالا فذّا للفكر المستنير، كان يرىٰ بأنّ بعض البشر أقلّ من غيرهم طبيعيّا من اللحظة التي ولدوا فيها: **"إنّ القيادة والانقياد ليسا فقط أمرين ضروريّين، ولكنّهما نافعان أيضا. ومن الكائنات ما يُفرز منذ نشأته**

---

(1) Janin Hunt, Medieval Justice: Cases and Laws in France, England, and Germany: 500-1500, p. 17.

(2) Robin Blackburn, The Making of New World Slavery: From the Baroque to the Modern, 1482-1800, pp. 210, 247, 259, 312, 329, 585.

للرئاسة، ومنها ما يفرز للخضوع" ثم يختم قائلا: **"لقد ظهر إذًا بجلاء أنّ بعضهم أحرار بالطبع، وأنّ بعضهم أرقاء بالطبع، [وأنّ رقّ هؤلاء عادل وخير]".**[١]

هذا ونجد تصريحات عنصريّة للمهاتما غاندي، أحد الزعماء الروحيّين الأكثر توقيرا في القرن العشرين. حيث أمضىٰ غاندي إحدىٰ وعشرين سنة من حياته في مستعمرة جنوب أفريقيا، من ١٨٩٣م وحتّىٰ ١٩١٤م. ووصل إلىٰ هناك في فترة كانت تعصف بالأمّة اضطرابات سياسيّة حادّة وتفرقة عنصريّة بحقّ السود. في عام ١٨٩٥م، بدأ غاندي بإذكاء سياسة التمييز العنصري في دربن، حيث كان لمكتب البريد في المدينة مدخلان: واحد للبيض وآخر لكلّ من الهنود والأفارقة السود. ولكونه هنديّا، توجب عليه استخدام الباب ذاته مع السود، الأمر الذي أشعره بإهانة بالغة؛ فقام بتقديم التماس إلىٰ السلطات يطالب فيه بتخصيص مدخل للهنود، واستجيب لطلبه، وأمّنت السلطات ثلاثة مداخل منفصلة لكلّ من الأوروبيّين، والأفارقة السود، والهنود.[٢] وكتب غاندي في عام ١٩٠٣م قائلا: **"نعتقد أيضا بوجوب هيمنة العرق الأبيض في جنوب أفريقيا".**[٣] ولقد أيّد غاندي الكثير من الآراء العنصريّة التي كانت منتشرة في زمانه. ولعلّ هذا راجع لكونه وليد نظام طبقيّ متعنّت، يُقسم الناس إلىٰ فئات مختلفة، ويصنّف كلّ من يقع خارج هذه الفئات بـ**"المنبوذ"** الذي يُعامل معاملة المرفوض اجتماعيّا.

لم يكن العرب في القرن السابع بأفضل حالا؛ إذ كانوا يعتقدون بأنّ أرفع الناس مكانة هم الذين ينحدرون من العرق العربيّ ويملكون الدم العربيّ. وانعكس ذلك

---

(١) أرسطو. *السياسات*. ترجمة الأب أوغسطينس بربارة البولسي. بيروت: اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونيسكو)، ١٩٥٧. الباب الأول، الفصل الثاني. ص: ١٤، ١٧.

(2) Collected Works of Mahatma Gandhi, Vol. 1, pp. 367 – 368.

(3) Jad Adams, Gandhi: The True Man Behind Modern India, Chapter 4: Challenge and Chastity.

في المعاملة القاسية التي كان يعامل بها العبيد على نطاق واسع قبل مجيء الإسلام. والعنصريّة هي مفهوم يرفضه الإسلام بشكل تامّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

يتحدّث القرآن هنا عن المساواة الإنسانيّة بعبارات لا لبس فيها. يردّ الإسلام هنا فكرة تفضيل أفراد أو أمم بعينهم نتيجة ثرائهم، أو قوّتهم، أو عرقهم. لقد خلق الله سبحانه وتعالىٰ الناس سواسية، لا فضل لأحد منهم علىٰ الآخر إلّا بالإيمان والتقوىٰ. لقد كانت حياة محمّد ﷺ مثالا بهيّا لهذا المبدأ القرآنيّ؛ حيث حفّز قومه علىٰ التخلّي عن جهلهم وعن القيم الخاطئة، وعلىٰ العيش في ظلّ قيم القرآن. وظهر حبّ محمّد ﷺ للإنسانيّة، بغضّ النظر عن العرق والجنسيّة، جليّا في خطبته الأخيرة، في أبلغ تعبير عن مناهضة العنصريّة، صدر علىٰ لسان رئيس ديانة في التاريخ المسجّل، حيث تحدّىٰ فيه مجتمعا متزمّتا في قوميّته وعنصريّته، ودعاه إلىٰ الوحدة تحت لواء الإنسانيّة:

أيّها الناس اسمعوا منّي أبيّن لكم. فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا... كُلكُّمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، إنّ أَكرمَكُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وليس لعربيّ فَضْلٌ علىٰ أعجميّ إلاّ بالتّقْوىَ... فلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ. [١]

لقد ساعدت عقليّة محمّد ﷺ المناهضة للعنصريّة، في إخراج قومه من ظلمات القوميّة والعنصريّة إلىٰ النور، من خلال إرشادهم إلىٰ طريق المساواة العرقيّة. ويشهد انتشار الإسلام بين كلّ الأعراق والألوان في العالم، علىٰ حقيقة رفض الإسلام لهذه الفروقات الباطلة. يشكّل ملايين الناس اليوم حول العالم، سودا،

---

(١) رواه أحمد في المسند. حديث # ١٩٧٧٤.

وبيضا، وآسيويّين، وأوروبيّين نواة واحدة لهذه الأخوّة الإسلاميّة الفريدة.

لقد ظهرت آراء محمّد ﷺ المناهضة للعنصريّة مبكّرا في مهمّته النبويّة، وتجسّدت في صداقته مع بلال بن رباح رضي الله عنه، وهو عبد أسود تقلّد منصبا رفيعا في المجتمع المسلم في القرن السابع الميلاديّ، حيث عيّنه محمّد ﷺ مؤذّنا. ومن خلال اختيار بلال رضي الله عنه لهذا الدور الشريف، بيّن محمّد ﷺ عدم وجود أيّ مكان للاستبعاد الاجتماعيّ والخضوع المبنيّين علىٰ لون البشرة في المجتمع الإسلاميّ.

لقد كسر محمّد ﷺ الحواجز العنصريّة أمام المؤمنين السود، في بقعة كانت تسجّل أدنىٰ المستويات في مجال حقوق الإنسان، ليسبق بذلك حركات الحقوق المدنيّة الغربيّة ومارتن لوثر كينغ بنحو ١٤٠٠ سنة. وليس مستغربا ما كتبه أستاذ التاريخ البريطانيّ أرنولد جاي توينبي Arnold J. Toynbee بهذا الخصوص:

"إنّ إخماد لظىٰ العنصريّة علىٰ النحو الذي حصل بين المسلمين، هو إحدىٰ إنجازات الإسلام الرائعة، وثمّة حاجة مُلحّة في العالم المعاصر لنشر هذه الفضيلة الإسلاميّة".[١]

لو كان هدف محمّد ﷺ الرئيسُ الاستحواذ علىٰ القوّة، كما يزعم بعضهم، لماذا إذًا عارض العنصريّة؟ لم يكن لمحمّد ﷺ أيّ شيء ليجنيه من رفع مكانة العبيد وحقوقهم في الجزيرة القبليّة. وفي الواقع، لم يجلب عليه موقفه ذاك إلّا اتّحاد وعداوة المستفيدين من سيطرتهم علىٰ العبيد، ومَن لهم مصالح مكتسبة في الإبقاء علىٰ الوضع الراهن. رفع محمّد ﷺ صوته عاليا في وجه العنصريّة، ووقف بالمرصاد لكلّ مثلبة في الجزيرة القبليّة، لأنّ الإسلام يأمر المؤمنين بالعدل ولو علىٰ

---

(1) Civilization On Trial, New York, 1948, p. 205.

حساب مصالحهم الشخصيّة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا . وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وفي الختام، لقد شاهدنا كيف اجتثّ محمّد ﷺ الخرافات التي كانت تطال كلّ مستوىٰ من مستويات المجتمع في الجزيرة العربيّة في القرن السابع. ولا يجب التعجّب من مدىٰ شيوعها. فكّر فقط بمستوىٰ العلم والمعرفة في زمن محمّد ﷺ قبل ١٤٠٠ سنة. افتقرت البشريّة للتكنولوجيا التي نملكها اليوم وتوصّلت إلىٰ الكثير من الاستنتاجات الخاطئة حول كيفيّة سير الكون. وظهرت الأساطير والخرافات لعدم وجود وسيلة تفسير علميّة للكون من حولهم. وبالطبع، لم يخل الأمر من نجاح عدد من المفكّرين والفلاسفة في التوصّل إلىٰ عدد من الاكتشافات المهمّة، مثل احتساب محيط الأرض بشكل دقيق، ولكن كلّ اكتشاف صحيح، كان يقابله الكثير من الاكتشافات الخاطئة.

ولا ننسىٰ معضلة الأمّيّة؛ تعدّ القدرة علىٰ القراءة والكتابة اليوم أمرا بديهيّا، إلّا أنّ عددا كبيرا من الناس في ذلك الوقت كان يفتقدهما. وكانت الجزيرة العربيّة تعاني من مستويات مرتفعة للغاية من الأمّيّة. وتشير التقديرات إلىٰ عدم تجاوز عدد المتعلّمين في مكّة السبعة عشر شخصا.[1]

وبأخذ كلّ هذه الظروف بعين الاعتبار، لا بدّ وأنّه كان من الصعوبة بمكان تبيان خطأ مثل هذه المعتقدات والممارسات. ولد محمّد ﷺ وترعرع في بيئة تملؤها الخرافات الفارغة، وعانىٰ من القصور التقني نفسه الذي عانىٰ منه معاصروه، إلىٰ

---

(1) M. Azami, Studies in Early Hadith Literature, p. 1.

جانب عدم إجادته للقراءة أو الكتابة.[1] لكنّه كان شخصا استثنائيّا، بمعنىٰ نجاحه في تمييز كلّ الأمور الخاطئة التي كان الآخرون منغمسين فيها.

(١) وهذه حقيقة يؤكدها القرآن: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

نبيّ الله...

لقد عكفنا في هذا الفصل على دراسة عدد من الرؤى التي نزلت على محمّد ﷺ. ورأينا بأنّه لم يقم فقط بتوعية البشريّة حول المعتقدات والممارسات الخرافيّة الخاطئة التي كانت منتشرة في زمانه، وإنّما تنبّأ بصورة دقيقة بالكثير من الأحداث المستقبليّة. ويعكس قيام صحابة محمّد ﷺ المقرّبين بحفظ ونقل هذه النّبوءات، على الرغم من ظهور أغلبها وكأنّه محض خيال في نظر الناس في القرن السابع، ولاءهم ومدى ثقتهم في شخصه. تنبّأ محمّد ﷺ بصورة دقيقة بالكثير من الأمور، كما أعطي كتابا منزّلا، القرآن، الذي تنبّأ أيضا بصورة صحيحة بالكثير من الأمور الأخرى. لكنّنا لم نقم سوى بثقب القشرة الخارجية، فالقرآن والحديث يزخران بمثل هذه النّبوءات حول المستقبل التي إمّا تحقّقت، أو لا زالت مطويّة بين دفتي الزمان بانتظار أوانها.

ما مصدر رؤى محمّد ﷺ المستقبليّة الاستثنائيّة؟

يمكننا الخروج بأربعة احتمالات:

١. كانت نتيجة **تخمينات**

٢. كان يعتمد على **أشخاص آخرين**

٣. كانت نتيجة **قدراته الشخصيّة**

٤. تلقّاها من **قوّة أعلى**

ولنقم الآن بالنظر في كلّ احتمال على حدة.

لا يمكن لرؤى محمّد ﷺ المستقبليّة أن تكون نتيجة تخمينات مبنيّة على الحظّ. عندما يقوم شخص ما بالتخمين، فإنّه يقوم بذلك بشكل أعمى. لو كان

محمّد ﷺ يخمّن حقّا، فعلينا أن نتوقّع إيجاد مزيج من النتائج، بعض التخمينات الصحيحة، وبعض التخمينات الخاطئة. إلّا أنّ ذلك ليس الحال مع محمّد ﷺ، حيث رأينا بأنّ تنبّؤاته لا تشوبها شائبة. وبعيدا عن الترجيح، يستحيل تخمين الأحداث التي قام بالتنبّؤ بها بشكل صحيح، ومن دون ارتكاب أدنىٰ خطأ، حيث طالت عدّة أمم وعدّة أزمنة، الكثير منها كانت تقع خارج دائرة نفوذ المسلمين. لهذا يمكننا استبعاد احتمال التخمين المبنيّ علىٰ الحظّ، لأنّه لا يعدّ تفسيرا وجيها.

لعلّه إذًا كان يعتمد علىٰ أشخاص آخرين، ويقوم باستشارتهم للحصول علىٰ معلومات عن المستقبل؟ لقد كانت نبوءاته في الواقع تأتي في سياق محادثاته مع الناس، وكانت بصورة كبيرة ردّا علىٰ تساؤلات وتحدّيات غير متوقّعة كان يتعرّض لها مسلمون وغير مسلمين علىٰ حدّ سواء. كان ردّه، الذي يأخذ قالب النّبوءة، يأتي بصورة آنيّة ومباشرة من دون طلب مساعدة أحد. وعلاوة علىٰ ذلك، لو كان محمّد ﷺ يستعين بآخرين، لما كانت ظاهرة النّبوءات الدقيقة خاصّة به، ولوجدنا أسماء عدد آخر من الأشخاص المشهورين في سجلاّت التاريخ من الذين عرضوا نبوءات مماثلة، كمعلّميه المفترضين، أو أيّ أفراد آخرين تمكّنوا من الوصول إلىٰ مصادر المعلومات ذاتها والتي اعتمد عليها، لكن هذا لم يحصل. وهكذا يمكننا استنتاج عدم اعتماده علىٰ غيره في رؤاه.

ولنفكر الآن في إمكانيّة كونها نتيجة قدراته الخاصّة. عندما نضع في اعتبارنا أن محمّدًا ﷺ بشر ذو قدرات بشريّة محدودة، نضطرّ عندئذ إلىٰ إسقاط هذا الاحتمال. لو اعتمد محمّد ﷺ، كإنسان عاديّ، علىٰ قدراته الشخصيّة، لاستطاع بكلّ تأكيد أيّ شخص آخر بنفس مستوىٰ ذكائه أو أكثر ذكاءً منه الإتيان بمثل ما أتىٰ به من تنبّؤات دقيقة. لقد كرّسنا الكثير من الوقت في صفحات سابقة من هذا الكتاب، لدراسة عدد من أَشهر الأنبياء في التاريخ مثل نوستراداموس، وجوزيف سميث وغيرهما ممّن

ادّعوا امتلاكم لرؤىٰ مستقبليّة خارقة. ولقد فشلوا جميعهم من دون أيّ استثناء عند تمحيص مزاعمهم. إذًا كيف يمكن شرح الظاهرة التي نراها في رؤىٰ محمّد ﷺ المستقبليّة الدقيقة؟

عندما نصهر تعاليمه في بوتقة واحدة، نصبح علىٰ يقين بأنّه موحىٰ له من جهة أكثر علما وقوّة من البشر. ويؤكّد القرآن الكريم علىٰ هذا الأمر عندما كشف عن مصدر علم محمّد ﷺ: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ**﴾ [النجم: ٢ - ٥]. ويبيّن القرآن الكريم بأنّ محمّدًا ﷺ موحىٰ إليه من الله عز وجلّ، الذي عنده علم كلّ شيء. ويَمضي القرآن في إخبارنا بأنّ عِلم الله عز وجلّ هو العلم الوحيد الكامل الذي لا يتسلّل إليه أيّ زيغ أو خطأ: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا أحد الأسباب التي تدفع المسلم إلىٰ عدم التشكيك في وجود الله، لأنّه وحده القادر علىٰ إنزال مثل هذه الرؤىٰ المستقبليّة الكاملة علىٰ محمّد ﷺ.

والزعم الأخير الذي سنردّ عليه، هو ادّعاء أنّ أفضل تفسير ممكن لنبوءات محمّد ﷺ الدقيقة، هو استعانته بالسحر أو بقوىٰ شرّيرة كالشيطان. وهذا أمر مستبعد للغاية لعدد من الأسباب؛ أوّلها أنّه لو استعان فعلا بالشيطان، لما كانت ظاهرة النّبوءات الدقيقة مقتصرة عليه. لقد كان هناك الكثير من الأشخاص المنخرطين بالسحر كنوستراداموس، الذي أتىٰ بتنبّؤات حول المستقبل. لقد كان بمقدور هؤلاء الأشخاص التواصل مع الشيطان نفسه، إلّا أنّ أحدا منهم لم يأت بنبوءات مماثلة لتلك التي أتىٰ بها محمد ﷺ. وثانيها أن التحليل الجوهري للقرآن وتعاليم محمد ﷺ يشير بوضوح إلىٰ أنّ هذين المصدرين ليسا قوّة شرّيرة كالشيطان، لأنّ تعاليم الإسلام تحضّ علىٰ مكارم الأخلاق التي تخالف نظرة الشرّ. يأمر الإسلام المؤمنين بالقيام بالأعمال الصالحة كالصدقة، ومساعدة المحتاجين

كالأرامل والأيتام، والتمسّك بالعدل ضدّ الظلم: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** [البقرة: ١٦٨]. ولو قام الشيطان بكتابة أو تنزيل القرآن، فلماذا يقوم بلعن نفسه في القرآن؟ حيث يُحضّ المؤمنون علىٰ الاستعاذة منه: **﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** [النحل: ٩٨]. وثالثها أنّه لا يمكن للقرآن أن يكون من عند الشيطان، لأنّ ركيزة وجوده هو القرآن والتنزيل نفسه. فوجوده قائم علىٰ التنزيل وليس علىٰ الأدلّة العمليّة كالملاحظة والتجربة.

لذا إذا ادّعىٰ أحدهم بأنّ القرآن من الشيطان، فعليه إثبات وجود الأخير وإثبات التنزيل في نهاية المطاف. وفي حال استخدام القرآن علىٰ أنّه الوحي لتأكيد وجود الشيطان، فهذا يضع القرآن في مصاف النصّ المقدّس، لأنّ الإيمان بوجود الشيطان يفترض الإيمان بقدسيّة القرآن، وعليه فإنّ هذا الرأي يحمل في طيّاته بطلان مزاعمه. وفي الختام، إنّ استخدام الشيطان كاعتراض لا ينسجم مع ممارساتنا الفكريّة، لأنّه من الممكن عندئذ ردّ أيّ شيء باعتباره من عمل الشيطان. والقول بأنّ القرآن من نتاج قوّة مجهولة ذات نوايا خفيّة، يرقىٰ إلىٰ التذرّع بوجود أيّ قوّة مجهولة لبرهنة أيّ أمر. وهذا تنصّل فكريّ. بالإضافة إلىٰ ذلك، يمكن لكلّ شيء أن يصبح عبثيّا عند نسبته إلىٰ الشيطان، ومن هذا المنظور يعدّ ذلك تشكيكا فاشلا لأنّه ينفي الصدق في أيّ شيء.

وينضوي اسم محمّد ﷺ علىٰ دلالات تنبّئية، فهو اسم ذو أصول عربيّة ويعني المبالغة في الحمد والثناء. ويشير القرآن إلىٰ علوّ ذكر اسم محمّد ﷺ: **﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾** [الشرح: ٤]. ولدىٰ نزول هذه الآية منذ أكثر من ١٤٠٠عام، كان محمّد ﷺ وسيبقىٰ الشخص الأكثر ذكرا في التاريخ. إذ لا تكاد تمضي ثانية إلّا وتصدح مئذنة في مكان ما علىٰ وجه الأرض بصوت الأذان يشدو: **"وأشهد أنّ محمّدا رسول**

الله". وفي كلّ مرّة يُذكر فيها اسمه، يصلّي المسلمون عليه ويسلّمون بحبّ واحترام. لم يحظ أيّ إنسان آخر في التاريخ علىٰ مثل هذا الثناء بهذه الصورة المتواصلة في كلّ ثانية من الليل والنهار من دون توقّف منذ أكثر من ١٤٠٠عام. ونضيف إلىٰ ذلك أنّه بدلا من انخفاض وتيرة ذكره مع مرور الوقت كما هو الحال مع معظم المشاهير، فإنّ ذكره يتزايد مع ارتفاع عدد المسلمين. ويُعدّ اسم محمّد الاسم الأكثر شيوعا بين أسماء المواليد الذكور في العالم،[1] علىٰ الرغم من عدم حثّ محمّد ﷺ المسلمين علىٰ التسمّي باسمه، حيث قال إنّ أفضل اسمين هما عبد الله وعبد الرحمن.[2]

ويعدّ محمّد ﷺ الشخص الأكثر اتّباعا في العالم؛ وهذا الاتّباع ليس مجرّد اتّباع شكليّ، بل يقوم المسلمون حول العالم بحذو حذوه في كيفيّة مأكلهم ومشربهم، ونومهم، واغتسالهم، وملبسهم، ومشيتهم، وحديثهم، وصلاتهم، وصومهم، وصدقتهم.

ولننظر في الجانب النفسيّ لهذا الأمر لبرهة. قلّما نحتفظ نحن البشر بإنجازاتنا الكبرىٰ لأنفسنا. لقد أنجز محمّد ﷺ أمورا يعجز أيّ إنسان آخر عن فعلها؛ ورأينا بأنّ تنبّؤاته ليست سوىٰ غيض من فيض من جملة هذه الإنجازات. ومن الطبيعة البشريّة أن يتحدث المرء عن نفسه للحصول علىٰ الإعجاب والتقدير من الآخرين، إلّا أنّ محمّدًا ﷺ ظلّ متواضعا طوال حياته، لم يتفاخر أو يتباهَ قط. وفي الواقع، لقد كان مَن يسافر للتعرّف إليه بعد السماع به يعجز عن تمييزه من بين جمع من الناس.[3] كما عزا جميع إنجازاته العظيمة إلىٰ الله عزّ وجلّ، ولم يدّع قطّ إلمامه بكلّ علم أو معرفته للغيب.

---

(1) The Columbia Encyclopedia, Sixth Edition, see entry ‘Muhammad, prophet of Islam’.

(٢) ذكره مسلم في الصحيح. حديث # ٢١٣٢.

(٣) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٦٣.

وينسب القرآن نبوءاته إلىٰ الله عزّ وجلّ الذي أوحىٰ إليه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ . مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ مهمّة النبيّ في الإسلام لا تقتصر علىٰ التنبّؤ. أوحىٰ الله عز وجلّ إلىٰ الأنبياء عن أنباء الغيب، ولكنّه أوكل إليهم في الوقت عينه مهمّة تبليغ رسالة الهدىٰ لأقوامهم، وأن يكونوا قدوة حسنة للناس يقتدون بها ويسيرون علىٰ نهجها. ومن هذا المنطلق، يجب إخضاع حياة محمّد ﷺ وشخصيّته للتمحيص. ويتوافر بين أيدينا عدد وافر من الأحاديث المفصّلة عن حياة محمّد ﷺ، تزيد أعدادها عن سير أيّ شخص آخر في التاريخ.

وتشمل هذه الأحاديث أدقّ التفاصيل كالجنب الذي كان ينام عليه،[١] والجهة التي كان يفرق بها شعره،[٢] والطريقة التي ضحك بها حتىٰ بدت أنيابه.[٣] وبالغ صحابته في رغبتهم في وصف محمّد ﷺ حتىٰ وصل بهم الأمر إلىٰ عدّ الشعر الأبيض في رأسه ولحيته (أربعة عشر، في حال انتابك الفضول!)[٤] وتملأ هذه التفاصيل التي دوّنوها مجلّدات من الكتب. وحتىٰ في العصر الحديث الذي نملك فيه تقنيّات مثل الفيديوهات المصوّرة، نعجز عن الوصول إلىٰ مثل هذه المعرفة الوثيقة بأشهر الشخصيّات في العالم. يولي المسلمون هذه المعلومات اهتماما بالغا، لأنّهم يؤمنون بأنّ محمّدا ﷺ خير البشر وخير قدوة، لذا تسمح لنا هذه المعلومات بالاقتداء به في مختلف جوانب حياتنا. وتجدر الإشارة إلىٰ قيام صحابة محمّد ﷺ برواية حوادث قد تعدّ محرجة بصورة عامّة كصرعه من فرس وانفكاك قدمه.[٥] ولو كان صحابته

---

(١) ذكره مسلم في الصحيح، حديث # ٢٧١٣.

(٢) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٥٨٥٤.

(٣) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٥٣٦٨.

(٤) ذكره الترمذي في الشمائل المحمدية. الكتاب الخامس. حديث # ٣٧.

(٥) ذكره البخاري في الأدب المفرد. حديث # ٩٦٠.

يكـذبون بـشأنه أو يحـاولون إضـفاء هالـة النبـوّة عليـه، لقـاموا بإخفـاء مثـل هـذه المعلومات. لكنّهم لم يفعلوا ذلك علىٰ الإطلاق، بل سعوا إلىٰ نقل كلّ ما رأوه وسمعوه من محمّد ﷺ، ما يدلّنا علىٰ حرصهم علىٰ نقل كلّ ذرّة معلومة ممكنة عنه؛ كما يشير ذلك إلىٰ إيمانهم الراسخ به كنبيّ صادق من عند الله.

لقد رأينا مدىٰ التفصيل الذي تتمتّع به الأحاديث التي تتحدّث عن محمّد ﷺ، ولكن ماذا عن الوقت الذي كُتبت فيه؟ المثير في الأمر هو امتلاكنا لمصادر تعود إلىٰ أشخاص عاصروا محمّدًا ﷺ في حياته. قد تتساءل عن السبب الذي يجعل هذا الأمر استثنائيًا، فلا بدّ أنّ الأمر نفسه يسري علىٰ جميع الشخصيّات الرئيسة في التاريخ القديم. ولكنّ الواقع علىٰ النقيض من ذلك، إذ لا يدرك كثيرون بأنّ الشخصيّات التاريخيّة القديمة التي يسلّمون بوجودها، لا تملك سوىٰ أدلّة قليلة للغاية تثبت ذلك.

لا نملك أيّ دليل مكتوب عن الشخصيّات الدينيّة كموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام يعود تاريخه إلىٰ الفترة التي عاشوا فيها، كما لا نملك أيّ موادّ تتعلّق بكبار الفلاسفة. ترتكز معظم الفلسفة الغربيّة علىٰ آراء وتعاليم عمالقة كسقراط، وأفلاطون، وأرسطو؛ ويشار إليهم بالفلاسفة الإغريق **"الثلاثة الكبار"**، إلّا أنه لا يوجد أيّ سجلّات متقدّمة عن وجودهم. ولننظر مثلا في سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق. م). لقد كان صاحب تأثير بالغ جعله يحمل لقب أحد مؤسّسي الفلسفة الغربيّة. لكنّه يبقىٰ، كما كان في زمانه، لغزًا يحوم حوله الكثير من الجدل. يعدّ تحديد هُويّة سقراط التاريخيّ مهمّة شائكة، إذ يشار إلىٰ المسألة رهن الخلاف بـ **"المشكلة السقراطيّة"**. ويصدر كلّ عصر، وكلّ توجّه فكريّ سقراط خاصّا به.[1] تنشأ المشكلة السقراطيّة من حقيقة إصدار الأشخاص الذين كتبوا عنه لسجلّات تتعارض فيما بينها في أبسط

(1) Cornelia de Vogel, The Present State of the Socratic Problem, p. 28.

الأمور،[1] ناهيك عن مسألة تأخّر هذه المصادر. ويتجلّىٰ أقدم مرجع بين أيدينا في مسرحيّة كوميديّة لأريستوفانس تعرف باسم السحب، صدرت لأوّل مرّة في عام ٤٢٣ ق. م.[2] ولم تنج أيّ نسخة مكتوبة من هذا الإصدار من أثينا القديمة، ما يضطرّنا إلىٰ الاعتماد بصورة شبه تامّة علىٰ مخطوط يعود إلىٰ القرون الوسطىٰ،[3] بفجوة زمنيّة تصل إلىٰ حوالي ١٠٠٠ عام.

هذه بعض المشاكل التي تعاني منها المصادر المتقدّمة فيما يخصّ الفلاسفة كسقراط والتي كانت القاعدة في التاريخ القديم. ونستطيع القول بأنّ الشهادة علىٰ وجود محمّد ﷺ أفضل بمرّات من الشهادة علىٰ وجود معظم شخصيّات التاريخ القديم. فإلىٰ جانب المصادر الإسلاميّة، ثمّة الكثير من السجلاّت المكتوبة من مصادر مستقلّة غير إسلاميّة معاصرة له. ونورد أدناه سجلاّ نسطوريّا موجزا من القرن السابع، يُعرف باسم سجلّ خوزستان، يوثّق باقتضاب الغزوات الإسلاميّة لفارس ويشير إلىٰ قيادة محمّد ﷺ لهم:

ثم أخرج الله أمامهم أبناء إسماعيل، الذين كانوا تحت قيادة محمّد، بأعداد توازي حبّات رمال الشطآن. لم تحل دونهم أسوار أو بوّابات، أو دروع أو تروس؛ حتّىٰ أحكموا قبضتهم علىٰ كلّ أراضي الفرس.[4]

وفي عمل كتبه مسيحيّ في القرن السابع الميلادي بعنوان The Doctrina Jacobi Nuper Baptizati (تعاليم يعقوب المعمّد حديثا)، يكشف المؤلّف، في هذه المحادثة التي دارت بين مسيحيّ ويهوديّ، عن ظهور نبيّ جديد بين السراسنة

---

(1) Sara Ahbel-Rappe and Rachana Kamtekar, Companion to Socrates, xiv – xv.

(2) Hugh H. Benson, A Companion to Plato, p. 25.

(3) Ralph M. Rosen, Performance and Textuality in Aristophanes' Clouds, p. 397.

(4) R. G. Hoyland, Seeing Islam As Others Saw It: A Survey And Evaluation Of Christian, Jewish And Zoroastrian Writings On Early Islam, p. 186.

(العرب):

عندما قام السراسنة بقتل القائد، كنت في قيصريّة، ثمّ توجّهت علىٰ متن قارب إلىٰ سيكامينا. كان الناس يقولون "قتل القائد"، وابتهج اليهود بهذا الخبر أيّما بهجة. وكانوا يقولون بأنّ النبيّ ظهر، وهو آت مع السراسنة، وأنّه أعلن عن قدوم المسيح.[1]

أمّا الكتابات الأكثر إثارة للاهتمام في القرن السابع الميلادي، فتجسّدت علىٰ يد سيبيوس الذي كان أسقفا في قصر البقردونيّين. حيث كان سيبيوس أوّل مؤلّف غير مسلم يقدّم نظريّة عن صعود الإسلام، يركّز فيها علىٰ نظرة المسلمين أنفسهم لما كانوا يفعلونه.[2] أمّا فيما يتعلّق بما كتبه عن محمّد ﷺ فنجد الآتي:

في تلك الفترة، ظهر لهم شخص ما من نسل إسماعيل يعمل في التجارة اسمه محمّد، كداعٍ للطريق القويم كما لو كان الأمر من تدبير الله. وعلّمهم الإيمان بإله إبراهيم، حيث كان ضليعا بتاريخ موسىٰ. ولأنّ الإيعاز جاء من الأعلىٰ، لم تستدع المسألة سوىٰ إصدار أمر واحد حتّىٰ يدخلوا جميعا في وحدة الدين، نابذين بذلك معتقداتهم الفارغة. وتوجّهوا إلىٰ الله الحيّ الذي ظهر لأبيهم إبراهيم. وأمرهم محمّد بعدم أكل الميتة، وشرب الخمر، والكذب، والزنىٰ. وقال: 'أقسم الله واعدا بإعطاء هذه الأرض لإبراهيم وذرّيّته من بعده إلىٰ الأبد. وجاء الله به كما وعد عندما كان يحبّ إسماعيل. ولكن أنتم الآن أبناء إبراهيم، ويفي الله بوعده لإبراهيم وذرّيّته من خلالكم. أحبّوا إله إبراهيم فقط بصدق، اذهبوا واستولوا علىٰ الأرض التي وعد الله أباكم إبراهيم. لن يقدر أحد علىٰ مواجهتكم في ساح الوغىٰ، لأنّ الله معكم'.[3]

---

(1) Ibid., p. 57.

(2) Ibid., p. 128.

(3) R. L. Nettler, Medieval And Modern Perspectives On Muslim-Jewish Relations, p. 89.

نرىٰ هنا بأن سيبيوس يعلم الكثير من المعلومات الشخصيّة عن محمّد ﷺ؛ فكان علىٰ سبيل المثال مدركا لعمله في التجارة قبل النبوّة. وألمح إلىٰ تغيّر مفاجئ في مسار حياته بعد نزول الوحي عليه. ويعرض ملخّصا وافيا عن دعوة محمّد ﷺ كالإيمان بإله واحد وبإبراهيم كأب مشترك لليهود والعرب. كما انتقىٰ بعض المحرّمات الوارد ذكرها في القرآن، كالكذب، وشرب الخمر. تتّفق جميع المعلومات التي أوردها سيبيوس مع التعاليم الإسلاميّة. لا يولي الكثير من الناس بالا لهذه الكتابات المفصّلة، والدقيقة، والمتقدّمة، إلّا أنّها في الواقع نادرة عند الحديث عن شخصيّات من التاريخ القديم. ما نستطيع استنتاجه هو عدم وجود شكّ في وجود محمّد ﷺ وبعثته، كما تؤكّد الكثير من الكتابات المتقدّمة والمستقلّة.

ونتحوّل الآن إلىٰ الكتابات الإسلاميّة التي تتناول حياته وشخصيّته ﷺ.

لطالما عُرف محمّد ﷺ قبل بعثته بالصدق، ما أكسبه لقب **"الصادق"** و**"الأمين"**. وكانت عائلته وأصحابه وجيرانه ومعارفه في التجارة، يعرفون أنّه كان أكثرهم صدقا وأمانة. ويتجلّىٰ ذلك في حادثة وقعت قبل الجهر بنبوّته، حيث صعد إلىٰ قمّة جبل ونادىٰ كلّ بطون قريش. فلمّا تجمّع الناس من حوله سألهم: **"أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ " قالوا: نعم؟ ما جرّبنا عليك إلا صدقا".**[1] شهد القوم جميعهم من دون أيّ استثناء علىٰ أمانته وصدقه اللذين لازماه طوال حياته، لأنّه عاش في ظهرانيهم حياة طاهرة ونقيّة لأربعين سنة.

وحتّىٰ بعد الصدع بنبوّته في الأربعين من عمره، وانقلاب الناس عليه وعلىٰ القرآن، ظلّ محتفظا بسمعته في الصدق والأمانة. كانت هذه ثقتهم بخلقه، وعلىٰ

---

(1) Ibid.

الرغم من تحوّلهم إلىٰ أعداء له، ورفضهم القرآن، وتعذيبهم له ولأصحابه، إلّا أنّهم استمرّوا في استئمانه علىٰ مقتنياتهم الثمينة! ونورد هنا حادثة جرت مع النبيّ لدىٰ خروجه من مكّة في جنح الظلام، بسبب تآمر أعدائه علىٰ إنهاء حياته في أثناء نومه؛ فحينما كان يضع خطّة الهروب، كانت لا تزال بحوزته أمانات الذين يتآمرون علىٰ قتله. وبما أنّه كان سيترك منزله وثروته، كان أخذه لهذه الأمانات كبدل لما سيخلفه من ورائه، ليعدّ تعويضا رمزيّا. لكنّ حسن خلقه دفعه قبل ذهابه، إلىٰ الطلب من ابن عمّه عليّ رضي الله عنه التخلّف عنه، حتّىٰ يردّ جميع الأمانات إلىٰ أصحابها. وتروي زوجته رضي الله عنها:

أمّا عليّ بن أبي طالب، فإنّ رسول الله [...] أمره أن يتخلّف بعده في مكّة حتّىٰ يؤدّي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ليس بمكّة أحد عنده شيء يخشىٰ عليه إلّا وضعه عنده، لما يعرف من صدقه وأمانته [...] وأقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، بمكّة ثلاث لياليَ وأيامها حتّىٰ أدّىٰ عن رسول الله الودائع التي كانت عنده إلىٰ الناس، حتّىٰ إذا فرغ منها لحق برسول الله..[1]

يُظهر الكذّابون والدجّالون عادة سلوكا معيّنا، ويتشاطرون السلوك النفسيّ نفسه: يعرف عنهم الكذب الذي يبدأ بكذبات صغيرة ثم تكبر شيئا فشيئا. هل يعقل بأنّ محمّدًاﷺ الذي لم يكذب كذبة واحدة طوال حياته صغيرة كانت أو كبيرة، سيشرع بالكذب للمرّة الأولىٰ في سنّ الأربعين، باختلاق أكبر الكذبات، بأنّ الله سبحانه وتعالىٰ اختاره ليكون رسوله وليتلقّىٰ القرآن؟ كيف يمكن لمحمّد ﷺ أن يكذب علىٰ الله عز وجلّ في الوقت الذي لم يكذب فيه علىٰ أحد من البشر؟ يُظهر سلوكه وأمانته الراسخة حتّىٰ في أحلك الظروف! ويضيء "وات منتغمري" أستاذ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٤٧٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢١٨-٢١٩)، والطبري في تاريخ الأمم والملوك (١/٣٥١-٣٥٣).

الـشرف في اللغـة العربيـة والدراسـات الإسـلاميّة علـىٰ هـذا الجانـب في كتابـه Mohammed in Mecca (محمّد في مكة) قائلا:

يدلّ استعداده لتحمّل الاضطهاد من أجل معتقداته، والأخلاق الرفيعة للرجال الذين آمنوا به ووقروه كقائد لهم، وعِظم إنجازاته، علىٰ صدقه الراسخ. ويخلق اعتبار محمّد مدعيا للنبوة مشاكل أكثر ممّا يحلّ.[١]

إذا سئل أحدهم عن السبب الذي قد يدفع بشخص ادّعاء النبوّة، فسيجيب بأنّه للحصول علىٰ الشهرة، والجاه، والثروة، والمنصب. عندما تفكّر بالملوك والقادة، ما الصورة التي ترتسم لهم في مخيّلتك؟ يرتبط المنصب والقوّة عادة بالأطعمة الفاخرة، والملابس الباهظة، والقصور الضخمة؛ إلّا أنّه عندما يتعلّق الأمر بمحمّد ﷺ، تتلاشىٰ هذه الصورة إلىٰ أبعد الحدود. عاش محمّد ﷺ طوال مدّة بعثته التي تصل إلىٰ ثلاثة وعشرين عاما حياة بسيطة ومتواضعة. وقال سهل بن سعد، أحد صحابة محمّد ﷺ، فيما يتعلّق بنظامه الغذائيّ: "**مَا رَأَىٰ رسولُ الله ﷺ مُنْخُلًا مِنْ حِين ابْتَعَثَهُ الله تَعَالَىٰ حَتَّىٰ قَبَضه الله تَعَالَىٰ**".[٢] وأنِف الإسراف، ولم يكن هناك فائض من الخبز في منزله.[٣] وأكّد علىٰ إطعام الفقراء والجيران، وقال: "**ما آمن بي مَن بات شبعان وجاره جائع إلىٰ جنبه**".[٤]

لم يعب محمّد ﷺ قطّ طعاما جُلب إليه، ولبّىٰ دعوات كان يقدّم فيها خبز معدّ من شعير وإهالة سنخة.[٥] أما مسكنه فكان متواضعا كذلك. ويصف صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما رآه عندما ذهب لزيارته في منزله قائلا:

---

(1) W. Montgomery Watt, Muhammad at Mecca, p. 52.

(٢) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٥٤١٣.

(٣) ذكره الترمذي في السنن. حديث # ٢٣٥٩.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى. حديث # ١٨٠٩٩.

(٥) ذكره الترمذي في الشمائل المحمدية. الفصل ٤٦: باب تواضع النبي ﷺ. حديث # ٣١٦.

دخلت علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلّم، فإذا هو مضطجع علىٰ رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمال بجنبه متكئًا علىٰ وسادة من أدم حشوها ليف. قلت: يا رسول الله: ادع الله فليوسّع علىٰ أمّتك، فإنّ فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله. فقال: " أو في شكٍ أنت يا ابن الخطاب؟ أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟". [١]

وعلّم محمّد ﷺ أصحابه أنّ: "**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**"[٢] فعلىٰ الرغم من مسؤوليّاته كنبيّ، ومعلّم، ورجل دولة، وقاض، كان يحلب شاته[٣] ويخيط ثوبه، ويخصف نعله، وكان في مهنة أهله.[٤] يُجبَر بعض الناس علىٰ عيش حياة بسيطة ومتواضعة لأنّهم لا يملكون خيارا آخر بسبب ظروفهم. عاش محمّد ﷺ تلك الحياة البسيطة حتّىٰ مماته، علىٰ الرغم من إدارته لبيت مال المسلمين، ومن دخول الجزء الأكبر من شبه الجزيرة الإسلاميّة في الإسلام قبل وفاته. لم يملك محمّد ﷺ سوىٰ القليل، ولم يقم بأيّ ترتيبات تساعد علىٰ معاملة عائلته معاملة خاصّة بعد وفاته. وعندما توفّي، ترك من بعده ثروة ضئيلة وزّعت كلّها علىٰ الفقراء:

ما تَرَكَ رَسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ دِينَارًا، ولَا دِرْهَمًا، ولَا عَبْدًا، ولَا أمَةً، إلَّا بَغْلَتَهُ البَيْضَاءَ الَّتي كانَ يَرْكَبُهَا، وسِلَاحَهُ، وأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً. [٥]

لم يكن محمّد ﷺ في حياته ومماته شخصا تحرّكه الدوافع الماديّة، ولكنّه كان يضع الآخرة نصب عينيه. قد تعتقد بأنّ محمّدا ﷺ تجشّم عناء هذه الحياة القاسية للوصول إلىٰ مآربه في السيطرة علىٰ شبه الجزيرة العربيّة. كلا، ففي الأيّام الأولىٰ من

---

(١) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٣٥٠٧.

(٢) رواه الترمذي في السنن. حديث # ٣٨٩٥.

(٣) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح. حديث # ٣: ٥١٩.

(٤) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٦٧٦.

(٥) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٢٧٣٩.

دعوته التي كان فيها المسلمون في حالة من الوهن والضعف، عرض عليه معارضوه السلطة والملك، في محاولة منهم لنأيه عن دعوته لهم بترك عبادة الأوثان:

إن كنتَ إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتّىٰ تكون أكثرنا مالا، وإن كنتَ إنّما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا (نجعلك سيّدنا وزعيمنا)، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا.[1] فما كان منه إلّا أن رّد قائلا: **"لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر، حتّىٰ يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته".**[2] رفض محمّد ﷺ كلّ هذه الإغراءات، الأمر الذي يدلّ علىٰ صدقه في الرسالة التي يدعو إليها، وعدم طمعه بالمال والجاه.

ثمّة صفات معيّنة يتوقّع المرء إيجادها في الأنبياء. فإذا كان يسعىٰ لهداية الجموع، فلا بدّ له من التحلّي بقدر كبير من **الصبر**. فالغِلظة وقلّة الصبر ستنفّر الناس من حوله. يجب علىٰ الأنبياء التمتّع **بالصدق** وحيازة ثقة الناس قبل بعثتهم بوقت طويل، وإلّا حُقّ للناس التشكيك في صِدق ادّعائهم بنزول الوحي عليهم.

كما ينبغي عليهم عيش **حياة بسيطة** وعدم الانغماس في المادّيّات، وإلّا شكّك الناس في دوافعهم. أيضا لا بدّ لهم من **الثبات**، حيث إنّهم سيواجهون الكثير من التحدّيات، وهذا ما يمكن توقّعه عندما يقف المرء في وجه الفساد والمؤسّسات النافذة في مجتمعه. يستحيل إيفاء حياة محمّد ﷺ وشخصيته حقّها في مثل هذا الكتاب الصغير، ولكن كلّما قمنا بالتعمّق في دراسة سيرته، وقعنا أكثر في حبّه وتقديره. ولا شكّ بأنّ تمحيص شخصيّته بعناية في سياق الظروف العصيبة التي مرّ بها، سيسهّل التوصّل إلىٰ استنتاج أنّه كان علىٰ درجة من الصدق، والتواضع، والثبات لا يضاهيها أحد – وهي جميعها دلائل أساسيّة من دلائل النبوّة.

---

(١) سيرة ابن هشام. ١-٢: ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) المرجع السابق. ١-٢: ٢٥٣.

الفصل الثّالث

التنبؤات السابقة المتعلقة بمحمد ﷺ

الفصل الثّالث

التنبؤات السابقة المتعلقة بمحمد ﷺ

يوضّح الإسلام أنّ محمّدًا ﷺ هو النبيّ الخاتم لسلسلة طويلة من الأنبياء الذين أرسلهم الله إلىٰ البشريّة علىٰ مرّ التاريخ؛ نذكر من بينهم إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام. حمل جميع الأنبياء الذين بعثهم الله الرسالة نفسها: عبادة الخالق وليس المخلوقات. وعلىٰ الرغم من بساطة هذه الرسالة، إلّا أنّها لطالما تعرّضت للتشويه والتحريف، ما استوجب إرسال الأنبياء تباعا كمذكّرين. وأعطي الأنبياء علم الغيب كحجّة تثبت مكانتهم ومنزلتهم. يسعىٰ الدجّالون ومدّعو النبوّة إلىٰ محاكاة هذا العلم لإضفاء المصداقيّة علىٰ أنفسهم. ولقد رأينا في هذا الكتاب نجاح بعضهم في خداع ملايين الناس، من خلال اللجوء إلىٰ وسائل مختلفة كالتنبّؤات شديدة الغموض والخدع النفسيّة المُحكمة.

أمّا الطريقة الأخرىٰ التي ساعد فيها الله عز وجلّ البشر علىٰ التمييز بين الحقّ والباطل، فهي الإشارات التي أشار بها الأنبياء بعضهم لبعض. لم تقتصر نبوءاتهم علىٰ التنبّؤ بأهمّ أحداث العالم المتغيّرة، وإنّما بشّرت بقدوم من سيأتي بعدهم من أنبياء، من خلال تحديد بعض سماتهم بشكل يساعد أقوامهم علىٰ الإلمام بصفات الأنبياء اللاحقين، حتّىٰ يتمكّنوا من تقصّيها وقياس مدىٰ تطابقها لاتّباعهم عندما يحين موعد ظهورهم. ويساعد عرض مواصفات دقيقة ومحدّدة للأنبياء اللاحقين، في تحديد النبيّ من الدعيّ. إذا كان محمّد ﷺ النبيَّ الخاتم المرسل إلىٰ البشريّة قاطبة، فلا بدّ أنّ ظهوره كان يعدّ حدثا ذا أهمّيّة كونيّة للبشريّة. لذا، نتوقّع ذكره في بقايا الوحي في الكتب السماويّة السابقة.

وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم بحذافيره:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

يقول القرآن بأنّ ذكر النبيّ ﷺ وارد في الكتابات المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة. وهذا ما نجده عندما نقوم بدراسة الكتاب المقدّس اليوم. وثمّة نبوءات قديمة تتنبّأ بقدوم محمّد ﷺ قبل ولادته بآلاف السنين. وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ الكتابات المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة الموجودة بين أيدينا اليوم، ليست نفسها التي أنزلها الله في الأصل علىٰ أنبياء كموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام. وهذه الاستنتاجات توصّل إليها علماء الكتاب المقدّس أنفسهم، مُرجعين إحدىٰ أسباب ذلك إلىٰ وجود الكثير من النسخ المتباينة لهذه الكتب.[١]

وعلىٰ الرغم من تعرّض الكتب المقدّسة للتحريف عبر التاريخ، إلّا أنّ الدراسة المتأنّية، تظهر احتفاظها ببعض النبوءات القديمة بأمانة، وسنرىٰ بأنّ هذه النبوءات لا يمكن تفسيرها إلّا من خلال ربطها بوجود محمّد ﷺ. وقد تتفاجأ من عدد المرّات التي مررتَ بها علىٰ تلك النبوءات في الكتاب المقدّس من دون أن تعي ذلك. يبقىٰ التعرّف إلىٰ محمّد ﷺ بالنسبة للكثير من الناس **"مستعصيا مع أنّه أمام ناظرهم"**، نظرًا لوجود أصحاب المصالح الخاصّة الذين لا يريدون للعالم معرفة حقيقته. ستركّز مناقشتنا في المقام الأوّل علىٰ سفر التثنية إصحاح ٣٣ وسفر أشعياء إصحاح ٤٢ في العهد القديم. وسنرىٰ وجود عدد من النبوءات الصريحة التي تتنبّأ بقدوم نبيّ عربيّ، وسنبيّن السبب الذي يجعل محمّدًا ﷺ الشخص الوحيد في التاريخ الذي تتجسّد فيه تلك النبوءات.

---

(١) يرجى العودة إلى الفصل السادس من إصدار IERA: "Jesus: Man, Messenger, Messiah" للمزيد من المعلومات حول المسألة. ويمكن تنزيل النسخة المجانية عبر الرابط التالي:
www.iera.org/jesus

النبوءة العربية في سفر أشعياء إصحاح ٢٣

يذكر سفر التثنية نبوءة جاء بها موسىٰ عليه السلام، تبشّر بظهور عدد من القدّيسين و"بنار شريعة" من الجزيرة العربيّة:

وهذه هي البركة التي بارك بها موسىٰ رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال.جاء الربّ من سيناء و[قام] لهم من سعير و[أشرق] من جبل فاران وأتىٰ [ومعه عشرة آلاف قدّيس] وعن يمينه نار شريعة لهم. [التثنية ٣٣: ١-٢] (١)

قد تبدو هذه النبوءة للوهلة الأولىٰ، كما لو كانت وصفا لأحداث ماضية لاستخدام الأفعال بصيغة الماضي. ولكن من المهمّ معرفة ورود نبوءات الكتاب المقدّس بصورة عامّة بالزمن الماضي، وهو أسلوب كتابة يعرف باسم الزمن النبويّ التامّ. ويستخدم لوصف وقائع مستقبليّة قطعيّة الحدوث، بحيث يشار إليها في الزمن الماضي كما لو أنّها وقعت بالفعل. (٢) ويعلّق الحاخام إسحق بن يداياه Isaac ben Yedaiah علىٰ هذا الأسلوب قائلا:

سار [الحاخامات] أصحاب الذاكرة المباركة، بكلامهم ذاك، علىٰ خطىٰ الأنبياء الذين تحدّثوا عن حدث سيحصل في المستقبل بلغة الماضي. ولأنّهم رأوا بعين النبوّة ما سيقع في المستقبل، فقد تكلّموا عنه في الزمن الماضي وشهدوا بيقين علىٰ حدوثه، ليعلّموا حتميّة كلام [ربّهم] – المبارك – وقطعيّة وعده الذي لا يخلفه ورسالته الصادقة التي لا تحرّف. (٣)

---

(١) الكلمات بين معكوفتين مضافة بناء على نص الكتاب المقدس باللغة الإنكليزية. وقد استبدلت عبارة و"معه عشرة آلاف قديس" بـ "من ربوات القدس" في ترجمة الكتاب المقدس العربية.

(2) Roy B. Zuck, Basic Bible Interpretation, p. 117.

(3) Robert Chazan, Daggers of Faith, p. 87.

ونجد الكثير من الأمثلة علىٰ هذا الأسلوب في العهد القديم، كما في قصّة نوح عليه السلام علىٰ سبيل المثال:

ولكن أقيم عهدي معك، فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. [التكوين ٦:١٨]

يأمر الله هنا نوحا عليه السلام ببناء الفلك. وبعد إطلاعه علىٰ كيفيّة البناء، يخبر النصّ بقول الله: "**فتدخل الفلك**". لكن بناء الفلك لم يكن قد بدأ بعد في تلك الفترة، وعندما تمّ الانتهاء من بنائه في نهاية المطاف، يتابع الله قائلا لنوح عليه السلام: "**ادخل أنت وجميع بيتك إلىٰ الفلك...**" [التكوين ٧:١]. يبيّن الزمن النبويّ التامّ بجلاء في سفر التكوين ٦:١٨ دخول نوح عليه السلام الفلك. ويذكر بأنّ معظم الترجمات الإنكليزيّة للكتاب المقدّس تعمد، منعا لوقوع القارئ في الالتباس، إلىٰ استبدال الكلمة بعبارة من قبيل "**وستدخل الفلك**".

ويتجسّد المثال الآخر في قصّة يوسف عليه السلام:

ثمّ [قامت] بعدها سبع سنين جوعا، [فنسي] كلّ الشبع في أرض مصر و[أتلف] الجوع الأرض. [التكوين ٤١:٣٠]

عندما قام يوسف عليه السلام بتفسير حلم الملك، تنبّأ بقدوم سبع سنوات من الشبع تليها سبع سنوات من الجوع. وعندما وصف سنوات الجوع السبعة، استخدم الزمن النبويّ التامّ، مشيرا إليها بالزمن الماضي للتأكيد. ولتجنّب اختلاط الأمور علىٰ القارئ، تَستخدم كلّ نسخة إنكليزيّة تقريبا كلمة "**سيظهر**" الجوع. نستنتج من هذه الأمثلة بأنّ استخدام الزمن الماضي، لا يجرّد هذه الآية من رداء النبوءة، إذ لا بدّ من أخذ السياق الذي جاءت فيه بعين الاعتبار. وبالعودة إلىٰ سفر التثنية إصحاح ٣٣، يشير السياق المباشر للآيات إلىٰ بركة بارك بها موسىٰ عليه السلام بني

إسرائيل: **"وهذه هي البركة التي بارك بها موسىٰ رجُلُ الله بني إسرائيل..."**. تنسجم فكرة كون هذه الآية نبوءة مع سياق البركة بشكل تامّ، لأنّها تعني قيام موسىٰ عليه السلام بإعطاء أتباعه علما نافعا يتجلّىٰ عبر تزويدهم برؤىٰ مستقبليّة.

ولمعرفة كيفيّة إشارة تلك الآيات وتسلسلها إلىٰ الديانات الإبراهيميّة الثلاث: اليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام، سنقوم بتقسيم هذه النبوءة إلىٰ جزأين:

١ . ذكر سيناء، وسعير، وفاران.

٢ . قدوم عشرة آلاف قدّيس وشريعة.

وسنقوم بمناقشة كلّ من هاتين النقطتين بإسهاب:

١ . ذكر سيناء، وسعير، وفاران

" فقال: جاء الربّ من سيناء وقام لهم من سعير وأشرق من جبل فاران..."

نرىٰ هنا بوضوح ذكرا لثلاثة أماكن. تقع سيناء في مصر التي جاء موسىٰ عليه السلام منها برسالة من الله، كما توضّح عبارة **"جاء الرب من سيناء"**. أمّا سعير فهو تلميح إلىٰ فلسطين، حيث إن جبل سعير يقع في مملكة إدوم القديمة التي كانت في فلسطين. وهذا بحسب مفسّري العهد القديم: **"سعير هي الأراضي الجبليّة للأدوميّين علىٰ الشرق من سيناء"**.[1] وفلسطين هي المكان الذي ظهر فيه عيسىٰ عليه السلام بإشارة إلىٰ الله: **"وقام لهم من سعير"**. تحدّد هذه الجزئيّة من النبوءة المكان الذي سيرسل فيه الله عيسىٰ عليه السلام كنبيّ، قبل ألف عام من ولادته.

والسؤال الكبير هنا هو: ما الموقع الذي يشير إليه الجزء الأخير من هذه النبوءة

(1) Keil-Delitzsch, Commentary on the Old Testament", 1991, p. 497.

الذي يقول: "**وأشرق من جبل فاران**"؟ في الوقت الذي يختلف فيه جغرافيّو الكتاب المقدّس حول الموقع المحدد لفاران، إلا أنّهم يجمعون علىٰ وجوده في مكان ما في الجزيرة العربيّة. ونقرأ في تفسير كلارك للكتاب المقدّس Clarke's Commentary on the Bible الآتي:

لقد سكن في صحارىٰ فاران – التي تعدّ بصورة عامّة جزءًا من صحراء المقاطعة العربيّة البترائيّة المتاخمة لجبل سيناء؛ ويبدو ذلك المعنىٰ المجمع عليه في الكتابات المقدّسة.

ويقول معجم سترونغ للكتاب المقدس Strong's Bible Dictionary أنّ فاران هي صحراء في الجزيرة العربيّة:

H6290 pâ'rân From H6286; ornamental; Paran, a desert of Arabia: – Paran .

H6290 فاران من H286؛ زخرفي؛ فاران، صحراء في الجزيرة العربيّة: - فاران.

وكتب سيبيوس، الأسقف والمؤرّخ الأرمينيّ من القرن السابع الميلادي، عند وصفه لغزو العرب الذي حصل في زمانه قائلا بأنّ العرب "**احتشدوا وخرجوا من فاران**".[1]

وتفيد موسوعة الكتاب المقدّس Encyclopaedia Biblica التي قام بتحريرها ريفرند تي كاي شاين Reverend T. K. Cheyne بأنّ "**فاران تشير إلىٰ اسمي قبيلة عربيّة هي فرّان أو فاران**".[2]

---

(1) Sebeos, The Armenian History of Sebeosi, pp. 95 – 97.

(2) Reverend T. K. Cheyne, Encyclopaedia Biblica, p. 3583.

في الواقع، يمكننا حصر هذا المكان بشكل أكبر، حيث تدعم الدراسات الأكاديميّة الحديثة الرأي القائل بأنّ فاران كانت بكلّ تأكيد في جزء من الجزيرة العربيّة يسمّىٰ بالحجاز، وهو ما يعرف اليوم بغرب المملكة العربيّة السعوديّة. ويبيّن عرفان شهيد، أحد أبرز المرجعيّات في العالم المتخصّصة في مجال جغرافيّة الجزيرة العربيّة قبل الإسلام والتاريخ، وجود مكان كان يسمّىٰ فاران في الحجاز يعود لقبيلة سُليم.[1] وارتأىٰ حسيب شحادة، عالم وأستاذ جامعيّ "إسرائيليّ" في ترجمته للنسخة السامريّة من التوراة، تحديد صحارىٰ فاران بصحراء الجزيرة العربيّة الغربيّة، التي تعرف اليوم باسم الحجاز.[2]

وباختصار، لقد شاهدنا أنّ الشقّ الأول من النبوءة، يسلط الضوء علىٰ قدوم ثلاثة أشخاص مهمّين: موسىٰ في سيناء، وعيسىٰ في فلسطين، وشخصيّة ثالثة في غرب المملكة العربيّة السعوديّة.

٢. قدوم عشرة آلاف قدّيس وشريعة

يقودنا ذلك إلىٰ الشقّ الثاني من النبوءة: **"وأتىٰ ومعه عشرة آلاف قدّيس، وعن يمينه نار شريعة لهم"**.

والسؤال الذي يجب طرحه هنا، هو من هو الشخص الذي ذهب إلىٰ الجزيرة العربيّة أو خرج منها بعشرة آلاف قدّيس وبشريعة بيده اليمنىٰ؟ كما رأينا، يعدّ الموقع الثالث، أي فاران، إشارة مباشرة إلىٰ غرب المملكة العربيّة السعوديّة. ويصدف بأنّ هذا المكان هو المكان الذي ولد فيه النبيّ محمّد ﷺ بالضبط، وهي

---

(1) Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, p. 325.

(2) Professor Haseeb Shehada, Translation of the Samaritan Torah, p. 90.

مكّة التي تقع في غرب المملكة العربيّة السعوديّة. كانت الغالبيّة العظمىٰ من المكّيّين في تلك الفترة من القرن السابع مشركين؛ ثمّ في عام ٦١٠م، اختار الله محمّدًا ﷺ نبيًا له، وبدأ بدعوة الناس إلىٰ التوحيد. كانت دعوة محمّد ﷺ خاصّة في البداية، وكان أتباعه يعمدون إلىٰ الاجتماع سرّا. وعندما جهر بدعوته في نهاية المطاف، لاقىٰ هو وأتباعه الأوائل شتّىٰ ألوان العداء. ووضعته مهمّته لإصلاح المجتمع، والتي تضمّنت الدعوة إلىٰ نبذ عبادة الأوثان، والدفاع عن حقوق الفقراء والمساكين، في حالة صدام مع قبائل مكّة الثريّة والقويّة.

شنّ زعماء مكّة حملة بطش شعواء علىٰ ما رأوه دينا منافسا يهدّد ميزان القوىٰ. وعلىٰ مدىٰ عقد من الزمن، عانىٰ المسلمون من اضطهاد شديد قاسوا فيه الضرب، والتعذيب، والسجن، فضلا عن مقتل عدد منهم. كما قام زعماء مكّة بالتوقيع علىٰ صحيفة مقاطعة، نتج عنها حصار اقتصاديّ واجتماعيّ كامل لمحمّد ﷺ وأصحابه، بالإضافة إلىٰ القبائل المتعاطفة معهم. اضطرّ محمّد ﷺ وأصحابه تحت هذه الظروف إلىٰ مغادرة منازلهم، والانتقال إلىٰ شعب مكّة. كافح المسلمون للصمود في ذلك الوادي الصحراويّ الأجدب القاسي، لثلاث سنوات متتالية، في ظلّ منع الطعام والدواء عنهم. وخلال ما يعرف بعام الحزن، توفّي أبو طالب عمّ محمّد ﷺ، ليخلفه أبو لهب، العدوّ الأكبر للإسلام وعدوّ محمّد ﷺ اللدود، في تزعّم القبيلة، وضيّق الخناق علىٰ المجتمع المسلم الفتيّ، وبعد معاناة استمرّت لقرابة عقد ونيّف، غادر محمّد ﷺ وأصحابه مدينتهم الأمّ مكّة هربا من الاضطهاد، مخلّفين وراءهم أملاكهم وممتلكاتهم التي استولىٰ عليها أعداؤهم.

وصل المسلمون إلىٰ المدينة المنوّرة بسلام؛ وهناك نجحوا في إعادة توحيد صفوفهم، وازدهرت أحوالهم، إلّا أنّ اضطهاد أعدائهم لهم لم ينته، حيث شنّت قبائل مكّة عدّة حروب ضدّهم علىٰ مدىٰ السنوات العشر التالية. وفي عام ٦٢٩م،

نقض المكّيّون صلحا كانوا قد أبرموه مع المسلمين، ما حدا بمحمّد ﷺ قيادة جيش قوامه عشرة آلاف مسلم في عودة مظفرة إلىٰ مدينتهم الأمّ، بعد حوالي عقد، من إجبارهم علىٰ الفرار منها. ويعرف هذا الحدث التاريخي باسم فتح مكّة:

روىٰ ابن عباس: أنّ النبيّ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك علىٰ رأس ثماني سنين ونصف، من مَقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلىٰ مكّة.[1]

يعدّ هذا الحدث تحقيقا لما تنبّأ به الكتاب المقدّس من قدوم عشرة آلاف قدّيس إلىٰ مكّة. وهؤلاء القدّيسون هم العشرة آلاف مسلم الذين رافقوا النبي ﷺ في الفتح، وأطاعوا الله ورسوله في كلّ شأن من شؤون حياتهم.

لم يصل محمّد ﷺ إلىٰ مكّة بجيش وحسب، لكنه أحضر معه القرآن الكريم، الشريعة التي أنزلها الله عليه بواسطة جبريل عليه السلام. لقد كان القرآن الكريم الكتاب الذي حكم بموجبه محمّد ﷺ في جميع القضايا، بما في ذلك مصير أهل مكّة. وقبل إعطاء أوامره بدخول مكّة، عهد محمّد ﷺ إلىٰ أصحابه ألّا يقاتلوا إلّا مَن قاتلهم. كما أوصاهم بعدم وضع يدهم علىٰ أيّ مُلكية متحرّكة وغير متحرّكة تعود للمكّيّين، أو تخريب أي شيء فيها.[2] دخل الجيش المسلم إلىٰ مكّة بشكل سلميّ. لم يقم بنهب البيوت أو إيذاء رجل أو امرأة أو حتّىٰ إهانتهما. وكان أوّل ما قام به النبيّ ﷺ هو التوجّه نحو الكعبة، التي يعتقد المسلمون بقيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنائها كمكان لعبادة الإله الواحد، ثمّ حوّلها مشركو مكّة فيما بعد إلىٰ بيت تُعبد فيه الأوثان، وعمد إلىٰ تكسير الأصنام مردّدا الآية الكريمة: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ. إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ثمّ ذهب

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٤٢٧٦.

(٢) سيرة ابن هشام. ٣-٤: ٣٤٦.

إلىٰ المهزومين الذين كانت فرائصهم ترتعد خوفا ممّا سيفعل بهم الفاتح المنتصر. سيطر الرعب علىٰ أهل مكّة، لأنّ العرب عاشوا بنظام الأخذ بالثأر المبنيّ علىٰ الانتقام والقتل. وتوقّع الكثير منهم نوعا من العقاب بحسب عاداتهم، وكان محمّد ﷺ يملك القوة لتنفيذ هذا العقاب، لكنّه عفا عنهم جميعا قائلا لهم: **"لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين"**.[1]

كان محمّد ﷺ يستطيع الثأر من أولئك الذين نكّلوا به علىٰ مدىٰ سنوات طويلة، لكنّه آثر العفو عنهم عوضا عن ذلك. وجاءت رحمته منسجمة مع أحكام العدل في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾. [النساء: ١٣٥] فالعفو عن الآخر في مواضع الضعف التي لا تملك فيها خيارا آخر، يختلف كثيرا عن العفو عنه وبيدك كلّ أسباب القوّة ضدّ أعدائك ومضطهديك العتاة. وهذه واحدة من صفات محمّد ﷺ الجميلة التي حوّلت ضغينة مبغضيه إلىٰ محبّة، كما يشهد القرآن الكريم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾. [الأنبياء: ١٠٧]

تتمثّل النقطة الأخرىٰ التي يجدر تسليط الضوء عليها في سفر التثنية إصحاح ٣٣: ٢ في تسلسل الأحداث التي تعكس ترتيب تنزيل التوراة، متبوعا بالإنجيل ثمّ ختاما القرآن:

وهذه هي البركة التي بارك بها موسىٰ رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال. جاء الرب من سيناء وقام لهم من سعير وأشرق من جبل فاران وأتىٰ ومعه عشرة آلاف قدّيس وعن يمينه نار شريعة لهم. [التثنية ٣٣: ١-٢]

ولاحظ اللغة التي استخدمها لوصف هذه الأحداث:

---

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى. ٢: ١٤٢.

- **"جاء الربّ من سيناء..."**

- **"...وقام لهم من سعير"**

- **"...وأشرق من جبل فاران"**

وصف الله التنزيل الأول قائلا: **"جاء الرب"**، وقال عن التنزيل الثاني: **"قام لهم"**، أما التنزيل الثالث فبيّنه بـ **"وأشرق"**. يضفي هذا الوصف شعورا بأنّ هذه النبوءة كانت تحاول مقارنة التوراة بطلوع الفجر، ومقارنة الإنجيل بشروق الشمس حيث يزيد به النور والهداية، ثم تشبيه القرآن باستقرار الشمس في كبد السماء مع انتشار نور الله وهديه، ليعمّ الشرق والغرب بصورة أسرع وأوسع من التنزيلين السابقين.

وباختصار، يمكن القول بتحقّق نبوءة الكتاب المقدّس بالحرف مع قدوم نبيّ الإسلام. فلم يحدث في تاريخ البشريّة قاطبة قيام شخص بالخروج من الجزيرة العربية في هكذا ظروف، ومعه عشرة آلاف قدّيس، وشريعة سوىٰ النبيّ محمّد ﷺ.

النبوءة العربية في سفر أشعياء إصحاح ٤٢

تتجلّىٰ إحدىٰ أقوىٰ النبوءات المتعلّقة بمحمّد ﷺ وأكثرها وضوحا في الكتاب المقّدس، في الإصحاح الثاني والأربعين من سفر أشعياء الذي يغدق علىٰ نفسه صفة نبوءة متعلّقة بالمستقبل: **"هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مُخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها"** [أشعياء ٤٢ : ٩].

يتناول الإصحاح برمّته الحديث عن قدوم شخص واحد: شخصيّة رسوليّة؛ مِلك نبيّ؛ ذي سلطة دنيويّة وروحيّة؛ ومرتبط بالجزيرة العربيّة. سنبادر الآن إلىٰ تحليل الآيات الأساسيّة في سفر أشعياء إصحاح ٤٢.

صفات العبد القادم

يبدأ أشعياء السفر الثاني والأربعين بلفت انتباهنا إلىٰ شخص مميّز جدّا سيرسله الله:

هو ذا عبدي الذي أعضده، مُختاريَ الذي سُرّت به نفسي. وضعتُ روحي عليه فيُخرج الحقّ للأمم. [أشعياء ٤٢ : ١]

لنحلّل الآن هذه الآية بالتفصيل. يبدأ أشعياء بوصف هذا الشخص علىٰ أنّه:

"...عبدي الذي أعضده مُختاري الذي سُرّت به نفسي..."

يعرف محمّد ﷺ بأنه عبد الله. وهذا ما بيّنه ﷺ عن نفسه قائلا: **"لا تُطْروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنّما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله".**[1] أمّا لفظ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٤٢٧٦.

"**مُختاري**" فتدلّ على اختيار الله لهذا الشخص لغاية مهمّة كالنبوّة. وقول أشعياء بأن الله "**سيُسر**" بهذا الشخص فذلك يعني صلاح هذا الشخص في عين الله وطاعته له.

كما يبيّن أشعياء بأن الله سيمدّ هذا النبي بمَلَك، مشيرا إليه بـ"**روح**":

"**...وضعتُ روحي عليه...**"

ما هي هذه الروح التي يتحدث عنها أشعياء؟ إن اللفظ العبري المستخدم للفظ "روح" في أشعياء ٤٢ هو "**رواش**"، وهو لفظ استخدم للإشارة إلى الملائكة في كلّ العهد القديم. نجد على سبيل المثال في سفر زكريّا الآتي:

هذه هي أرواح (رواش) السماء الأربع خارجة من الوقوف لدى سيّد الأرض كلّها. [زكريا ٦: ٥]

يفسّر معظم المفسّرين الكبار للكتاب المقدّس لفظ الأرواح الأربعة (رواش) بالملائكة الأربعة. ويشير كتاب الملاحظات المرجعيّة لسكوفيلد Scofield Reference Notes في تفسيره لسفر زكريا ٦: ٥ إلى الآتي:

إنّ ما ترمز إليه العربات الأربعة مع أحصنتها، ليس إمبراطوريّات دانيال الأربعة، وإنّما 'أرواح (رواش) السماء الأربع [الـ]خارجة من الوقوف لدى سيّد الأرض كلّها... و'هذه 'الأرواح' هي ملائكة...

تتّفق ملاحظات ألبرت بارنز على الكتاب المقدّس Albert Barnes' Notes on the Bible في تفسيرها مع الرأي السابق أعلاه حيث تقول:

لا يمكن لأرواح السماء الأربعة أن تعني الريح على نحو حرفيّ: لأنّ الأرواح، وليس الريح، هي التي تمثُل بين يدي الله، كعبيده، كما جاء في سفر أيوب: 'وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله [الملائكة] ليمثلوا أمام الربّ' ...

وبالتوازي، يذكر شرح غيل لكامل الكتاب المقدّس Gill's Exposition of the Entire Bible الآتي:

هذه هي أرواح السماء الأربع؛ أو، "ريح السماء الأربع"... أطلق على الملائكة لفظ "الأرواح" أو "الريح"، المزامير ١٠٤: ٣. إنّها أرواح مخلوقة، لذا تختلف عن الله، وروحانيّة، لذا تختلف عن البشر؛ وغير مادّيّة وخالدة، لذا لا تموت: إنّها كائنات روحانيّة، وأرواح السماء، أو أرواح سماويّة.

كما يؤكّد القرآن بأنّ روح الله، الذي يعتقد المسلمون بأنّه الملك جبريل عليه السلام، نزل على محمّد ﷺ بأمر من الله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا. مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]

ويمضي أشعياء موضحا عدم اقتصار دعوة العبد القادم على قومه وحسب، وامتدادها لتشمل جميع أمم العالم.

"... فيُخرج الحقّ للأمم"

إنّ الكلمة المترجمة بـ"**الحقّ**" في أشعياء ٤٢: ١ هي المرادف العربيّ لكلمة "مِشبات" بالعبرية التي تعني أيضا الحُكم وفقا لمعاجم الكتاب المقدّس العبريّة. وحقيقة قيام هذا النبيّ بإقامة حُكم لأمم العالم كافّة، هي نقطة تستحقّ التأمل. لم يدعُ أنبياء بني إسرائيل أحدا غير الإسرائيليّين، في حين أنّ محمّدًا ﷺ، نبيّ الإسلام، أتى بحُكم لكلّ العالم كما هو مبيّن تاريخيّا. ونضيف إلى ذلك أنّ أغلب المرجعيّات التي علّقت على سفر أشعياء، فسّرت هذا الحُكم على أنّه شامل، بمعنى كونه أسلوبِ حياة كاملاً ، وهو ما يمثّله الإسلام. يذكر أستاذ اللغة العبريّة كريستوفر

نورث Christopher North في معرض تفسيره لسفر أشعياء ٤٢ : ١ بأنّ:

معظم المفسّرين يلاحظون استخدام لفظ "مشبات" بشكل مطلق، من دون أداة تعريف، وبأنّها تحمل المعنىٰ الشامل للدين الإسلاميّ "الحُكم" الذي يشمل الإيمان والعمل معا.[1]

وفي الآية الثانية، يمضي أشعياء في إعطاء بعض ملامح شخصيّة هذا العبد المميّزة: **"لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته."** [أشعياء ٤٢ : ٢]. تتطابق شخصيّة محمّد ﷺ وصفاته مع ما تصفه تلك الآية. ويشهد صحابته علىٰ أنّه لم يكن صخّابا في الأسواق.[2] ويأمر القرآن فيما يتعلّق بهذا الصدد بالآتي: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ. إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان: ١٩]. وإذا كان المقصود بعبارة " **لا يصيح**" "**عدم التذمّر من المهمّة التي أوكلها الله إليه**"، فإنّ ذلك يسري علىٰ محمّد ﷺ، حيث إنّه لم يتذمّر قطّ طوال حياته من المهمّة التي أوكلها الله إليه، علىٰ الرغم من وطأة الشدائد والمحن التي تعرّض لها في سبيل تبليغها.

مكان عبد الله وردّات الفعل حوله

يكشف أشعياء تفصيلين مهمّين للغاية، يتعلّقان بمكان عبد الله وردّة فعل الناس عند قدومه:

لترفع البريّة ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار. لتترنّم سكّان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا. [أشعياء ٤٢ : ١١]

---

(1) Christopher North, The Second Isaiah: Introduction, Translation and Commentary To Chapters XL–LV, p. 108.

(٢) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٢١٢٥.

سنقوم في البداية بتحليل المكان. تعدّ "قيدار" و"سالع" (أو سلع) الكلمتين المفتاح اللتين تحدّدان معًا المكان الدقيق لهذا الشخص المميّز. ومن بين جميع الأماكن التي كان بإمكان أشعياء ذكرها، اختار تسليط الضوء علىٰ قيدار وسالع، لذا لا بدّ من إيلاء هذا الشيء اهتمامًا خاصًّا.

من هو قيدار، وأين سكن؟ يخبرنا العهد القديم بأنّ قيدار هو أحد أبناء إسماعيل "**وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبئيل ومبسام**" [التكوين ٢٥: ١٣]. ويرتبط قيدار ونسله بصورة خاصّة بالجزيرة العربيّة: "**العرب وكلّ رؤساء قيدار هم تجّار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة. في هذه كانوا تجّارك**" [حزقايل ٢٧: ٢١].

يعرّف معجم سميث للكتاب المقدّس Smith's Bible Dictionary قيدار بأنّه:

...اسم قبيلة عربيّة عظيمة سكنت الشمال الغربيّ من شبه الجزيرة العربيّة... وبأنّها قطنت قرىٰ أو مدنا كما نرىٰ في سفر أشعياء (أشعياء ٤٢: ١١). ويبدو أنّ هذه القبيلة كانت الأبرز من بين جميع القبائل الإسماعيليّة (العرب)... [1]

ويناقش تفسير كيل - ديليتزش للعهد القديم The Keil-Delitzsch Commentary on the Old Testament مسألة استخدام أشعياء للفظ قيدار معتبرا أنّ: "**اسم قيدار هنا يشير إلىٰ الاسم الجامع لقبائل العرب عامّة**". [2]

ويربط النقشان الآشوريان أدناه، اللذان يعودان إلىٰ القرن السابع ق. م، ملك العرب بأرض "قيدار":

---

(1) Smith's Bible Dictionary, 1884, p 370.

(2) Keil-Delitzsch, Commentary on the Old Testament, p. 253.

الملك آسرحدون، المنشور أ ٤، السطر ٦ – ٩	الملك آشوربنيبال، المنشور ب ٧، السطر ٩٣ – ٩٦
حزائيل، ملك العرب، مع هديّة ثمينة جاء إلىٰ نينوىٰ، مدينة سلطاني قبّل قدميّ وتوسّل لي من أجل آلهته. وشعرت بالشفقة	يثع بن حزائيل ملك أرض قيدار قدّم الولاء لي جاءني للحديث بشأن آلهته (و) توسّل ملكي

ولنقارن وصف الملك حزائيل بـ"**ملك العرب**"، مع الوصف الذي أعطي لابنه الملك يثع بأنّه "**ملك أرض قيدار**". يُظهر ذلك ارتباط أرض العرب بقيدار حتّىٰ في الأزمان المتأصّلة في القدم.

لقد أثبتنا استيطان قيدار في الجزيرة العربيّة. وفي الواقع، لقد سكن قيدار جزءًا محدّدًا من الجزيرة العربيّة يعرف بالحجاز، وهي اليوم المنطقة الغربيّة من المملكة العربيّة السعوديّة. ويؤكّد عالم الكتاب المقدّس تشارلز فوستر Charles Foster عيش قيدار في غرب المملكة العربيّة السعوديّة (الحجاز):

وفيما يتعلّق بأرض قيدار علىٰ وجه التحديد، فإنّ أيّ شخص علىٰ دراية بجغرافيّة الجزيرة العربيّة سيحدّدها بأدقّ صورة ممكنة، علىٰ أنّها منطقة الحجاز [غرب المملكة العربيّة السعوديّة]، بما فيها مدينتاها الشهيرتان مكة والمدينة.[1]

(1) Charles Foster, The historical geography of Arabia, p. 130.

كما تنصّ الكتابات التي تعود إلىٰ فترة ما قبل الإسلام، علىٰ استيطان قيدار وأبنائه غرب المملكة العربيّة السعوديّة، وتولّي نسله شؤون الحكم في تلك المنطقة منذ ذلك الوقت.(١)

وباختصار، لقد أثبتنا قيام قيدار ونسله باستيطان جزء محدّد من الجزيرة العربيّة، تعرف اليوم بالمملكة العربيّة السعوديّة. وفي الواقع، يمكننا حصر هذا المكان بصورة أكبر، حيث إنّ أشعياء ربط قيدار عند ذكره بـ"**سالع**".

"لترفع البريّة ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار. لتترنّم سكّان سالع..."

ولكن أين تقع "**سالع**"؟ لا بدّ للمكان الذي تتحدّث عنه هذه الآية، أن يكون المدينة المنوّرة، لأنّ سالع يعود لاسم جبل معروف فيها. ولنتذكّر بأنّ المدينة المنوّرة هي المكان الذي احتضن النبيّ ﷺ بعد فرار المسلمين من بطش أهل مكّة. ويَرِد ذكر جبل سالع في عدد من روايات أصحاب النبيّ ﷺ، نذكر منها علىٰ سبيل المثال:

... فبينا أنا جالس علىٰ الحال التي ذكر الله عزّ وجلّ منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبت، سمعت صوت صارخ أوفىٰ علىٰ سلع يقول بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدا وقد عرفت أنّه قد جاء فرج. (٢)

... وَلاَ وَاللهِ مَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ ، وَلاَ قَزَعَةً وَلاَ شَيْئًا وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ ، وَلاَ دَارٍ...(٣)

وبالإضافة إلىٰ ارتباطه بقيدار وسالع جغرافيًّا، فإنّ نسب محمّد ﷺ مرتبط بهما

---

(1) Abulfeda, Historia Anteislamica, Fleischer edition, p. 192.

(٢) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٤٤١٨.

(٣) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٨٩٧.

كذلك. ونستطيع سياقة نسبهﷺ إلىٰ إبراهيم عليه السلام من خلال قيدار:

إبراهيم >> إسماعيل >> قيدار >> عدنان >> كنانة >> غالب >> مرّة >> قصي >> هاشم >> عبد المطلب >> عبد الله >> **محمد**

توثّق إحدىٰ أقدم ترجمات محمّد ﷺ الواردة في طبقات ابن سعد (المتوفي في ٨٤٥ م) إحدىٰ سلاسل النسب التي تؤكّد كون محمّد ﷺ من أبناء إبراهيم عليه السلام المباشرين من طريق حفيده قيدار. ويذكر معجم هايدن للكتاب المقدّس Hayden's Bible dictionary: **"يقال بأنّ محمّدًا من بني قيدار"**.[١]

وبعدما بيّنّا مكان قيدار وسالع علىٰ أنّهما المدينة المنوّرة، نستطيع الانتقال إلىٰ تحليل الشقّ الآخر من النبوءة. ولنتذكّر بأنّ أشعياء لم يكشف لنا مكان عبد الله فقط، وإنّما وصف لنا ردّة فعل الناس عند قدوم المنتظر.

"... لتترنّم سكّان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا..."

تقول النبوءة بأنّ أهل سالع سيترنّمون فرحا. والمدهش هو قيام أشعياء بتوصيف ما جرىٰ بالتحديد عند وصول الرسول ﷺ إلىٰ المدينة المنوّرة، من ابتهاج أهلها وتهليلهم:

ما رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بشيءٍ، فَرَحَهُمْ برسول الله حتَّىٰ جعل الإماء يقلن: "قدم رَسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ".[٢]

فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ لَيْلًا، فَتَنَازَعُوا أَيُّهُمْ يَنْزِلُ عليه رَسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ، [...] فَصَعِدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَوْقَ البُيُوتِ، وَتَفَرَّقَ الغِلْمَانُ وَالْخَدَمُ في الطُّرُقِ، يُنَادُونَ:

---

(1) A Bible Dictionary, Hayden Series, edited by Rev. Charles Boutell, p. 386.

(٢) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٣٩٢٥.

يا مُحَمَّدُ يا رَسولَ اللهِ، يا مُحَمَّدُ يا رَسولَ اللهِ.[1]

لم يقم أهل المدينة باستقبال أحد آخر بهذه الحفاوة على الإطلاق. ويُعدّ محمّد ﷺ الشخص الوحيد في التاريخ الذي يتحقّق فيه تنبّؤ أشعياء.

الأمور التي سيأتي بها عبد الله

يكشف أشعياء بأنّ العبد القادم سيأتي بالحقّ وبشريعة جديدة:

لا يكلّ ولا ينكسر حتّى يضع الحقّ في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته. [أشعياء ٤٢ : ٤]

يذكر الجزء الأوّل من هذه الآية بأنّه:

"لا يكلّ ولا ينكسر حتّى يضع الحقّ في الأرض..."

في بداية رسالته، عندما كان المسلمون في موضع ضعف وهوان، عُرض على النبيّ ﷺ كلّ مكسب دنيويّ يمكن للإنسان أن يتخيّله، لحثّه على التوقّف عن نشر رسالة الإسلام. وعندما أدرك أعداؤه أنّ شيئا لن يثنيه عن نشر رسالته، لجأوا إلى أساليب أكثر عنفا، فواجه النبيّ اضطهادًا وعداوة شديدين، غير أنّه لم يتخلّ عن رسالته. لم يركن إلى الراحة حتّى أقام حُكم الإسلام المتين قبل وفاته، ولم ييأس على الرغم من الصعاب التي نزلت به في المعارك. بل على العكس، يخبرنا القرآن عن اشتداد إيمان النبيّ ﷺ والصحابة عند تفوّق أعدائهم عليهم من حيث العدد. نجا النبيّ ﷺ من عدّة محاولات لقتله، وأكمل مهمّته، وأقام العدل بالحُكم بين الناس وفقا لأحكام الله. لقد اكتملت رسالة الإسلام ولا ريب، إذ يقول الله في محكم

---

(١) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٢٠٠٩.

كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣]

أمّا الجزء الثاني فيقول:

" ...وتنتظر الجزائر شريعته"

يطلعنا أشعياء هنا بأنّ عبد الله سيأتي بشريعة جديدة. ولفظ "**شريعة**" المستخدم في الترجمة العربيّة هو المرادف للفظ "**توراة**" في اللغة العبريّة التي تعني التعليم أو الشريعة. وبحسب مفسّري الكتاب المقدّس، فإنّ هذه الكلمة "**تحمل بحسب السياق الكامل لهذه الفقرة معنىٰ "الوحي" تقريبا**".[1] لاحظ بأنّ أشعياء أفاد بانتظار الجزائر لشريعته، ما يوحي بأنّه سيأتي بشيء جديد، شيء مختلف، لأنّ شريعة موسىٰ عليه السلام كانت قائمة في الوقت الذي جاء فيه أشعياء بهذه النبوءة. والنقطة الأخرىٰ هي استخدام لفظ "**ستنتظر**" في المستقبل، الأمر الذي يلمّح مجدّدًا إلىٰ أنّها شريعة جديدة، لذا يستبعد كونها إشارة إلىٰ توراة موسىٰ عليه السلام. يتطابق القرآن الكريم الذي أنزل علىٰ محمّد ﷺ مع هذا الوصف بشكل تامّ، حيث إنّه كتاب جديد نزل بعد أشعياء:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ. فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ...﴾ [المائدة: ٤٨]

لم يغيّر قدوم النبيّ ﷺ في القرن السابع الميلادي وجه الجزيرة العربيّة وحسب، وإنّما طال تأثيره أراضيَ أخرىٰ أيضا، مع انتشار الإسلام السريع شرقا وصولا إلىٰ شمال الصين، وغربا حتّىٰ جنوب فرنسا. وشكّل مجيء الإسلام نقطة تحوّل مهمّة

(1) Christopher North, The Second Isaiah: Introduction, Translation and Commentary To Chapters XL-LV, p. 109.

في تاريخ الشعوب المضطهدة حول العالم؛ نذكر منها علىٰ سبيل المثال تحرير القدس. بقيت القدس قبل مجيء الإسلام خاضعة للاحتلال الرومانيّ وسطوته لأكثر من ٥٠٠ سنة. ويعود الفضل في تحرير الأرض المقدّسة من الاحتلال الرومانّي إلىٰ جيش إسلاميّ بقيادة أمير المؤمنين الصحابيّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويعلّق المناظر والكاتب اليهودي من القرن العاشر سليمان بن يروحيم Salmon Ben Yeruhim علىٰ هذا الحدث قائلا:

كما نعلم، لقد بقي الهيكل في قبضة الروم لأكثر من ٥٠٠ سنة، ولم يفلح [اليهود] في دخول القدس، وكلّ من دخل واكتشفت هويّته، انتهىٰ به المطاف مقتولا. ولكن عندما غادر الروم، برحمة إله إسرائيل، عقب انتصار مملكة بني إسماعيل، سمح لبني إسرائيل بالقدوم والعيش فيها.[1]

كان جبل الهيكل الذي يعدّ أقدس معلم دينيّ في اليهوديّة، عبارة عن ركام ومكبّ للنفايات في ظلّ الحكم الرومانيّ. وكان الروم يُلقون ملابس الحيض وكلّ أنواع القاذورات فيه.[2] وكان ذلك نتيجة النظرة المهيمنة في الكنائس تجاه اليهوديّة. وبالنسبة لآباء الكنيسة، كان فصل اليهود عن القدس ومحو كلّ معلم من معالم معبدهم، بمثابة عقاب إلهيّ. وعبّر الأب جيروم Father Jerome من القرن الرابع الميلادي عن رضاه عن اختفاء اليهود من القدس باعتبارهم أعداء للمسيحيّة:

حتّىٰ هذا اليوم، لا زال هؤلاء المستأجرون المنافقون ممنوعين من دخول القدس، عقابا لهم علىٰ قتل الأنبياء والنبيّ الأخير: ابن الله، إلّا إذا [أتوا] باكين، فإنّهم عندئذ سيسمح لهم بالندب علىٰ أنقاض المدينة مقابل بدل ماليّ. وكما اشتروا

---

(1) Salmon Ben Yeruhim, see manuscript from the Firkovitch collection, II, No. 1345.

(2) Moshe Gil, A History of Palestine 634-1099, p. 67.

دم المسيح، سيشترون دموعهم، لذا فحتّىٰ النحيب لن يعطىٰ لهم بالمجّان.(١)

طبَعَ الحُكم الإسلامي التسامح مع سكّان الأرض المقدّسة من اليهود والمسيحيّين علىٰ حدّ سواء. وأصبح عهدا تاريخيّا عاشت فيه مختلف الأديان في جوّ من السلام والوئام. ويكتب العالم البارز المتخصّص بالكتاب المقدّس مايكل كوغان Michael Coogan: "**لم تقم قوّات الخليفة عمر بذبح سكّانها، كما لم يقوموا بتدمير المعالم الدينيّة العائدة للمهزومين**".(٢) وكتب ثيودوسيوس Theodosius بطريرك القدس في القرن التاسع واصفا معاملة المسلمين للمسيحيّين بقوله: "**لقد أظهر لنا السراسنة [أي المسلمون] مودّة بالغة. لقد سمحوا لنا ببناء كنائسنا، وبممارسة شعائرنا من دون أيّ تضييق**".(٣)

كما أُعيد ترميم المواقع المقدّسة اليهوديّة؛ ويذكر سجلّ تاريخيّ من تلك الفترة عمليّة تنظيف جبل الهيكل علىٰ مرأىٰ من الخليفة عمر وإشرافه:

انضمّ جميع المسلمين في المدينة والولاية يشاركهم مجموعة من اليهود؛ ثمّ صدرت لهم أوامر بإخراج المخلّفات من الهيكل وتنظيفه، وعمر يراقبهم كلّ الوقت. وكلّما ظهر أثر حجر، سأل شيوخَ اليهود عنه، كما قام أحد الحكماء بترسيم حدود المكان، حتىٰ تجلّت معالمه بالكامل.(٤)

وفتحت القدس أبوابها أمام الشعب اليهوديّ مرّة أخرىٰ، وعاش بسلام مع العرب. وكتب العالم اليهوديّ البارز من القرن التاسع الميلادي دانيال القموسي Daniel al-Qumusi الآتي:

---

(1) Ibid, p. 69.

(2) Michael D Coogan, The Oxford History of the Biblical World, 2003, p. 443.

(3) Christopher J. Walker, Islam and the West, p. 17.

(4) Moshe Gil, A History of Palestine, 634-1099, p. 71.

لم يكن بمقدورهم الذهاب إلىٰ القدس قبل مجيئه، وكانوا يأتون من أركان الدنيا الأربعة إلىٰ طبريا وغزّة لرؤية الهيكل؛ ولكنّه أدخلهم عندما جاء إلىٰ القدس، وأعطاهم مكانا، واستقرّ الكثير من بني إسرائيل هناك؛ وأتىٰ الناس بعد ذلك من أقطار الدنيا كافّة إلىٰ القدس للتبشير والصلاة.(١)

يشهد التاريخ علىٰ حقيقة وصول الإسلام إلىٰ بلدان كثيرة، استقبلتهم شعوبها استقبال الفاتحين؛ وهذا حدث في سوريا، ومصر، وإسبانيا.(٢) ومع قدوم الإسلام، انهارت القوىٰ المُتجبّرة التي كانت تحيط بالجزيرة العربيّة الواحدة تلو الأخرىٰ، واستطاعت الشعوب العيش بسلام منذ ذلك الوقت. ولكن ما الذي دفع محمّدًا ﷺ وأتباعه إلىٰ تحرير جيرانهم من الظلم، وعدم الاكتفاء بتحرير أقوامهم فقط؟ ينصّ القرآن الكريم علىٰ وجوب نصرة المستضعفين بغضّ النظر عن خلفيّاتهم ومكانهم:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]

القوم الذين سيُبعث فيهم

يبيّن أشعياء الجمهور المستهدف بالعبد القادم:

أنا الربّ قد دعوتُكَ بالبرّ فأُمسِكُ بيدِكَ وأحفظُكَ وأجعلُكَ عهدا للشعب ونورا للأمم. [أشعياء ٤٢: ٦]

---

(1) Ibid, p. 69.

(٢) يرجى العودة إلى فصل "Impact on Society" من إصدار IERA: The Eternal Challenge: A "Journey Through the Miraculous Qur'an" للمزيد من المعلومات حول المسألة. ويمكن تنزيل النسخة المجانية عبر الرابط التالي: www.onereason.org/eternalchallenge

يُقصد بالأمم هنا غير اليهود؛ لذا يشدّد أشعياء في هذا الموضع علىٰ المهمّة الشاملة للعبد القادم. يؤكّد القرآن الكريم علىٰ إرسال محمّد ﷺ للبشرية قاطبة، أمميّين ويهودًا علىٰ السواء: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [سبأ: ٢٨]

ثمّ يذكر أشعياء ما قاله الله عن نفسه:

وأُسيِّر العُميَ في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أُمشيهم... [أشعياء ٤٢ : ١٦]

يسري هذا الوصف علىٰ العرب المشركين في زمن محمّد ﷺ بدقّة متناهية، لأنّهم لم يبعث فيهم رسول قبل محمّد ﷺ. ويشهد القرآن علىٰ ذلك حيث يقول الله عزّ وجلّ بأنّ هدف بعثة محمّد ﷺ: ﴿...**لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ**...﴾ [السجدة: ٣]

ويُلقي أشعياء الضوء علىٰ عبادة الأصنام قائلا:

أنا الربّ هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات. [أشعياء ٤٢ : ٨]

ويعدّ ذلك نقطة محدّدة جدًّا في هذه النبوءة. كانت الجزيرة العربيّة في بداية بعثة النبيّ ﷺ مرتكزة علىٰ عبادة الأصنام التي ينحتونها. وكان لقوم النبيّ ﷺ من أهل مكّة ٣٦٠ صنما للعبادة كلّ واحد منها موكل بإنجاز مهمّة محدّدة خاصّة به. ويصف الله عزّ وجلّ ما كان من أمرهم علىٰ النحو الآتي:

﴿**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد: ١٦]

يبدو جليًّا في الآية أعلاه إدانة الله لعبدة الأوثان لِما أعطوا الأخشاب والأحجار المنحوتة من صفات إلهيّة. وتشير الآية الواردة في سفر أشعياء إصحاح ٤٢، إلىٰ أنّ الله لن يعطي مجده لأحد آخر كما لن يعطي تسبيحه للمنحوتات. كان النبيّ ﷺ يواجه بشكل لا لبس فيه قوما نسبوا للمنحوتات صفات الله، وكانت مهمّة النبيّ ﷺ الرئيسة إعادة عظمة الألوهيّة لله وحده.

إنجازات عبد الله

يعطي أشعياء قائمة بالإنجازات الآنيّة التي سيحقّقها العبد القادم:

الربّ كالجبّار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوىٰ علىٰ أعدائه. [أشعياء ٤٢: ١٣]

يؤكّد أشعياء هنا بلغة الوحي انتصار العبد القادم علىٰ أعداء الله. خاض النبيّ ﷺ ٢٧ معركة بنفسه، واستخدم أعداؤه كلّ السبل الممكنة للقضاء علىٰ الإسلام، لكنّهم فشلوا، لأنّ الله وعد بحماية رسوله. وفي غزوة الخندق (وتسمّىٰ أيضا بغزوة الأحزاب لانضمام الكثير من القبائل ضده)، حاصر أكثر من عشرة آلاف رجل المدينة المنوّرة، لكنّهم عجزوا عن هزيمة النبيّ ﷺ وأصحابه.

وانتصر الإسلام واستمرّ.

يصف المؤرّخ هارود جونسون Howard Johnston انتصار الإسلام بقوله: **"قلّما نجد، هذا إن وجدنا، مجموعة أفكار كان لها هذا القدر الكبير من التأثير علىٰ المجتمعات البشريّة كما كان للإسلام، لا سيّما في النصف الأوّل من القرن السابع. وفي حوالي عشرين سنة، تغيّر الوجه الدينيّ والسياسيّ في الجزيرة العربيّة بصورة جذريّة. وفي خلال عشرين سنة أخرىٰ، تمّ غزو بلدان العالم الغنيّة كافّة، والمتقدّمة**

والقويّة عسكريًا التي كانت تحيط بالجزيرة العربيّة، باستثناء آسيا الصغرىٰ وشمال أفريقيا". [1]

ويتابع أشعياء ذاكرًا بأنّ أعداء الله المشار إليهم في النبوءة أعلاه، هم عبدة الأصنام، ومؤكّدا علىٰ هزيمتهم:

قد ارتدّوا الىٰ الوراء. يُخزىٰ خزيا المُتّكلون علىٰ المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتنّ آلهتنا. [أشعياء ٤٢ : ١٧]

ونرىٰ هنا دلالة واضحة علىٰ عبدة الأوثان. يخبرنا الله بأنّه سيخزي عبدة الأوثان بسبب كفرهم بالله الواحد الحقّ، إله إبراهيم، وموسىٰ، ومحمّد عليهم السلام. خاض النبيّ ﷺ معظم حروبه ضدّ المشركين الذين هُزموا في نهاية المطاف يوم فتح مكة. وكُسّرت الأصنام الثلاثمائة والستّون التي كان يعبدها المكّيّون. وفقد المشركون سلطتهم إلىٰ الأبد مع تخلّي ٢٠٠٠ مكّيّ عن الشرك واعتناق الإسلام. وكما بيّنّا في سطور سابقة، كانت هذه الواقعة هي المُتنبّأ بها في سفر التثنية إصحاح ٣٣ : ٢ حيث رافق النبيّ ﷺ ١٠ آلاف صحابيّ، وعُرض علىٰ أهل مكّة شريعة الإسلام. لقد كانت مكّة أكبر مقرّ لعبادة الأوثان في الجزيرة العربيّة، غير أنّها توقّفت عن أداء وظيفتها كمركز للوثنيّة في ٢٣ سنة فقط من البعثة النبويّة. لم يغز النبيّ ﷺ مكّة عاصمة الوثنيّة وحسب، لكن جزءٌ كبيرٌ من الجزيرة العربيّة لفظ الوثنيّة وعبَدَ الله الواحد الحقّ في آخر أيّام حياته صلّىٰ الله عليه وسلّم.

---

(1) James Howard-Johnston, Witnesses to a World Crises, 2010, pp. 357 – 358.

لماذا يغفل الناس عن مثل هذه النبوءات؟

قد تتساءل محتارا: إذا كانت هذه النبوءات في الكتاب المقدّس تتحدّث فعلا عن محمّد ﷺ، فلماذا تغيب عن وعي العلماء اليهود والمسيحيّين؟ وللحصول على جواب شاف عن هذا السؤال، ينبغي معرفة وجود قبائل يهوديّة مختلفة في المدينة وحولها قبل قدوم النبيّ ﷺ. ويدوّن المؤرّخون اليهود والتاريخ الإسلامي هذه الحقيقة. وسجّل المؤرّخ الأميركيّ وأبرز مؤرّخ عن اليهود في عصره سالو بارون Salo Baron في كتابه Social and Religious History of the Jews (تاريخ اليهود الاجتماعيّ والدينيّ):

ازداد الوجود اليهوديّ وتأثيره في المنطقة بصورة ملموسة في القرون القليلة الأولى من العصر المسيحيّ. ويثبت ذلك إشارات التعاطف الكبير مع اليهود واليهوديّة في الأدب العربيّ قبل الإسلام. ومع حلول القرن السادس، بدا جليّا هيمنة القبائل اليهوديّة على يثرب (المدينة)... [1]

وكتب المؤرّخ الأميركيّ ألكسندر ماركس Alexander Marx، والنحويّ الأميركيّ ماكس مارغوليس Max Margolis في كتابيهما A History of the Jewish People (تاريخ الشعب اليهوديّ) الآتي:

في الشمال الغربيّ من شبه الجزيرة العربيّة، سيطر اليهود على الواحات على طول خطّ طريق القوافل الممتدّ من الشمال إلى الجنوب. وكانت تيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى في قبضتهم، كما قاموا على أغلب تقدير بإنشاء يثرب (المدينة

---

(1) Salo Baron, Social and Religious History of the Jews, Chapter XVI The Pre-Islamic World.

لاحقا)... وفي اليمن، ساعدت صناعاتهم وتجاراتهم في إنعاش ازدهار البلد.[1]

وبحسب المؤرّخ الاسكتلنديّ وأستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلاميّة مونتغمري وات، فقد سيطرت القبائل اليهوديّة في السابق علىٰ الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة في المدينة.[2]

أمّا الجواب علىٰ سؤال سبب وجود عدّة قبائل يهوديّة في المدينة، فيكمن في دراية علمائهم بنبوءات كتلك التي نجدها في سفري التثنية وأشعياء، وانتظارهم قدوم النبيّ الجديد بفارغ الصبر. ويروي ابن هشام في السيرة ما كان يدور بين أهل المدينة العرب وجيرانهم اليهود واستفتاح اليهود عليهم بظهور النبيّ ﷺ واتّباعهم له: **"لمّا كنّا نسمع من رجال يهود، [و] كنّا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنّه [قد] تقارب زمان نبيّ يبعث الآن نقتلكم معه..."**[3]

يثبت القرآن هذا الأمر بقول الله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** [الشعراء: ١٩٧] ونستطيع معرفة المزيد عن هذه القبائل اليهوديّة بالعودة إلىٰ المصادر الإسلاميّة المتقدّمة. تشير هذه المصادر إلىٰ أنّه إلىٰ جانب وجود أعداد ضخمة من القبائل اليهوديّة النافذة، كانت هناك مدينة يهوديّة كبيرة تسمّىٰ خيبر، وكانت من بين القبائل الأكثر نفوذا فيها، قبيلتا بني النضير وبني قريظة اللتان كانتا تعرفان بـ'الكاهنين'؛[4] حيث كانتا تزعمان رجوع نسبهما إلىٰ 'الكاهن' ابن النبيّ هارون عليه السلام. وكاهن هو المرادف العربي للفظ 'كوهين' العبريّ. ولقد

---

(1) Max L. Margolis and Alexander Marx, A History of the Jewish People, NY. 1927, p. 248.

(2) Montgomery Watt, Muhammad in Medina, p. 192.

(٣) سيرة ابن هشام، ١-٢: ٢٠٧.

(4) Norman Stillman, The Jews of Arab Lands: A History and Source Book, p. 9.

نصّت الشريعة اليهوديّة في العهد القديم علىٰ حصر نسب الكهنة القائمين علىٰ خدمة الهيكل في أبناء هارون عليه السلام. كما كان النبيّ ﷺ يسمّي صفيّة، ابنة زعيم قبيلة بني النضير بابنة النبيّ هارون.[1]

وبالمجمل، تكشف المصادر الإسلاميّة المتقدّمة الأمور الآتية عن يهود المدينة:

- كونهم جزءًا من قبائل كبيرة سبق مجيئها قدوم النبيّ ﷺ إلىٰ المدينة؛
- ادّعاء بعض هذه القبائل عودة نسبها إلىٰ هارون عليه السلام، الأمر الذي يشير إلىٰ خلفيّتهم الكهنوتيّة؛
- لزوم إحاطتهم بمضامين كتاباتهم المقدّسة بصورة عميقة، وذلك لمعرفتهم بقرب قدوم النبيّ الجديد إلىٰ المدينة.

هذا ونجد تأييدا لذلك في المصادر اليهوديّة المتقدّمة. يفيد تلمود القدس، ويعرف أيضا باسم التلمود اليروشلمي، الذي يضمّ شروحات الحاخامات في القرنين الرابع والخامس، بأنّ الكهنة اليهود من حقبة الهيكل الأوّل، سافروا إلىٰ الجزيرة العربية وعاشوا وسط بني إسماعيل: "**فرّ ٨٠ ألف كاهن شابّ من جيوش نبوخذ نصّر، وذهبوا إلىٰ بني إسماعيل...**"[2] كما يفسّر تلمود القدس الآية ٢١ من سفر أشعياء علىٰ أنّها إشارة إلىٰ الكهنة المغادرين:

هذا ما كُتب عن 'قوافل في بلاد العرب'، قوافل ضخمة في بلاد العرب. تشير آية 'في وعر في بلاد العرب تبيتين' [أشعياء ٢١: ١٣] إلىٰ أن أولئك الذين كان يفترض تواجدهم في وعر لبنان [الهيكل، سفر الملوك الأوّل ٧: ٢]، 'سيبيتون في بلاد

(١) ذكره الترمذي في السنن. حديث # ٣٨٩٤، وانظر أيضا حديث # ٣٨٩٢.

(2) See translation of Jerusalem Talmud, Ta'anit 4.5 by Heinrich W. Guggenheimer, Tractates Ta'aniot, Megillah, Hagigah and Mo'ed Qatan (Masqin), p. 174.

العرب'.[1]

إنّ القول بانتظار القبائل اليهوديّة لخروج نبيّ في الجزيرة العربيّة، مؤيّد في الواقع بمؤلّفات أخرىٰ كأسرار الحاخام شمعون بن يوحاي Simon ben Yohai، وهو رائيّ يهوديّ من القرن الثامن الميلادي، قدّم تفسيرا يهوديّا تبشيريّا عن قدوم الإسلام. ويحتوي علىٰ تأييد لمهمّة محمّد ﷺ، وتأكيدا علىٰ الدور الإلهيّ الذي كلّف به العرب لتخليص اليهود من الاضطهاد:

عندما رأىٰ مملكة إسماعيل التي كانت قادمة، بدأ يقول: "ألم يكف ما فعلته بنا مملكة أدوم الشرّيرة، بل علينا أن نتحمّل مملكة إسماعيل أيضا؟" وللحال أجاب ميتاترون أمير التأييد وقال: "لا تخف، يا ابن الإنسان، لأنّ القدوس المبارك لا يأتي بمملكة إسماعيل إلّا ليخلّصكم من هذا الشرّ. إنّه يقيم عليهم نبيًّا بحسب إرادته، وسوف يغزو الأرض لأجلهم، وسوف يأتون ويستردّونها بعظمة، وسيكون هنالك رعب عظيم بينهم وبين أبناء عيسو". أجاب الحاخام شمعون وقال: "كيف لنا أن نعرف أنّهم خلاصنا؟" أجاب: "ألم يقل النبيّ أشعياء أنّه رأىٰ ركبا، أزواج فرسان، إلخ؟"[2]

نلمس من هذه العبارات عمق فهم الحاخامات في القرن الثامن للغزوات الإسلاميّة. وذكرت بعض النقاط الأساسيّة الآتية:

- **"لأنّ القدّوس المبارك لا يأتي بمملكة إسماعيل إلّا ليخلّصكم من هذا الشرّ..."**

- **"إنّه يقيم عليهم نبيّا بحسب إرادته، وسوف يغزو الأرض لأجلهم، وسوف**

(1) Ibid.

(2) John C. Reeve, Trajectories in Near Eastern Apocalyptic: A Post Rabbinic Jewish Apocalypse, pp. 10 – 11.

يأتون ويستردّونها بعظمة..."

- "ألم يقل النبيّ أشعياء أنّه رأىٰ ركبا، أزواج فرسان..."

ما توضّحه هذه العبارات، هو تقبّل العلماء اليهود الأوائل لفكرة خروج نبيّ من رحم العرب، ونرىٰ أنّ بعضهم فسّر مقاطع من سفر أشعياء علىٰ أنّها نبوءات تحقّقت بظهور النبيّ ﷺ. كما نسب بعض العلماء المسيحيّين الأوائل سطوع شمس الإسلام لله عزّ وجلّ، وربطوه بنبوءات الكتاب المقدّس. وعلّق يوحنا بن الفنقي John Bar Penkaye وهو راهب مسيحيّ من القرن السابع الميلادي، شهد الفتوحات الإسلاميّة الأولىٰ قائلا:

عندما أطيح بمملكة الفرس في عهد الملك كسرىٰ، سيطرت مملكة أبناء هاجر علىٰ العالم بأسره إلىٰ حدّ ما، لأنّهم استولوا علىٰ مملكة الفرس بالكامل، بعدما أجهزوا علىٰ جميع مقاتليها الذين كانوا يتفاخرون بإجادتهم لفنون الحرب. ولا يجب اعتبار نهوض (أبناء هاجر) أمرا عاديّا بسيطا، بل لا بدّ من وضعه في إطار التخطيط الإلهيّ. فقبل دعوتهم، أعدّهم (الله) مسبقا لحُسن معاملة المسيحيّين، لذا أعطاهم أمرا خاصّا بشأن أديرتنا، وضرورة احترامها. الآن، عندما جاء هؤلاء القوم، بأمر الله، واستولوا علىٰ ما كان يعرف بالمملكتين بصورة سلميّة من دون اللجوء إلىٰ حروب ومعارك، كإطفاء مِيسم متّقد، ومن غير استخدام الأسلحة والوسائل البشريّة. لقد وضع الله النصر في أيديهم لكي يسمح للكلمات التي كتبت عنهم أن تبصر النور، ولا سيّما، "يطرد واحد ألفا ويهزم اثنان ربوة." فأنّىٰ لعراة، يقاتلون بلا دروع أو تروس، إحراز النصر لولا المساعدة الإلهيّة. لقد ناداهم الله من أقصىٰ أقطار الأرض ليدحر بهم "مملكة آثمة"، وليذلّ بهم نفوس الفرس المتغطرسة.[1]

---

(1) John Bar Penkaye, quoted by Walter E. Kaegi, Byzantium and the Early Islamic Conquest, Cambirdge, 2000, p. 216.

وأسلّط الضوء هنا على بعض النقاط الأساسيّة الواردة أعلاه:

- **"لا يجب النظر اعتبار نهوض (أبناء هاجر) أمرا عاديّا بسيطا، بل لا بدّ من وضعه في إطار التخطيط الإلهيّ..."**

- **"لقد وضع الله النصر في أيديهم لكي يسمح للكلمات التي كتبت عنهم أن تبصر النور، ولا سيّما، "يطرد واحد ألفا ويهزم اثنان ربوة"."**

واقتبس يوحنّا ابن الفنقي أعلاه سفر التثنية من العهد القديم، كنبوءة تحقّقت على يد المسلمين الأوائل: **"كيف يطرد واحد الفا ويهزم اثنان ربوة لولا أنّ صخرهم باعهم والرب سلّمهم.** [التثنية ٣٢: ٣٠]

كما اعتنق عدد من العلماء اليهود والمسيحيّين الأوائل الإسلام مع قدوم النبيّ ﷺ. ومن الأمثلة على ذلك الحبران اليهوديّان عبد الله بن سلام وكعب الأحبار اللذان كانا من أبرز العارفين بالتوراة في زمن النبيّ ﷺ.[1]

ومع الأسف، قلّما نجد هذا الاعتراف الصريح بورود ذكر محمّد ﷺ في الكتاب المقدّس في أيّامنا هذه، لأنّ العلماء اليهود والمسيحيّين لم يعودوا يدرّسون النسب التوراتيّ لمحمّد ﷺ. وأصبح الإصحاح ٣٣ من سفر التثنية والإصحاح ٤٢ من سفر أشعياء وما يماثلهما نبوءات مُحرّمة. ولا نقصد بمُحرّمة هنا بأنّها ممنوعة عن العامّة، إذ لا زالت مكتوبة في كلّ الكتب المقدّسة، ويمكن لأيّ شخص الاطّلاع عليها؛ غير أنّها أصبحت مُحرّمة لأنّ سياقها الصحيح كنبوءات عربيّة لم يعد يُدرّس، لذا فهي **"مخفيّة رغم أنّها على مرأى من الجميع"**، مع عدم إدراك معظم الناس بوجودها. ولقد رأينا سابقا في هذا الكتاب كيف نجح عدد من الأفراد بتضليل الجموع من خلال زعم معرفتهم بالمستقبل. ولكن ما يمارسه علماء اليهود والمسيحيّين، هو

---

(١) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٣٩١١.

نوع آخر من التضليل، وذلك من خلال طمس الحقائق. يعترف الكثير من هؤلاء العلماء بنبوّة محمّد ﷺ، وإن لم يقرّوا بذلك علىٰ الملأ. ويشهد القرآن الكريم علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم﴾** [الأنعام: ٦]. لماذا يريدون إذًا إخفاء هذه الحقيقة؟ قد تعود إحدىٰ الأسباب إلىٰ المكاسب الدنيويّة. يؤمن اليهود بأنّهم شعب الله المختار. وفي الوقت الذي يقول لنا الإسلام بأنّ الله فضّل الشعب اليهوديّ بعهدٍ منه في مرحلة من المراحل، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّهم أُعطوا عهدا خاصّا ساريا حتّىٰ قيام الساعة.

ومع مجيء النبيّ الأخير، لم يعد باستطاعة أيّ عرق أو قوميّة زعم اختيار الله لها دونًا عن غيرها؛ لأنّ التفاضل بين جميع البشر، يهودا أو غير يهود، أصبح مبنيّا علىٰ اتّباع هدىٰ الله، كما تنبّأ أشعياء: **"وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم"** [أشعياء ٤٢: ٦]. وتؤمن المسيحيّة بمفهوم الرهبانيّة الذي منح رجال الدين تاريخيّا أعلىٰ سلطة في المجتمع. وعليه، لا يعدّ مفاجئا خوف العلماء اليهود والمسيحيّين من بزوغ فجر الإسلام، إذا ما علمنا أنّه دين لا يمنح مكانة خاصّة علىٰ أساس العِرق، كما أن لا رهبانيّة فيه؛ وبالتالي فهو يقوّض من قوّتهم وسلطتهم علىٰ الناس.

أمّا المؤشّر الآخر علىٰ إخفاء النبوءات المتعلّقة بمحمّد ﷺ، فنجده في ازدواجية المنهجيّة المستخدمة في شرح نبوءات الكتاب المقدّس.

حيث يُدْعىٰ علىٰ سبيل المثال تحقّق أكثر من ٣٠٠ نبوءة في العهد القديم في شخص المسيح عليه السلام في العهد الجديد. ويؤمن المسلمون بأنّ المسيح نبيّ مُرسل من عند الله. لكن المشكلة في هذا الزعم، هو أنّه عندما نقوم بدراسة هذه النبوءات، نجد أنّ الكثير منها غير محدّد، ويجب التلاعب به لكي ينطبق علىٰ المسيح عليه السلام.

ونذكر أدناه مثالا من إنجيل متّىٰ يقول فيه:

فقام وأخذ الصبيّ وأمّه ليلا وانصرف إلىٰ مصر. وكان هناك إلىٰ وفاة هيرودس لكي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ: «من مصر دعوت ابني». [متّىٰ ٢: ١٤-١٥]

فبحسب إنجيل متّىٰ، فإنّ هذه نبوءة من العهد القديم تحقّقت في المسيح عليه السلام. ولكن عند العودة إلىٰ سفر هوشع في العهد القديم الذي يُنسب إليه هذا المقطع، سنجد بأنّه اقتبس نصف الجملة فقط:

لمّا كان إسرائيل غلاما أحببته، ومن مصر دعوت ابني. [هوشع ١١: ١]

يتبيّن لنا هنا عند قراءة الآية بكاملها، بأنّ النبوءة تصف حادثة سابقة هي خروج بني إسرائيل في زمن موسىٰ عليه السلام، وليست نبوءة عن المسيح عليه السلام.

وفي مثال آخر، يقتبس إنجيل متّىٰ من سفر أرميا في العهد القديم، نبوءة 'لم ترد' فيه:

حينئذ تمّ ما قيل بفم أرميا النبيّ: «وأخذوا الثلاثين من الفضّة ثمن المثمّن الذي ثمّنوه من بني إسرائيل. وأعطوها عن حقل الفخاريّ كما أمرني الربّ». [متّىٰ ٢٧: ٩-١٠]

يشير إنجيل متّىٰ هنا إلىٰ تنبّؤ أرميا بخيانة يهوذا للمسيح مقابل ثلاثين قطعة من الفضّة.

لكن المشكلة هي في عدم إمكانيّة إيجاد هذه النبوءة في سفر أرميا؛ لأنّها في الواقع واردة في سفر زكريّا:

فقلت لهم إنّ حَسُن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلّا فامتنعوا. فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضّة. فقال لي الربّ ألقها إلىٰ الفخّاريّ الثمن الكريم الذي ثمّنوني به. فأخذتُ الثلاثين من الفضّة وألقيتها إلىٰ الفخّاريّ في بيت الربّ. [زكريا ١١: ١٢-١٣]

ومن جهة ثانية، إذا قارنا تفاصيل النبوءة الواردة في إنجيل متّىٰ مع سفر أعمال الرسل، فإنّنا نجد تفاصيل متضاربة. ففي الوقت الذي يذكر فيه إنجيل متّىٰ "بأنّهم" (في إشارة إلىٰ كبار الكهنة) مَن قاموا بشراء حقل الفخّاريّ، يفيد سفر أعمال الرسل بأنّ **يهوذا** هو من اشترىٰ الحقل بنفسه:

فإنّ هذا [يهوذا] اقتنىٰ حقلا من أجرة الظلم، وإذ سقط علىٰ وجهه انشقّ من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلّها. وصار ذلك معلوما عند جميع سكان أورشليم، حتّىٰ دُعي ذلك الحقل في لغتهم «حقل دما» أي: حقل دم. [أعمال الرسل ١ : ١٨-١٩]

لم يفشل متّىٰ في تسمية السفر الصحيح الذي اقتبس منه وحسب، ولكنّه أعطىٰ تفاصيل مناقضة لتلك التي في سفر أعمال الرسل. وإذا كان العلماء المسيحيّون لا يجدون حرجا في قبول هذا المعيار للنبوءات المرتبطة بالمسيح، فينبغي عليهم من باب الإنصاف والثبات القبول بمحمّد ﷺ كنبيّ، لأنّ النبوءات التي كشفنا اللثام عنها بشأنه، أكثر جلاءً واتّساقا. لا بدّ للعلماء المسيحيّين من تبنّي منهجيّة منصفة وموحّدة عندما يتعلّق الأمر بإيجاد نبوءات عن المسيح عليه السلام ومحمّد ﷺ في العهد القديم. إذ لا يمكن وضع معايير خاصّة بمحمّد ﷺ وأخرىٰ خاصّة بالمسيح عليه السلام، لا سيّما عندما تكون النبوءات المتعلّقة بمحمّد ﷺ كما في الإصحاح ٣٣ من سفر التثنية والإصحاح ٤٢ من سفر أشعياء أكثر دقّة.

ويمكن إيجاد دليل آخر من التوراة علىٰ نبوّة محمّد ﷺ في الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية:

وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ. فما تكلّم به النبيّ باسم الربّ ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الربّ، بل بطغيان تكلّم به النبيّ فلا تخف منه. [التثنية ١٨ : ٢١-٢٢]

لا يمكن إلّا لنبيّ صادق من عند الله، أُعطي علم الغيب كجزء من وحي الله إليه، أن يأتي بتنبّؤات مستقبليّة مفصّلة ودائمة التحقّق. يجتاز محمّد ﷺ هذا الامتحان بلا شكّ، حيث رأينا في الفصل السابق تحقّق جميع نبوءاته، الأمر الذي يستوفي المعيار التوراتيّ. ولو التزم هؤلاء العلماء بمعيار الكتاب المقدّس لإثبات النبوّة، لوجب عليهم الإقرار علانيّة بنبوّة محمّد ﷺ.

لقد رأينا في الفصول السابقة بأنّ محمّدا ﷺ نبيّ صادق من عند الله، وذلك من زوايا مختلفة سواء كانت حياته، أو شخصيّته، أو تنبّؤاته الدقيقة. نستطيع أن نضيف إلىٰ ذلك قرائن خارجيّة تشير إلىٰ نبوّته، وتتمثّل في النصوص الدينيّة القديمة التي تنبّأت بخروجه قبل ولادته بآلاف السنين. لقد قمنا في هذا الفصل بتحليل نبوءتين في العهد القديم، هما سفر التثنية إصحاح ٣٣ وسفر أشعياء إصحاح ٢٤، تتنبّآن بوضوح بقدوم شخص استثنائيّ، سيغيّر العالم ويحمل الصفات الآتية:

- سيرتبط بفاران، وقيدار، وسلع. حيث يشير التحليل الدقيق لهذه الأسماء إلىٰ المدينتين العربيّتين مكّة والمدينة،

- سيرافقه عشرة آلاف قدّيس وشريعة جديدة،

- سيكون مقاتلا يخوض معارك مع قوم يعبدون الأصنام،

- سيجلب النور للأمم (أي غير اليهود)،

- سينشر السلام والعدل في العالم.

هل ظهر علىٰ مدىٰ آلاف السنوات التي مرّت علىٰ تلك النبوءات، شخصيّة تاريخيّة يمكن نسب هذه الأمور إليها؟ لا يمكن أن تكون هذه الشخصيّة أحدا غير محمّد ﷺ. ولا بدّ من التنويه إلىٰ أنّه علىٰ الرغم من ورود هذه النبوءات في الكتاب المقدّس، فإنّه لا ينبغي للمرء أن يكون يهوديّا أو مسيحيّا حتىٰ يسلّم بصحّتها،

لأنّها نبوءات قديمة مفصّلة، ومحمّد ﷺ هو الشخص الوحيد في التاريخ الذي تتمثّل فيه.

قد يشكّل ما توصّلنا إليه من أدلّة، صدمة لدىٰ بعضهم، لأنّ مثل هذه النبوءات قد جُرّدت إجمالا من سياقها العربيّ عند التطرّق إليها.

وقد نشهد ميلا إلىٰ تجاهل هذه المعلومات والتمسّك بالموروثات السابقة.

ثمّة شعار شهير في المسيحيّة يقول '**ما الذي كان سيفعله المسيح؟**' إنّ المسيح، أو أيّ شخص آخر يسعىٰ لمعرفة الحقيقة، كان ليسير بلا شكّ في طريق الحقّ بكلّ جوارحه، بغضّ النظر عن الوجهة التي سيوصله إليها.

الفصل الرّابع

الإسلام وآخر الزمان

الفصل الرّابع

الإسلام وآخر الزمان

لقد رأينا طوال رحلتنا في هذا الكتاب، الكمّ الهائل من أنباء الغيب التي أُعطيت للنبيّ ﷺ. وفي الواقع، تتخطّىٰ هذه التنبّؤات الأحداث التي تؤثّر علىٰ واقعنا الحاليّ، لتشمل الأحداث العظيمة التي ستقع قبيل نهاية العالم:

"لقد خطبنا النبيّ ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئًا إلىٰ قيام السّاعة إلّا ذكره".[(١)]

والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، ويقول الله سبحانه وتعالىٰ بأنّ عِلمها عنده وحده: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي**﴾ [الأعراف: ١٨٧]

ومع أنّ الله عزّ وجلّ وحده مَن يعلم وقت الساعة بالتحديد، إلّا أنّه أوحىٰ إلىٰ النبيّ ﷺ بعدد من العلامات الصغرىٰ والعلامات الكبرىٰ التي ستسبقها، لتبيان الزمن الذي تقترب فيه النهاية. ويُسهب الإسلام في تفصيل العلامات المتعلّقة بآخر الزمان. وقال النبيّ ﷺ بأنّ العالم سيغرق في يوم من الأيّام في شرور لم يُر لها مثيل. وسيكون وقتا عصيبا حتّىٰ علىٰ أولئك الذين يحاولون مقاومة الشرّ واتّباع الدين: **"يأتي زمان علىٰ أمّتي القابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ جمرة من النّار."** [(٢)] وسيتميّز هذا العصر بالفساد علىٰ مختلف الصعد، وبعيش الناس في فراغ روحيّ. وفي ظلّ هذه الأوضاع، ستشهد البشريّة وقوع واحدة من أعظم الفتن والمحن التي ستصيبها قطّ، وهي خروج الدجّال: **"ما بين خلق آدم إلىٰ قيام الساعة أمر أكبر من الدجّال"**[(٣)]

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٦٦٠٤.

(٢) رواه الترمذي في السنن. حديث # ٢٢٦٠.

(٣) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٢٩٤٦.

والدجّال هو المسيح الدجّال الذي يظهر مع اقتراب قيام الساعة، ويدّعي الألوهيّة في الأرض، ويأمر الناس بعبادته وطاعته. ولقد فصّل النبيّ ﷺ في وصف المظهر الخارجيّ للدجّال. كما كشف معلومات حوله لم يعرف بها أحد ممّن جاء قبله من الأنبياء: "**أقول لكم فيه قولا لم يقله نبيّ لقومه، تعلمون أنّه أعور، وأنّ الله ليس بأعور**".[1] وحدّد النبيّ ﷺ العين المصابة بالعمىٰ: "**إنّ المسيح الدجّال أعور عين اليمنىٰ، كأنّ عينه عنبة طافية**".[2] وأخبرنا بقيام الدجّال ببعض المعجزات التي ستذهل الناس كأمر السماء فتمطر، وبأن مَن يخضع له ينعم برغد العيش، ومَن يعرض عنه يعاني من عوز شديد:

يأمرُ السَّماءَ أن تُمْطِرَ فتُمْطِرَ، ويأمرُ الأرضَ أن تُنْبِتَ فتُنْبِتَ، وتَروحُ عليهم سارحتُهُم أطولَ ما كانت ذُرًىٰ، وأسبغَهُ ضروعًا، وأمدَّهُ خواصرَ، ثمَّ يأتي القومَ فيدعوهم فيردُّونَ عليهِ قولَهُ، فينصرِفُ عنهم فيُصبحونَ مُمحِلينَ، ما بأيديهم شيءٌ.[3]

سيعيث الدجّال في أقطار الأرض الفساد، وسيلتفّ من حوله عدد من الأتباع. ويخبر الرسول ﷺ أنّه علىٰ الرغم من هذه الفتنة الشديدة، سيبقىٰ عدد من المؤمنين الصادقين: "**لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين علىٰ الحق...**"[4] وفي ذلك الوقت يظهر رجل صالح يدعىٰ المهديّ، ليوحد صفوف المؤمنين تحت راية واحدة ويقودهم لقتال الدجّال. وفي تلك اللحظة المفصليّة من التاريخ، يرسل الله المسيح، عيسىٰ بن مريم عليه السلام. حيث يُعلّمنا الإسلام بأنّ عيسىٰ عليه السلام، علىٰ الرغم من كونه نبيّا عظيما من أنبياء الله، فهو مجرّد بشر مثله مثل محمّد وسائر أنبياء الله عليهم

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٣٣٣٧.

(٢) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٧٤٠٧.

(٣) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٢١٣٧.

(٤) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ١٩٢٠.

السلام. ينزل المسيح عليه السلام من السماء عند المنارة البيضاء شرق دمشق واضعا كفّيه علىٰ أجنحة ملكين. وينضمّ إلىٰ المهدي ومَن معه من المؤمنين، ويقتل الدجّال.[١] ويعيد المسيح عليه السلام إرساء السلام والعدل، وتحلّ البركة ويكثر المال علىٰ نحو لا يقبل فيه أحد الزكاة.[٢] وسيكسر الصليب في إشارة رمزيّة إلىٰ رفضه لتأليه المسيحيّين له بعد رفعه إلىٰ السماء. وسيعيش المسيح عليه السلام علىٰ الأرض أربعين سنة، يحكم في خلالها العالم. ثم يموت ويدفن.[٣]

يخبرنا الرسول ﷺ عن تحذير كلّ الأنبياء أقوامهم من الدجّال: **"إنّي لأنذركموه، وما من نبيّ إلّا أنذره قومه"**.[٤] بالإضافة إلىٰ ذلك، يخبرنا الله ببعثه نبيًا إلىٰ كلّ قوم في فترة من الفترات: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦]. لذا لا بدّ من وجود ذكر لأحداث مشابهة لتلك الموجودة في الأحاديث النبويّة في كتب الديانات السابقة. وهذا تماما ما نجده عند دراسة الديانتين الإبراهيميّتين اليهوديّة والمسيحيّة.

تتحدث اليهوديّة عن وقوع معارك كبرىٰ تتّحد فيها الأمم ضدّ المؤمنين. وتصف المسيح عليه السلام بأنّه مِلك ستشكّل مملكته قلب ممالك العالم، وسيؤذن قدومه بحلول حقبة من السلام لا تعكّر صفوها أيّة حروب. وسيقيم حكم الله علىٰ الأرض، وستعبد البشريّة إلها واحدا، وستعيش حياة أكثر روحانيّة وأخلاقيّة.[٥] وتقول المسيحيّة بأن الدجّال سيظهر في آخر الزمان، وستسري علىٰ يديه معجزات وإشارات ستضلّل الكثير من الناس، فيعود في تلك الأثناء المسيح إلىٰ

---

(١) ذكره مسلم في الصحيح. حديث # ٢٩٣٧.

(٢) ذكره البخاري في الصحيح. حديث # ٢٢٢٢.

(٣) ذكره أبو داود في السنن. حديث # ٤٣٢٤.

(٤) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٧١٢٧.

(٥) انظر العهد القديم، لا سيما سفر زكريا إصحاح ١٤، وسفر أشعياء إصحاح ٢، وسفر أشعياء إصحاح ١١.

الأرض، نازلا من السماء علىٰ السحاب. وسيقاتل الدجّال ويهزمه، ليقوم بعدئذ بوضع مملكة الله علىٰ الأرض.(١)

وتحتوي الزاردشتيّة التي تعدّ أحد أقدم الديانات علىٰ مفاهيم مشابهة، حيث تنصّ علىٰ دخول العالم في متاهة من الشرّ، يسود فيها الطمع والخداع. وستختفي الروابط الأسريّة والورع. وسيتّسم الحكّام بالفساد، بحيث لا يختلف قتل الصالح عندهم عن سحق ذبابة. وستدور معارك طاحنة، حتّىٰ ينتصر الخير علىٰ الشرّ في نهاية المطاف.(٢)

وتلتقي ديانات أخرىٰ مع الإسلام في هذا السياق. تذكر الهندوسيّة أنّه مع نهاية كلّ دورة في العالم، يأتي زمن اسمه الكالي يوغا Kali Yuga ويتّسم بالفسق، والعنف، والفساد. وهو عصر ظلاميّ تكثر فيه الخطايا وتنمو، وتضمحلّ فيه الفضيلة. ويخدع الناس بعضهم بعضا في البيع والشراء، ويستحلّون ما حرّم عليهم في النصوص الدينيّة. ويسرق ملوك الأرض شعوبهم ويتلذّذون بمعاقبة الأبرياء. وتكتسح المجاعة المناطق المأهولة بالسكّان نتيجة نقص الأمطار والمحاصيل. يعود مصدر كلّ الشرور في الديانة الهندوسية إلىٰ شيطان يسمّىٰ كالي Kali سيتجسّد علىٰ الأرض. وساعتئذ يظهر رجل قويّ الشكيمة، معظّم لله اسمه كالكي Kalki، فيهزم الشيطان كالي، ويعيد السلام والنظام إلىٰ العالم، مؤذنا بقدوم عصر جديد من الرخاء.(٣)

لا تعدّ هذه الأرضيّة المشتركة بين كلّ هذه الديانات القديمة مفاجئة، لأنّ النبيّ ﷺ أخبر عن إنذار الرسل لأقوامهم من الدجّال. وهذا يدلّ علىٰ علم النبيّ ﷺ

---

(١) انظر العهد الجديد، لا سيما إنجيل متّى إصحاح ١٦: ٢٨، وإصحاح ٢٤.

(2) See Zoroastrian text ‘Zand-i Wahman Yasn’, in particular chapters 4, 6 and 7

(3) See Hindu text Mahabharata, Vana Parva, Chapter 189.

بما سيحدث في المستقبل، وبما حدث في الماضي البعيد أيضا، ما يشكّل دليلا آخر من دلائل نبوّته. صحيح أنّ هذه الأديان المختلفة يؤيّد بعضها بعضا في الكثير من الجوانب المتعلّقة بآخر الزمان، إلّا أنّها تتناقض فيما بينها في الكثير من المسائل العقائديّة الأساسيّة. وهذا يعني أن ليس كلّ ما يُعلّمونه صحيحًا، لأنّهم يَخرجون بمزاعم مختلفة. لو كان أصل جميع تلك التعاليم من عند أنبياء موحىً إليهم من عند الإله نفسه، فالمنطق يقول بوجوب اتّسامها بالاتّساق من دون أيّ تناقضات.

وهنا يقفز إلىٰ ذهننا سؤال جوهريّ، كيف يمكن لباحث صادق عن الحقيقة التمييز بين ما قامت الديانات السابقة بتحريفه، وما يرجع إلىٰ نبيّ صادق من عند الله؟ لقد رأينا في الفصل الثاني، اشتمال القرآن الكريم والسنّة النبوية علىٰ الكثير من التنبّؤات المستقبليّة، الأمر الذي يثبت مصدرها الإلهي ومصداقيّتها.

كما رأينا بقاءهما من دون أيّ خطأ، بفضل حفظهما المستمرّ من قبل كثير من الناس عبر التاريخ، ما يعني أنّنا نستطيع التسليم بصحّة محتواهما، لأنّهما يعودان في سند متّصل إلىٰ النبيّ ﷺ. وفي الواقع، يوصف القرآن 'بالفرقان' أي "**المعيار الذي يفرق بين الحقّ والباطل**". فالقرآن لا يثبت فقط نزول النصوص المقدّسة السابقة، ولكنّه يقوّم أيضا التحريفات التي طرأت عليها: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾** [المائدة: ٤٨]

لماذا أطلعنا الله علىٰ بعض الرؤىٰ المستقبليّة؟ تجدر الإشارة إلىٰ أنّ النبوءات ليست للتسلية، لكنّها تخدم غاية سامية. لقد أحطنا سابقا في هذا الكتاب بالكثير من الأمثلة عن نبوءات وقعت كما أخبر النبيّ ﷺ. وهذه النبوءات هي وسائل يقيم بها الله الحُجّة علىٰ البشر بحقيقة وجوده، وبأنّه وحده القادر علىٰ إنزال مثل هذا العِلم علىٰ نبيّه. كما تسمح لنا بالتفريق بين أنبياء الله الصادقين، والكثير من مُدّعي النبوّة.

إنّها مرآتنا نحو المستقبل التي تساعدنا على التعرّف إلى الأشخاص والأحداث البارزة في المستقبل. ومن هذا المنطلق، تعدّ النبوءات دليلا إرشاديّا، لذا لا بدّ لنا من التعمّق بها لخيرنا في الدنيا. كما تحمل النبوءات في طيّاتها جانبا روحيّا: ترتبط الكثير من هذه النبوءات بعلامات يوم القيامة، لذا تعدّ كتذكرة للبشر، بأنّ كلّ نبوءة تتحقّق على أرض الواقع، تقرّبنا خطوة من اليوم الموعود الذي نقف فيه بين يدي الخالق. يذكّر الله عزّ وجلّ البشر في محكم كتابه قائلا: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**﴾ [الأنبياء: ١].

يخبر النبيّ ﷺ عن وقوع حدث فلكيّ عظيم مع اقتراب آخر الزمان: "**مَن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**".[1] وينبئنا بأنّ الله سيجعل الشمس تشرق من النصف الآخر من الكرة الأرضيّة، الأمر الذي يعدّ حدثا جللا للنسب الكونيّة، يشير إلى النهاية الوشيكة للعالم ونقطة اللاعودة للبشر، حيث لا يقبل الله من بعدها توبة الناس.

وهذه العلامة هي واحدة من العلامات الكبرى لقيام الساعة، ولقد تطرّقنا في هذا الكتاب إلى عدد من العلامات الكبرى التي ستحدث في المستقبل. قد يرى بعضهم أنّ مثل هذه النبوءات لا تعنيه، باعتبارها بعيدة التحقّق في المستقبل المنظور، وقد يشعر بالطمأنينة ظنًّا منه أنّ قيام الساعة حدث لا يستدعي القلق بشأنه في زماننا هذا. لكنّ الحقيقة بأنّ كلّ واحد منّا سيواجه نهاية زمان تتمثّل بالموت، لأنّ نهاية كلّ إنسان تبدأ في اللحظة التي يموت فيها.

الغد ليس مضمونا، والمقابر مليئة برفات أشخاص انتهت حياتهم في أكثر لحظة لم يتوقعوا الموت فيها. وحاول النبيّ ﷺ تسليط الضوء على هذا الأمر عند إجابته

---

(١) رواه مسلم في الصحيح. حديث # ٢٧٠٣.

علىٰ سؤال أعرابيّ له عن موعد قيام الساعة حيث قال: "**مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ رسولُ الله ﷺ: "مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟"**.[1]

ينقلنا ذلك إلىٰ الغاية من الحياة. ثمّة رأي شائع بأنّ الحياة مجرّد "**لعب ولهو**". ولكن هل هي فعلا كذلك؟ يعلّمنا القرآن بأنّ الحقيقة بخلاف ذلك: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**﴾ [الدخان: ٣٨]. ويخبرنا الله بأنّه خلقنا لغاية سامية: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]. يقتصر مفهوم العبادة في أفهام كثير من الناس علىٰ الصلاة، لكنّها تتجاوز ذلك في الإسلام، حيث تشمل الحبّ، والطاعة، وشكر الله علىٰ كلّ النعم التي أنعم بها علينا: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا...**﴾ [إبراهيم: ٣٤]. إنّ حياتنا هنا علىٰ الأرض هي بمثابة امتحان، وفي نهاية المطاف ستموت كلّ نفس وترجع إلىٰ بارئها: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

لم يخلق الله هذا الكون وكلّ ما فيه ليدع الناس تسير خلف أهوائها. إنّ الامتحان في هذه الدنيا هو لمعرفة مَن سيخضع لله ويتّبع هديه، ومَن سيرفض. إنّ الرسالة الأساسيّة للإسلام هي وجود إله واحد يستحقّ وحده العبادة. الله أزليّ، لا بداية له ولا نهاية. الله ليس بشرا، ولا يشبه أحدا من كائناته، بل هو خالق كلّ شيء، وليس كمثله شيء:

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

اللهُ الصَّمَدُ

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ. [سورة الإخلاص]

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٦١٧١.

وكما أنّ الحياة ليست لعبا ولهوا، كذا الموت ليس نهاية وجودنا، لأنّه يسطّر فصلا جديدا نعود فيه إلىٰ الله. لم يبعث الله النبيّ ﷺ ويرسل معه القرآن لهدايتنا في الحياة الدنيا وحسب، بل لإمدادنا بمعلومات وافرة عن زوال العالم وعن الحياة الآخرة الخالدة.

يكشف الإسلام أنّه بعد حلول العلامات الكبرىٰ كظهور الدجّال، والمهديّ، وعودة المسيح عليه السلام، سيدخل العالم في مرحلته الأخيرة. وفي ساعة يعلمها الله وحده، يصدر الأمر الإلهيّ بالنفخ في الصور، والذي يشير إلىٰ الحدث المهيب المتمثّل في بدء يوم الحساب. سيتردّد صدىٰ نفخ الصور علىٰ أسماع جميع الخلق. وستتشقّق السماء، وتزلزل الأرض، وتخرّ الجبال. يقول القرآن بأنّ كلّ شيء سيتدمّر ولن يبقىٰ مخلوق علىٰ قيد الحياة:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦]

ثمّ تكون نفخة ثانية تبعث جميع البشر إلىٰ الحياة مرّة أخرىٰ:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا. هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٢]

وسنقف علىٰ صعيد مستوٍ شاسع لا معالم فيه: **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾** [الكهف: ٤٧].

وستتحوّل الأرض علىٰ نحو تامّ: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [إبراهيم: ٤٨].

ويعلّمنا النبيّ ﷺ بأنّنا سنكون في حالة من الهلع ممّا يجري، حتّىٰ إنّه علىٰ الرغم من بعثنا عراة، وحفاة، وغير مختونين، فإنّ أحدًا منّا لن يكترث لذلك:

يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً، قلتُ: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلىٰ بعض؟، قال: "الأمر أهمّ من أن ينظر بعضهم إلىٰ بعض".[1]

يشرح القرآن بأنّ كلّ تلك السنوات والعقود التي عشناها علىٰ الأرض، وكلّ الملذّات التي تمتّعنا بها، والصعاب التي ألمّت بنا، ستصبح ذكرىٰ ماضية. فالحياة الدنيا ما هي إلّا قطرة في بحر بالمقارنة مع الحياة الآخرة. وبينما نحدّق بالخلود، يصبح الوقت الذي قضيناه في الدنيا كلمحة عابرة:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]

لقد دوّن كلّ فعل قمنا به في حياتنا، وسيسألنا الله عن كلّ قول وعمل: **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** [الزلزلة: ٦-٨]. وذكرنا سابقا بأنّ حياتنا علىٰ الأرض هي امتحان، ويعقب كلّ امتحان نتائج مرتقبة. فأولئك الذين آمنوا بالله، وعبدوه وحده من دون اتّخاذ شركاء معه، وعملوا الصالحات، سيجزون بنعيم الجنّة: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [البقرة: ٨٢].

وأمّا أولئك الذين اختاروا الكفر بالله وهديه، فسيؤول مصيرهم إلىٰ عذاب شديد في النار: **﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** [الملك: ٦]. يثيب الإسلام علىٰ فعل الخير، ويشكر للّذين يتّبعون الحقّ.

ويميّز بين من يطيع الله ويعمل الخيرات، ومن يفسق ويعمل **السيّئات:**

---

(١) رواه البخاري في الصحيح. حديث # ٦٠٧٥.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

القرار بأيدينا: إمّا أن نتمسّك برحمة الله التي وسعت كلّ شيء، أو نتخلّىٰ عنها. إنّ التمسّك برحمته من خلال اتّباع رسالته، وطاعته، وعبادته، وحبّه ستسهّل حصولنا علىٰ السعادة الأبديّة في الجنّة؛ أمّا التولّي عن رحمة الله والنأي بأنفسنا عنها، فسيقود في النهاية إلىٰ قضاء حياتنا الأبديّة في مكانٍ مجرّدٍ من محبّته، في جهنّم، دار الشقاء. تذكّر، لدينا كامل الحرّيّة في الاختيار: إمّا التمسّك برحمته وإمّا الفرار. فالقرارات التي نتّخذها في هذه الحياة سترسم مصيرنا في الآخرة.

قد ترغب في الحصول علىٰ إجابات عن هذه الأسئلة الوجوديّة، لكنّ الماضي ينفّرك بسبب بعض التجارب السيّئة التي مررت بها. لقد أدرك أناسٌ علىٰ مدىٰ التاريخ، الحاجات النفسيّة والروحيّة للنفس البشريّة. وفي الوقت الذي بذل فيه بعض الفلاسفة مساعٍ صادقة لكشف الحقائق الدفينة والعميقة للطبيعة الإنسانيّة لمساعدتنا في تحسين حياتنا، قام آخرون مع الأسف باستغلال هذه الحاجة، وخداع الناس لتنفيذ مآربهم الشخصيّة. ولقد رأينا أمثلة كثيرة عن مدّعين للنبوّة في هذا الكتاب. إلّا أنّ ذلك لا يعني بأنّ جميع الأديان سيّئة بالضرورة. وهذه مسألة محوريّة وخطأ شائع يرتكبه كثيرون. يعدّ الدين أداة فعّالة للسيطرة، وسيظهر دوما أشخاص يحاولون استغلاله، لكنّ هذا لا يعني التخلّي عن بذل قصارىٰ جهدنا من أجل التوصّل إلىٰ الحقيقة.

لقد قمنا في هذا الكتاب بتحليل أشهر نظم النبوّة في التاريخ. وأحطنا بعدد من المتنبئين، والنصوص المقدّسة القديمة، والأساليب، والخرافات التي تسيطر علىٰ حياة ملايين البشر، والتي أثبتت قصورها كلّها، باستثناء محمّد ﷺ، عند إخضاعها للاختبار. وتطال الأمثلة المتعدّدة التي عالجناها مجتمعات مختلفة عبر التاريخ، تشمل الفقير والغنيّ، والمتديّن واللادينيّ، والماضي السحيق والحاضر.

وعلىٰ الرغم من شيوع هذه المعتقدات والممارسات بين فئات من الناس أكثر من غيرها، واختلافها من مكان إلىٰ آخر، إلّا أنّها تخطّ نظريّا الطابع المميّز لكلّ ثقافة وُجدت علىٰ الأرض.

فإذا وصلتَ إلىٰ نهاية هذا الكتاب، فهذا قد يدلّ علىٰ اهتمامك بالغيبيّات، وإن لم تكن تعي هذا الشيء مسبقا.

يؤمن ملايين الناس اليوم بالمدعين، ويتّبعون أنظمة هدي خاطئة في حياتهم. إنّهم علىٰ استعداد لاتّباع مدّعي النبوّة، والأنظمة الوضعيّة، والخرافات الفارغة، لكنّهم يرفضون الهدي الحقيقيّ عندما يأتي من عند الله. عندما نملك وسائل الوصول إلىٰ هدي خالق الكون الذي يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، لماذا يميل الناس عن اتّباع هذا الهدي؟ تخيّل وجود أحد يملك الصورة الكاملة للوجود الإنسانيّ وإمكانيّة إحاطتنا بهذا العلم. تخيّل فقط كمّ النعم والمكاسب التي يمكن للمرء الحصول عليها إذا قام بتوجيه هذه الطاقة نحو الذي يملك فعلا الصورة الكاملة. أوحىٰ الله القرآن الكريم، الكتاب الخاتم المنزّل للبشريّة لدرئنا عن اتّباع الباطل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ. إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

لقد رأينا طوال رحلتنا في هذا الكتاب الشخصيّة الفريدة التي تمتّع بها النبيّ ﷺ، وما عُرف عنه من صدق حتىٰ في أوساط أعدائه. لم تفتر عزيمته في الدعوة للحقّ والعدل، وثبت في مهمّته الإلهية لتحرير البشريّة من الباطل. وأيّده الله برؤىٰ مستقبليّة استثنائيّة لمساعدتنا علىٰ التفريق بينه وبين مدّعي النبوّة الكثر. كما رأينا عددًا من الأدلّة الخارجيّة علىٰ نبوّة محمّد ﷺ في النبوءات القديمة الواردة في كتب الديانات الأخرىٰ كالكتاب المقدّس، والتي كان من شأنها أداء دور العلامة الدّالة علىٰ قدومه قبل ولادته بآلاف السنين. لقد قمنا بدراسة حياة محمّد ﷺ، وشخصيّته، وتعاليمه من جوانب مختلفة، أفضت جميعها إلىٰ استنتاج كونه نبيًّا صادقا.

يسعىٰ أتباع ديانات الزور والبهتان، والسّاعون للاستغلال والتضليل، إلىٰ إخفاء هذه الحقيقة عن الناس. تتمثّل مهمّتنا كبشر، في العمل بشكل دؤوب علىٰ إيجاد الحقيقة والخضوع لها إذا ما تجلّت أمام ناظرنا. فهل سينجح أولئك الذين يبيعون الحقيقة بثمن بخس في تضليلك، أم أنّك ستؤمن بأنّ الله وحده هو الجدير بالعبادة، وبأنّ محمّدًا ﷺ نبيّه ورسوله؟

إنّ الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ واتّباعه، يقود إلىٰ الطمأنينة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. أمّا عدم التسليم بنبوّته بعد السماع به وفهم رسالته، يعني الكفر بالله، الذي يؤدّي بالنتيجة إلىٰ عذاب السعير: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

للاطلاع على إصدارات المركز والشراء من متجر دلائل الإلكتروني :



https://dalail.center

لمتابعة جديد المركز وأخباره وعروض المبيعات :

- تليجرام - تويتر : (@Dalailcentre).
- واتساب : (00966539150340).

تتوفر كتبنا أيضاً في :

- جرير: (www.jarir.com).
- دار مفكرون - مصر :

- فيسبوك: (@mofakroun) - تويتر: (@mofakroun).
- تواصل: (00201110117447).

- جملون: (www.jamalon.com).
- النيل والفرات: (www.neelwafurat.com).

النبوءات المحرمة

« لم يفتر افتتان البشريّة بالنّبوءات منذ زمن كهنة هيكل دلفي لدى الإغريق ، وصولا إلى الاعتقاد الذي ساد عن نهاية العالم في عام 2012م . ويبدو أنّ النّبوءات المتعلّقة بآخر الزمان على وجه الخصوص ، هي التي تستحوذ على اهتمامات البشر ، وتَشيع في أوساطهم بشكل أوسع من ذي قبل ».

«. . . . نعيش اليوم في زمن تغلّفه الحيرة ، وتفتح أحداث العالم المستجدّة المجال أمام تكهّنات جديدة ، إلى جانب وجود سعي دائم لفهم ما يجري من حولنا ، عبر اللجوء إلى تنبّؤات الأنبياء والكهنة عبر التاريخ ».

« يقابل كلّ طلب كبير عرض يلبّي احتياجاته ، شأنه في ذلك شأن معظم أمور الحياة . ويزخر التاريخ بأسماء أشخاص وكتب مقدّسة تدّعي معرفة المستقبل . سنقوم في هذا الكتاب بدراسة مدى صدق الأنبياء الذين حظوا بثقة ملايين الناس ؛ إذ تتطلّب المزاعم الاستثنائيّة توافر أدلّة استثنائيّة ، وسنلجأ في استقصائنا عنها إلى استخدام عدد من الآليّات بغية وضع الأكثر شهرة من بينها تحت المجهر ».

أبو زكريا البريطاني

مهندس برمجيات ، يعمل حاليا كاستشاري في تكنولوجيا المعلومات ، يعيش مع أسرته في المملكة المتحدة ، اهتم طيلة حياته بمجال مقارنة الأديان ، ونتيجة لحياته في بريطانيا ولأصوله المختلطة العربية والأوروبية فقد اهتم اهتماماً خاصاً بالبحث في المسيحية والإسلام .
وقد جمع خلاصة تجاربه وخبراته الحوارية ومعلوماته في مقارنة الأديان في مدونة : www.ManyProphetsOneMessage.com ، مع تأليفه لعدد من الكتب في نفس المجال باللغة الإنجليزية ، مع مواصلة تقدمه البحثي والدراسي العلمي والأكاديمي .

جوال : ٠٥٣٩١٥٠٣٤٠٠ E-Mail:dalailcentre@gmail.com
Dalailcentre/



